

الروح الأبرار القسيم

في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل
من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء

تأليف

الإمام شمس الدين أبي عبد الله بن قيم الجوزية
المتوفى في سنة ٧٥١ هـ ومعه في رجب سنة ٧٥١ هـ

الناسخ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

عاصم بن محمد نے فرمایا ہم پر عبودت کو ابو بکر ابن عبد اللہ کے ثناء بخیر سے ہیں اپنے بچھلوں کی بائیں کرتے ہیں صف
 ۶ جہات کو مردے جانوروں کی بائیں گلے سنتے ہیں چہ جائے کہ انسانوں کی بات کہنے سنتے ہیں

۶ مردن پینے کو احسن کے قریب آنے سے خوش ہوتا ہے بلکہ اسے ساتھی بھی خوش ہوتے ہیں دعاء کی وجہ سے

بٹھے خماں کہ نروب میں دیکھا نہ آئے نہ وہ کی کہ اسان کون یہ سے نئے حکم فرماتے تو مالا نے فرمایا میری قبر پر آیا کہ
 کہو تکہ آئے سے مردے پھر کہتے ہیں اے لایح قبر اگر کا آتا ہے تو تم (مردے) پر ہے اور دیکھو جمع ہو جاتے ہیں

۸ ابلقہ نے کہا کہ میں ایک قبر پر سر لگاؤ کہ نیک کی تو مردے نے کہا تو نے مجھے بڑی تکلیف دی ہے

۱۲ بشا قبرت میں سے نکلا گیا اور فرمایا یہ قبر ہے اور فرمایا جب بشا قبر میں سے اترتا ہے تو میں تیرا دستار
 تارہا

۱۳ تلمسہ نے کہا کہ میں ایک قبر پر سر لگاؤ کہ نیک کی تو مردے نے کہا تو نے مجھے بڑی تکلیف دی ہے

۱۴ جب مردے سے اس وقت مر دت تعلق میں نہ رہے والے تعلق میں کو سنا سے (مذنب نے سنا)

۱۶ صعب بن عوف کا کہنا ہے کہ میں نے ایک مرد کو دیکھا جو ایک قبر پر آتا اور ملاقات کرتا

۱۷ آب بن عوف کا کہنا ہے کہ میں نے ایک مرد کو دیکھا جو ایک قبر پر آتا اور ملاقات کرتا

۱۸ ابن یحییٰ نے کہا کہ میں نے ایک مرد کو دیکھا جو ایک قبر پر آتا اور ملاقات کرتا

۲۲ حضرت عبد اللہ بن عمر اور عبد اللہ بن عمر نے ایک مرد کو دیکھا جو ایک قبر پر آتا اور ملاقات کرتا

۲۵ فالحم زید بن عمر ابو عبد العزیز کہ عمر ابن عبد العزیز نے اپنے خوب کا لقب عجیب واقع سنایا

۲۶ خوب میں عمر ابو عبد العزیز کو دیکھا کہ عمر ابن عبد العزیز نے اپنے خوب کا لقب عجیب واقع سنایا

۳۶ شہداء اور انبیاء اور ہر مدت عدم محض انہیں یہ ان بطنہ ایک لوح کی انتقال مکانی ہوتی ہے

۳۸ ارواح کی ملاقات بغیر متشکل ہونے ارواح کے بدن کے ساتھ نہیں کیونکہ وہ ہر دو مخلوق میں

۴۵ ہر ما انت بسمع من فی القبر میں نفی انتفاع کی ہے نہ کہ سماع کی کیونکہ مردے تو جو توہ کی آواز نہیں سنتے ہیں

۵۳ مردوں کی سزا کو جب گھوڑے سنتے ہیں تو سینے آواز دے شوق کی وجہ سے کھل جاتے ہیں

۱۹۱ حضرت ابو بکر صریق نے عمر فاروق کو سب کرنے والے کی حضرت علیؑ نے آنکھیں نکال دیں

شماره
395

الروح لأبراهيم

في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل
من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء

[قل الروح من أمر ربي ، وما
أوتيتم من العلم إلا قليلا]
(قرآن كريم)

تأليف

الامام شمس الدين أبي عبد الله بن قيم الجوزية
المتوفى في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة

دار الكتب العلمية

59591

١٣٩٩ - ١٩٧٩ م

بيروت - لبنان

المقدمة

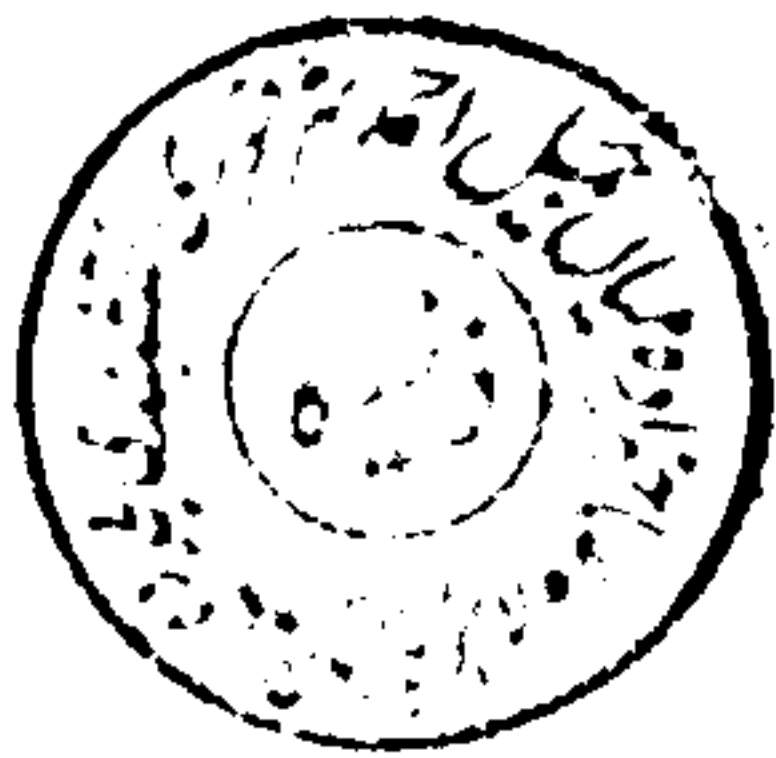
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المتصف بصفات الكمال (١) المنعوت بنعوت الجلال . الذي علم ما كان وما يكون وما هو كائن في الحال والمآل . وحكم بالموت على كل ذى روح من مخلوقاته . وساوى فيه بين الملك والمملوك والغنى والفقير والشريف والضعيف والعاصى والمطيع من سكان أرضه وسماواته . فهو الذى عدل فى الآخرة بين برياته ، قبض روح هذا بعد ما عمر الدنيا وزخرف البناء وتوطنها وليست لحنى وطنا ، وقبض روح الآخر الذى اجتهد فى إصلاح آخرته وجعل الدنيا لجة واتخذ صالح الاعمال فيها سفنا . فشتان ما بين خروج الروحين من الجسد ، هذه لها السعادة والهناء . وتلك لها الخيبة والشقاوة والعناء . هذه ترتع فى رياض الجنة وتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش فى لذة ونعيم . وتلك محبوسة تعذب فى نار الجحيم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله تحجب إلى عباده بنعمه وآلائه وابتدأهم سبحانه وتعالى بأحسانه العميم وعطائه فعيادا بعزته جل جلاله أن يختم بالاساءة وقد بدأنا بالإحسان فله سبحانه الحمد والشكر والنعمة والفضل والخلق والأمر والثناء الحسن الجميل والامتنان . وأشهد أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه عبده ورسوله الطيب الروح والجسد سيد ولد آدم وأفضل من قام وركع وسجد الذى أنزل عليه فى كتابه العزيز ، ومن أصدق من الله قيلاً (ويستلونك عن الروح الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) وعلى الله وصحبه خير القرون الذين اهتدوا وما بدلوا تبديلاً صلاة أئمة بدوام السموات والأرض إلى أن يرث الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها للحساب والعرض وسلم تسليماً كثيراً .

(١) متعلم فى أثناء هذه الخطبة أنها ليست بقلم ابن القيم ولعلها بقلم البقاعى فإن فى كشف الظنون بعد ذكر كتاب الروح لابن القيم ما لفظه باختصاره برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعى وسماه سر الروح وتوفى سنة ٨٨٥ هـ - الحمد لله المتصف بصفات الكمال - الخ ، وكأنه شبه على صاحب كشف الظنون فزعم أن البقاعى اختصر كتاب ابن القيم والظاهر أن البقاعى إنما صدر كتاب ابن القيم بهذه الخطبة وكأنه سماه من عنده سر الروح لأن ابن القيم لم يسم كتابه وإنما اشتهر بكتاب الروح لأنه كتاب فى مضمون الروح ثم صار ذلك علماً بالغلبة والله أعلم .

(وبعد) فهذا كتاب عظيم النفع جليل القدر كثير الفائدة ما صنف مثله في معناه فلا تكاد تجد ما تضمنه من بدائع الفوائد وفوائد القلائد في كتاب سواه . ويشتمل على جملة من المسائل تتضمن الكلام على أرواح الاموات والاحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار ، وأحوال العلماء الاخبار ، لأدري أسئل مصنفه قدس الله روحه عنها فأجاب . أم سئل عن البصر والكن هو أحوال الخطاب . فإني رأيت مجرداً عن خطبة وسؤال أصلامبتدنا فيه بقوله (أما المسألة الاولى وهي هل تعرف الاموات زيارة الاحياء وسلامهم أم لا) فأجبت بعد استخارة الله سبحانه وتعالى أن أفتحه بهذه الخطبة المباركة العظيمة . لكونه كتاباً في ضمن مسائله التي تتأملها وتشاهدها كل درة يتيمة اينشرح صدر الناظر فيه . ولتقوى همته على النظر في بدائع فوائده ودقائق معانيه . والله سبحانه وتعالى المستول المرجو الاجابة أن يهدنا من الزبغ والزلزل . وأن يوفقنا لصالح الثبة والقول والعمل . وأن يرفع درجات مؤمنه في جنات النعيم . وأن ينفع به الناظر فيه إنه سميع عليم . إنه على كل شيء قدير . وبالاجابة جدير . وهو حسبنا ونسب الوكيل .

(قال) الشيخ الإمام العالم العامل ترجمان القرآن ، ذو الفنون الحسان ، شيخ الإسلام ، قدوة الأنام ، أوسع الحفاظ ، فارس المعاني والالفاظ ، علامة العلماء ، وارث الانبياء ، عمدة المفسرين بغية المجتهدين شمس الدين أبو عبد الله ابن للشيخ الإمام العالم شرف الدين أبي بكر ابن الشيخ الكبير أبو بوب بن سعد الشهير بابن قيم الجوزية الحنبلي دمشقي قدس الله تعالى روحه ونور ضريحه وجعل أبواب الجنان بين يديه مفتوحة ، واسائر علماء الإسلام الجهابذة النقاد الاعلام آمين وصلى الله على سيدنا محمد سيد الاولين والآخريين وآله وصحبه أجمعين ؟



المسألة الأولى

وهي هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم أم لا ؟

قال ابن عبد البر ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : ما من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام . فهذا نص في أنه يعرفه بعينه ويرد عليه السلام .

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه متعددة أنه أمر بقتلي بدر فألقوا في قلب ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإني وجدت ما وعدني ربي حقا فقال له عمر يا رسول الله ما تخاطب من أقوام قد جيفوا فقال والذي بعثني بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جوابا .

وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه .

وقد شرع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأئمة إذا سلوا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول السلام عليكم دار قوم مؤمنين وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل - ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد .

والسلف مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحى له ويستبشر به .

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا في كتاب القبور باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء .

(حدثنا) محمد بن عون حدثنا يحيى بن يمان عن عبد الله بن سمعان عن زيد بن أسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم .

(حدثنا) محمد بن قدامة الجوهري حدثنا معن بن عيسى القزاز أخبرنا هشام بن سعد حدثنا زيد بن أسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام .

(حدثنا) محمد بن الحسين حدثني يحيى بن بسطام الأصغر حدثني مسمع حدثني رجل من آل عاصم الجعدي قال : رأيت عاصما الجعدي في منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس

قدمت؟ قال بلى قلت فأين أنت؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني فنلتق أخباركم قال قلت أجسادكم أم أرواحكم قال هيات بليت الاجسام وإنما تتلاقى الارواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال نعم نعلم بها عشية الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قال قلت فكيف ذلك دون الايام كلها؟ قال لفضل يوم الجمعة وعظمته .

(حدثنا) محمد بن الحسين حدثني بكر بن محمد حدثنا حسن القصاب قال كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى تأتي الجبان فنقف على القبور فنسلم عليهم وندعو لهم ثم ننصرف فقلت ذات يوم لوصيرت هذا اليوم يوم الاثنين قال بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبلها ويوما بعدها .

(حدثني) محمد حدثنا عبد العزيز بن ابان قال حدثنا سفيان الثوري قال بلغني عن الضمك أنه قال من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته فقبل له وكيف ذلك؟ قال لمكان يوم الجمعة .

(حدثنا) خالد بن خدش حدثنا جعفر بن سليمان عن أبي التياح قال كان مطرف يغدو فإذا كان يوم الجمعة أدبج (قال وسمعت أبا التياح) يقول بلغنا انه كان ينور له في سوطه فأقبل ليلة حتى إذا كان عند مقابر القوم وهو على فرسه فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره فقالوا هذا مطرف يأتي الجمعة قلت وتعلمون عندهم يوم الجمعة؟ قالوا نعم وتعلم ما يقول فيه الطير قلت وما يقولون؟ قالوا يقولون سلام سلام .

(حدثني) محمد بن الحسين حدثني يحيى بن أبي بكر حدثني الفضل بن موفق ابن خال سفيان بن عيينة قال لما مات أبي جزعت عليه جزعاً شديداً فكنت آتي قبره في كل يوم ثم قصرت عن ذلك ماشاء الله ثم أتيتني يوماً فبينما أنا جالس عند القبر غلبتني عيناي فممت فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج وكأنه قاعد في قبره متوشحاً أكفانه عليه سحنة الموتى (1) قال فكأنني بكيت لما رأيته قال يا بني ما أبطأ بك عنى قلت وإنك لتعلم بمجيبى؟ قال ماجئت مرة إلا علمتها وقد كنت تأتيني فأنس بك وأسر بك ويسر من حولي بدعائك قال فكنت آتية بعد ذلك كثيراً .

(حدثني) محمد حدثني يحيى بن بسطام حدثني عثمان بن سوادة الطفاوى قال وكانت أمه من العابدات وكان يقال لها راهبة قال لما حضرتك رفعت رأسها إلى السماء فقالت يا ذخرى

(1) السحنة: الهيئة واللون .

وذخیرتی ومن علیہ اعتمادی فی حیاتی وبعد موتی لاتخذانی عند الموت ولا توحشنی فی قبری قال فانت فکنت آتیها فی کل جمعة فادعو لها وأستغفر لها ولاهل القبور فرأيتها ذات يوم فی منامی فقلت لها یا أمه کیف أنت ؟ قالت ای بنی ان للموت لکربة شديدة وإنی بحمد الله لنی برزخ محمود نفترش فیہ الريحان وتتوسد فیہ السندس والاستبرق إلى يوم الذشور فقلت لها ألك حاجة ؟ قالت نعم قلت وما هی ؟ قالت لاتدع ما کنت تصنع من زیارتنا والنداء لنا فانی لأبشر بمجیک يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك . يقال لی یاراهبة هذا ابنک قد أقبل فأسر ویسر بذلك من حولی من الاموات .

(حدثنی) محمد بن عبد العزیز بن سلیمان حدثنا بشر بن منصور قال لما کان زمن الطاعون کان رجل یختلف إلى الجبان فیشهد الصلاة علی الجنائز فاذا أمسى وقف علی باب المقابر فقال آنس الله وحشتکم ورحم غربتکم وتجاوز عن مسیتکم وقبل حسناتکم لا یزید علی هؤلاء الکلمات قال فأمسیت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلی ولم آت المقابر فادعو كما کنت ادعو قال فینا أنا نائم إذا یخلق کثیر قد جاءونی فقلت ما أنتم وما حاجتکم ؟ قالوا نحن أهل المقابر قلت ما حاجتکم ؟ قالوا إنک عودتنا منک هدیة عند انصرافک إلى أهلك فقلت وما هی ؟ قالوا الدعوات التي کنت تدعو بها قال قلت فانی أعود لذلك قال فما ترکتها بعد .

(حدثنی) محمد بن أحمد بن سهل حدثنی رشد بن سعد عن رجل عن یزید بن أبی حبيب ان سلیم بن عمیر مر علی مقبرة وهو حاقن قد غلبه البول فقال له بعض أصحابه لو نزلت إلى هذه المقابر فبليت فی بعض حفرها فبکی ثم قال سبحان الله والله إنی لأستحي من الاموات كما استحي من الاحیاء ولولا أن المیت یشعر بذلك لما استحیا منه .

(وأبلغ) من ذلك أن المیت یعلم بعمل الحی من أقاربه وإخوانه . قال عبد الله بن المبارك حدثنی ثور بن یزید عن ابراهیم عن أبی ایوب قال تعرض أعمال الاحیاء علی الموتی فاذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا اللهم راجع به . و ذکر ابن أبی الدنيا عن أحمد بن أبی الحواری قال حدثنی محمد أخی قال دخل عباد بن عباد علی ابراهیم بن صالح وهو علی فلسطين فقال عظمی قال بهم أعظک أصلحک الله بلغنی ان أعمال الاحیاء تعرض علی أقاربهم الموتی فانظر ما یعرض علی رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم من عملک فبکی ابراهیم حتی اخضلت لحيته .

(قال) ابن أبی الدنيا وحدثنی محمد بن الحسين حدثنی خالد بن عمرو الاموی حدثنا صدقة بن سلیمان الجعفری قال كانت لی شجرة سمجة فات أبی فأنبت وندمت علی ما فرطت قال ثم زالت أیمانة فرأیت أبی فی المنام فقال ای بنی ما کان أشد فرحاً بك أعمالک تعرض علينا فذمها

بأعمال الصالحين فلما كانت هذه المرأة استحيت لذلك حياء شديداً فلا تخزني فيمن حولي من الاموات . قال فكنت أسمع بعد ذلك يقول في دعائه في السحر وكان جاراً لي بالكوفة أسألك إنابة لارجعة فيها ولا حور . يامصلح الصالحين ويا هادي المضلين ويا أرحم الراحمين .

وهذا باب في آثار كثيرة عن الصحابة وكان بعض الانصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول : اللهم إني أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة . كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله .

ويكفي في هذا تسمية المسلم عليهم زائراً ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائراً فإن المذور إن لم يعلم بزيارة من زاره لم يصح أن يقال زاره ، هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم ، وكذلك السلام عليهم أيضاً فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم محال وقد علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية .

وهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلم الرد وإذا صلى الرجل قريباً منهم شاهدوه وعلوا صلاته وغطوه على ذلك .

(قال) يزيد بن هارون أخبرنا سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي ^(١) أن ابن ساس خرج في جنازة في يوم وعليه ثياب خفاف فأنهى إلى قبر قال فصلت ركعتين ثم انكأت عليه فوالله إن قلبي ليقظان إذ سمعت صوتاً من القبر ، إليك عنى لا تؤذني فإنكم قوم تعملون ولا تعلمون ونحن قوم نعلم ولا نعمل ولأن يكون لي مثل ركعتيك أحب إلي من كذا وكذا ، فهذا قد علم باتكاء الرجل على القبر وبصلاته .

(وقال) ابن أبي الدنيا حدثني الحسين بن علي المجلي حدثنا محمد بن الصلت حدثنا اسماعيل ابن عياش عن ثابت بن سليم حدثنا أبو قلابة قال أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت منزلاً فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسي على قبر فنمت ثم انتبته فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول قد آذيتني منذ الليلة ثم قال إنكم تعملون ولا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزى الله أهل الدنيا خيراً أقرتهم منا السلام فإنه يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال .

^(١) هو عبد الرحمن بن مل - تقريب .

و (حدثني) الحسين العجلي حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا مالك بن مغول عن منصور عن زيد بن وهب قال خرجت إلى الجبانة فجلست فيها فإذا رجل قد جاء إلى قبر فسواه ثم تحول إلى مجلس قال فقلت لمن هذا القبر؟ قال أخ لي فقلت أخ لك؟ فقال أخ لي في الله رأيت في ما يرى النائم فقلت فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال قد قلتها لأن أقدر على أن أقولها أحب إلى من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونني فإن فلانا قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلى من الدنيا وما فيها .

(حدثني) أبو بكر التيمي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث بن سعد حدثني حميد الطويل عن مطرف بن عبد الله الحرشي قال خرجنا إلى الربيع في زمانه فقلنا ندخل يوم الجمعة لشهودها وطريقنا على المقبرة قال فدخلنا فرأيت جنازة في المقبرة فقلت لو اغتتمت شهود هذه الجنازة فشهدتها قال فاعتزلت ناحية قريباً من قبر فركعت ركعتين خففتها لم أرض اتقائهما ونعست فرأيت صاحب القبر يكلمني وقال ركعت ركعتين لم ترض اتقائهما؟ قلت قد كان ذلك، قال تعملون ولا تعلمون ولا تستطيع أن تعمل لأن أكون ركعت مثل ركعتيك أحب إلى من الدنيا بخدا فبرها فقلت من هاهنا؟ فقال كلهم مسلم وكلهم قد أصاب خيراً فقلت من هاهنا أفضل؟ فأشار إلى قبر فقلت في نفسي اللهم ربنا اخرج به إلى فأكله قال فخرج من قبره فتى شاب فقلت أنت أفضل من هاهنا؟ قال قد قالوا ذلك قلت فبأي شيء نلت ذلك فوالله ما أرى لك ذلك السن فأقول نلت ذلك بطول الحج والعمرة والجهاد في سبيل الله والعمل قال قد ابتليت بالمصائب فرزقت الصبر عليها فبذلك فضلتهم .

وهذه المراتي وإن لم تصح بمجرد لا ثبات مثل ذلك فهي على كثرتها وأنها لا يحصها إلا الله قد تواطأت على هذا المعنى وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرى رؤيا كما قد تواطأت على أنها في العشر الاواخر يعني ليلة القدر فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على شيء كان كتواطؤ روايتهم له وكتواطؤ رأيهم على استحسانه واستقباحه ومارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ومارآوه قبيحاً فهو عند الله قبيح على أننا لم نثبت هذا بمجرد الرؤيا بل بما ذكرناه من الحجج وغيرها .

وقد ثبت في الصحيح أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه (فروي) مسلم في صحيحه من حديث عبد الرحمن بن شماس المهرى قال حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار فجعل ابنه يقول ما يبكيك يا أبتاه أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكذا؟ فأقبل بوجهه فقال إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإني كنت على أطباق ثلاث لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم منى ولا أحب إلى أن أكون قد استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار فلما جعل الله الإسلام في قلبي لقيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت ابسط يدك فلا يبعك فبسط يمينه قال فقبضت يدي قال فقال مالك يا عمرو؟ قال قلت أردت أن اشترط قال تسترط ماذا؟ قلت أن يغفر لي قال أما هلت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ وما كان أحد أحب إلى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أجل في هيبتي منه وما كنت أطيق أن أملاً عيني منه إجلالاً له ولو سألت أن أصفه ما أطقت لأنى لم أكن أملاً عيني منه ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالى فيها فإذا أنامت فلا تصحبنى نائحة ولا نار فإذا دفنتموني فسرا على التراب سنا ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنجر جزور ويقسم لهما حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي فدل على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم.

وقد ذكر عن جماعة من السلف أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن قال عبد الحق يروى أن عبد الله بن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة. ومن رأى ذلك المعلى بن عبد الرحمن وكان الامام أحمد ينكر ذلك أولاً حيث لم يبلغه فيه أثر ثم رجع عن ذلك.

(وقال الخلال) في الجامع، كتاب القراءة عند القبور (اخبرنا) العباس بن محمد الدوري حدثنا يحيى بن معين حدثنا مبشر الحلبي حدثني عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه قال قال أنى إذا أنامت فضعتى في اللحد وقل بسم الله وعلى سنة رسول الله وسن على التراب سنا وقرأ عند رأسى بفاتحة البقرة فإني سمعت عبد الله بن عمر يقول ذلك (قال) عباس الدوري سألت أحمد بن حنبل قلت تحفظ في القراءة على القبر شيئاً؟ فقال لا وسألت يحيى ابن معين فحدثني بهذا الحديث.

(قال الخلال) وأخبرني الحسن بن أحمد الوراق حدثني على بن موسى الحداد وكان صدوقاً قال كنت مع أحمد بن حنبل ومحمد بن قدامة الجوهري في جنازة فلما دفن الميت جلس رجل ضربه يقرأ عند القبر فقال له أحمد يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لا أحمد بن حنبل يا أبا عبد الله ما تقول في مبشر الحلبي؟ قال ثقة قال كتبت عنه شيئاً، قال نعم فأخبرني مبشر عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمها وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك فقال له أحمد فارجع وقل للرجل يقرأ.

(وقال) الحسن بن الصباح الزعفراني سألت الشافعي عن القراءة عند القبر فقال
لابأس بها .

(وذكر الخلال) عن الشعبي قال كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره
يقرءون عنده القرآن . قال وأخبرني أبو يحيى النافذ قال سمعت الحسن بن الجروي يقول
مرت على قبر أخت لي فقرأت عندها تبارك لما يذكر فيها فجاءني رجل فقال إني رأيت
أختك في المنام تقول جزى الله أبا علي خيراً فقد انتفعت بما قرأ (أخبرني) الحسن بن الهيثم
قال سمعت أبا بكر بن الأطروش ابن بنت أبي نصر بن التمار يقول كان رجل يجيء إلى قبر أمه
يوم الجمعة فيقرأ سورة يس فجاء في بعض أيامه فقرأ سورة يس ثم قال اللهم إن كنت قست
لهذه السورة ثواباً فاجعله في أهل هذه المقابر فلما كان يوم الجمعة التي تليها جاءت امرأة فقالت
أنت فلان ابن فلانة ؟ قال نعم قالت إن بنتي ماتت فرأيتها في النوم جالسة على شفير قبرها فقلت
ما أجلسك ها هنا ؟ فقالت إن فلان ابن دلانة جاء إلى قبر أمه فقرأ سورة يس وجعل ثوابها
لأهل المقابر فأصابنا من روح ذلك أو غفر لنا أو نحو ذلك .

(وفي النسائي) وغيره من حديث معقل بن يسار المزني عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم
أنه قال اقرأوا ديس ، عند موتاكم . وهذا يحتمل أن يراد به قراءتها على المحتضر عند موته
مثل قوله : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله . ويحتمل أن يراد به القراءة عند القبر . والثاني
أظهر لوجوه .

(الأول) أنه نظير قوله : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله .

(الثاني) انتفاع المحتضر بهذه السورة لما فيها من التوحيد والمعاد والبشرى بالجنة لأهل
التوحيد وغبطة من مات عليه بقوله (ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين)
فتستبشر الروح بذلك فتعجب لقاء الله فيحب الله لقاءها فإن هذه السورة قلب القرآن ولها خاصية
عجيبة في قراءتها عند المحتضر .

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي قال كنا عند شيخنا أبي الوقت عبد الأول وهو في السياق
وكان آخر عهدنا به أنه نظر إلى السماء وضحك وقال (ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي
وجعلني من المكرمين) وقضى .

(الثالث) أن هذا عمل الناس وعاداتهم قديماً وحديثاً يقرأون ديس ، عند المحتضر .

(الرابع) أن الصحابة لو فهموا من قوله صلى الله عليه وآله وسلم اقرأوا ديس ، عند
موتاكم ، قراءتها عند القبر ؛ لما أدخلوا به وكان ذلك أمراً معتاداً مشهوراً بينهم .

(الخامس) ان ارتفاعه باستماعها وحضور قلبه وذهنه عند قراءتها في آخر عهده بالدنيا هو المقصود وأما قراءتها عند قبره فانه لا يثاب على ذلك لان الثواب إما بالقراءة أو بالاستماع وهو محسوق وقد انقطع من الميت .

وقد ترجم الحافظ أبو محمد عبد الحق الأشبيلي على هذا فقال ذكر ماجاء ان الموقى بسأئرين من الاحياء ويعرفون أقوالهم وأعمالهم ثم قال (ذكر) أبو عمر بن عبد البر من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما من رجل يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه إلا عرفه ورد عليه السلام . ويروى هذا من حديث أبي هريرة مرفوعا قال فون لم يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام .

(قال) ويروى من حديث عائشة رضی الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم .

والحقيق الحافظ أبو محمد في هذا الباب بما رواه أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من أحد يسم على إله الله على روحى حتى أرد عليه السلام . قال وقال سليمان بن نعيم رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في النوم فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفتهم منهم ؟ قال نعم وأرد عليهم ، قال وكان صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم أن يقولوا إذا دخلوا المقابر السلام عليكم أهل الديار الحديث . قال وهذا يدل على أن الميت يعرف سلام من يسم عليه ودعاء من يدعو له .

(قال أبو محمد) ويذكر عن الفضل بن الموفق قال كنت آتى قبر أبي المرة بعد المرة فأكثر من ذلك فشهدت يوماً جنازة في المقبرة التي دون فيها فتعجلت لحاجتى ولم آتته فلما كان من الليل رأيت في المنام فقال لى يا بنى لم لا تأتيني ؟ قلت له يا أبت وإنك لتعلم بى إذا أتيتك ؟ قال أى والله يا بنى لأزال أطلع عليك حين تطلع من القنطرة حتى تصل إلى وتقعده عندى ثم تقوم فلا أزال أنظر إليك حتى تجوز القنطرة .

قال ابن أبي الدنيا : حدثنى إبراهيم بن بشار الكوفي قال حدثنى الفضل بن الموفق فذكر القصة .

وصح عن عمرو بن دينار أنه قال ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وأنهم ليغسلونه ويكفنوناه وأنه لينظر إليهم .

وصح عن مجاهد أنه قال إن الرجل ليبشر في قبره بصلاح ولده من بعده .

فصل

ويدل على هذا أيضاً ما جرى عليه عمل الناس قديماً وإلى الآن من تلقين الميت في قبره ولو لا أنه يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة وكان عبثاً وقد سئل عنه الإمام أحمد رحمه الله فاستحسنه واحتج عليه بالعمل .

ويروى فيه حديث ضعيف ذكره الطبراني في معجمه من حديث أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يحيب ثم ليقل يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوى قاعداً ثم ليقل يا فلان ابن فلانة يقول أرشدنا رحمك الله ولكنكم لا تسمعون ، فيقول أذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنتك رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وبالقرآن إماماً ، فان منكرأ ونكيرأ يتأخر كل واحد منهما ويقول انطلق بنا ما يقعدنا عندهذا وقد لقن حجة ويكون الله ورسوله حجيجه دونهما فقال رجل يا رسول الله فإن لم يعرف أمه ؟ قال ينسبه إلى أمه حواء .

فهذا الحديث وإن لم يثبت فاتصال العمل به في سائر الامصار والاعصار من غير التكرار كاف في العمل به وما أجرى الله سبحانه العادة قط بأن أمة طبقت مشارق الأرض ومغربها وهي أكمل الأمم عقولاً وأوفرها معارف تطيق على مخاطبة من لا يسمع ولا يعقل وتستجيب لذلك لا ينكره منها منكر بل سنة الأول الآخر ويتقدم في الآخر بالأول فلولا أن الله عز وجل يسمع لكان ذلك بمنزلة الخطاب للتراب والخشب والحجر والمعدوم وهذا وإن استحسنه واحد فالعلماء قاطبة على استقباحه واستهجانته .

وقد روى أبو داود في سننه بإسناد لا بأس به أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حضر جنازة رجل فلما دفن قال سلوا لأخيكم التثبيت فإنه الآن يسأل . فأخبر أنه يسأل حينئذ وإذا كان يسأل فإنه يسمع التلقين .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الميت يسمع قرع نعالمهم إذا ولوا منصرفين . وذكر عبد الحق عن بعض الصالحين قال مات أخ لي فرأيت في النوم فقلت يا أخي ما كان حالك حين وضعت في قبرك ؟ قال أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعاني لهلك .

وقال شبيب بن شيبه أوصتني أمي عند موتها فقالت يا بني إذا دفنتي فقم عند قبري وقل يا أم شبيب قولي لا إله إلا الله فلما دفنتها قلت عند قبرها فقلت يا أم شبيب قولي لا إله إلا

الله ثم انصرف فلما كان من الليل رأيتها في النوم فقالت يا بني كدت أهلك لو
لا إله إلا الله فقد حفظك وصيتي يا بني .

وذكر ابن أبي الدنيا عن تماضر بنت سهل امرأة أيوب بن عيينة قالت رأيت سفيان بن عيينة
في النوم فقال جزى الله أخى أيرب عنى خيراً فإنه يزورنى كثيراً وقد كان عندي اليوم فقال
أيوب نعم حضرت الجبان اليوم فذهبت إلى قبره .

وروي عن حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب أن الصعب بن جثامة وعوف
بن ماث كانا متآخيين قال صعوب لعوف أي أخى أين مات قبل صاحبه فليتراما له قال أو يكون
ذئب ؟ قال نعم فمات صعوب ثم آه عوف فيما يرى النائم كأنه قد أتاه قال قلت أي أخى قال
أخى فمات ما فعل به ؟ قال لم يبق لنا بعد المصائب قال ورأيت لمعة سوداء في عنقه قلت أي
أخى ما هذا ؟ قال عشرة دنانير استسلمتها من فلان اليهودي فهن في قرني فأعطوه إياها ، واعلم
بأن أخى منهم لم يحدث في أهل حدث بعد موتي إلا قد لحق بي خبره حتى مرة لنا ماتت منذ
أيام . اعلم أن بنتي توت إلى ستة أيام واستوصوا بها معروفاً فلما أصبحت قلت إن في هذا لمعلما
فأتيت أهله فقلوا مرحباً بعوف وهكذا تصنعون بركة إخوانكم لم تقربنا منذ مات صعوب قال
فاعتذرت فاعتل به الناس فنظرت إلى القرن فأنزلته فانتقلت ما فيه فوجدت الصرة التي فيها
الدنانير فبعثت بها إلى اليهودي فقلت هل كان لك على صعوب شيء ؟ قال رحم الله صعبا كان
من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي له قلت لتخبرني قال نعم أسلفته
عشرة دنانير فبذتها إليه قال هي والله بأعيانها قال قلت هذه واحدة .

قال فقلت هل حدث فيكم حدث بعد موت صعوب قالوا نعم حدث فينا كذا حدث
قال قلت اذكروا قالوا نعم مرة ماتت منذ أيام فقلت هاتان اثنتان .

قلت أمينة أخى ؟ قالوا تلعب فأنتيت بها فمستها فإذا هي محومة فقلت استوصوا بها معروفاً
فماتت في ستة أيام .

وهذا من فقه عوف رحمه الله وكان من الصحابة حيث نفذ وصية الصعب بن جثامة بعد
موته وعلم صحة قوله بالقرائن التي أخبره بها من أن الدنانير عشرة وهي في القرن ثم سأل
اليهودي فطابق قوله لما في الرؤيا فجزم عوف بصحة الأمر فأعطى اليهودي الدنانير وهذا فقه
إنما يليق بأفقه الناس وأعلمهم وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولعل أكثر
التأخرين ينكر ذلك ويقول كيف جاز لعوف أن ينقل الدنانير من تركة صعوب وهي لا يتامه
رورته إلى يهودي بمنام .

ونظير هذا من الفقه الذي خصهم الله به دون الناس قصة ثابت بن قيس بن شماس وقد ذكرها أبو عمر بن عبد البر وغيره (قال) أبو عمر أخبرنا عبد الوارث بن سفيان حدثنا قاسم بن أصبغ حدثنا أبو الزباع روح بن الفرغ حدثنا سعيد بن عفير وعبد العزيز بن يحيى المدني حدثنا مالك بن أنس عن ابن شهاب عن إسماعيل بن محمد بن ثابت الأنصاري عن ثابت بن قيس بن شماس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة ؟ قال مالك فقتل ثابت بن قيس يوم اليمامة شهيدا .

(قال) أبو عمرو روى هشام بن عمار عن صدقة بن خالد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال حدثني عطاء الخراساني قال حدثتني ابنة ثابت بن قيس بن شماس قالت لما نزلت (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) دخل أبو هاببة وأغلق عليه بابه ففقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأرسل إليه يسأله ما خبره ؟ قال أنا رجل شديد الصوت أخاف أن يكون قد حبط عملي قال لست منهم بل تعيش بخير وموت بخير قال ثم أنزل الله (إن الله لا يحب كل مختال فخور) فأغلق عليه بابه وطلق يبكي ففقد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليه فأخبره فقال يا رسول الله إنى أحب الجمال وأحب أن أسود قومي فقال لست منهم بل تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة . قالت فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلة فلما التقوا وانكشفوا قال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم حفر كل واحد له حفرة فثبتنا وقاتلنا حتى قتلا وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة فرمى به رجل من المسلمين فأخذها فبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت في منامه فقال له أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتصعبه لاني لما قتلت أمس مررت برجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزله في أقصى الناس وعند خبائه فرس يستن في طوله وقد كفى على الدرع برمة وفوق البرمة رجل فأت خالداً فمره أن يبعث إلى درعي فياخذها وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعني أبا بكر الصديق فقل له أن على من الدين كذا وكذا وفلان من رقيق عتيق وفلان فأتى الرجل خالداً فأخبره فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدث أبا بكر بروياه فأجاز وصيته ، قال ولا نعلم أحداً أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس رحمه الله ، انتهى ما ذكره أبو عمرو .

فقد اتفق خالد وأبو بكر الصديق والصحابة معه على العمل بهذه الرؤيا وتنفيذ الوصية بها وانتزاع الدرع ممن هي في يده وهذا محض الفقه .

وإذا كان أبو حنيفة وأحمد ومالك يقبلون قول المدعى من الزوجين ما يصلح له دون الآخر بقرينة صدقه فهذا أولى .

ثابت بن قيس لما واقع

وكذلك أبو حنيفة يقبل قول المدعى للعائط بوجود الأجر إلى جانبه وبمعاقد القمط .
وقد شرع الله حد المرأة بأيمان الزوج وقرينة تكون لها فإن ذلك من أظهر الأدلة على
صدق الزوج .

وأبلغ من ذلك قتل المقسم عليه في القسامة بأيمان المدعين مع القرينة الظاهرة من اللوث .
وقد شرع الله سبحانه قبول قول المدعين لتركة ميتهم إذا مات في السفر وأوصى إلى
رجلين من غير المسلمين فاطلع الورثة على خيانة الوصيين بأنهما يخلفان بالله ويستحقانه وتكون
أيمانهم أقوى من أيمان الوصيين وهذا أنزله الله سبحانه في آخر الأمر في سورة المائدة وهي
من آخر القرآن نزولاً ولم ينسخها شيء وعمل بها الصحابة بعده .

وهذا دليل على أنه يقضى في الأموال باللوث وإذا كان الدم يباح باللوث في القسامة فلأن
يقضى باللوث وهو القرائن الظاهرة في الأموال أولى وأحرى .
عن هذا من ولاية العدل في استخراج السرقات من السراق حتى أن كثيراً ممن ينكر ذلك
عليهم يستعين بهم إذا سرق ماله .

وقد حكى الله سبحانه عن الشاهد الذي شهد بين يوسف الصديق وامرأة العزيز أنه حكم
بالقرينة على صدق يوسف وكذب المرأة ولم ينكر الله سبحانه عليه ذلك بل حكاه
عنه تقريراً له .

وأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن نبي الله سليمان بن داود أنه حكم بين المرأتين اللتين
ادعتا الولد للصغرى بالقرينة التي ظهرت له لما قال اتتوني بالسكين أشق الولد بينكما فقالت
الكبرى نعم رضيت بذلك للتسلي بفقد ابن صاحبتهما وقالت الأخرى لا تفعل هو ابنها فقضى به
لها للشفقة والرحمة التي قامت بقلبها حتى سمحت به للأخرى ويبقى حياً وتنظر إليه .

وهذا من أحسن الأحكام وأعدلها وشريعة الإسلام تقرر مثل هذا وتشهد بصحته وهل
الحكم بالقيافة والحق النسب بها الاعتماد على قرائن الشبه مع اشتباها وخفائها غالباً .

المقصود أن القرائن التي قامت في رؤيا عوف بن مالك وقصة ثابت بن قيس لا تقصر عن
كثير من هذه القرائن بل هي أقوى من مجرد وجود الأجر ومعاقد القمط وصلاحيه المتاع
للمدعى دون الآخر في مسألة الزوجين والصانعين وهذا ظاهر لاخفاء به وفطر الناس وعقولهم
تشهد بصحته وبالله التوفيق .

والمقصود جواب السائل وأن الميت إذا عرف مثل هذه الجزئيات وتفصيلها فعرفته
بزيارة الحى له وسلامه عليه ودعائه له أولى وأحرى .

المسألة الثانية

وهي أن أرواح الموتى هل تتلاقى وتتزاور وتتذاكر أم لا ؟

وهي أيضاً مسألة شريفة كبيرة القدر وجوابها أن الأرواح قسمان : أرواح معذبة وأرواح منعمة . فالمعذبة في شغل بما هي فيه من العذاب عن التزاور والتلاقي . والأرواح المنعمة المرسله غير المحبوسة تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا وما يكون من أهل الدنيا فتكون كل روح مع رفيقها الذي هو على مثل عملها وروح نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الرفيق الأعلى قال الله تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) وهذه المعية ثابتة في الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار الجزاء والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاثة .

(وروى) جرير عن منصور عن أبي الضحى عن مسروق قال : قال أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما يذبح لنا أن نفارقك في الدنيا فإذا مت رفعت فوقنا فلم نترك فأنزل الله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

(وقال الشعبي) جاء رجل من الأنصار وهو يبكي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال ما يبكيك يا فلان ؟ فقال يا نبي الله والله الذي لا إله إلا هو لأنك أحب إلي من أهل ومالي والله الذي لا إله إلا هو لأنك أحب إلي من نفسي ، وأنا أذكرك أنا وأهلي فبأخذني كذا حتى أراك فذكرت موتك وموتى فعرفت أني إن أجامعك إلا في الدنيا وإنك ترفع بين النبيين وعرفت أني إن دخلت الجنة كنت في منزل أدنى من منزلك ، فلم يرد النبي صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً فأنزل الله تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) إلى قوله (وكفى بالله علماً) وقال تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) أي ادخلي جملتهم وكوني معهم وهذا يقال للروح عند الموت .

(وفي قصة الاسراء) من حديث عبد الله بن مسعود قال لما أسرى النبي صلى الله عليه وسلم لقي إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فتذاكروا الساعة فبدأوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم ثم موسى فلم يكن عنده منها علم حتى أجمعوا الحديث إلى عيسى فقال عيسى عهد الله إلي فيأدون وجبتها فذكر خروج الدجال قال فأهبط

فأقنله ويرجع الناس^(۱) إلى بلادهم فتستقبلهم بأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فلا يمرون بماء إلا شربوه ولا يمرون بشيء إلا أفسدوه فيجأرون إلى فادعو^(۲) الله فيميتهم فتجأر الأرض إلى الله من ريحهم ويجأرون إلى فادعو ويرسل الله السماء بالماء فيحمل أجسامهم فيقذفها في البحر ثم ينسف الجبال ويمد الأرض مد الأديم فعهد الله إلى إذا كان كذلك فإن الساعة من الناس كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجؤم بولادتها ليلاً أو نهاراً ذكره الحاكم والبيهقي وغيرهما .

ارواح كل

وهذا نص في تذاكر الأرواح العلم .

مدونات

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وأنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل وهذا يدل على تلاقبهم من ثلاثة أوجه (أحدها) أنهم عند ربهم يرزقون وإذا كانوا أحياء فهم يتلاقون (الثاني) أنهم إذا استبشروا بأخوانهم لقدومهم عليهم ولقائهم لهم (الثالث) أن لفظ يستبشرون يفيد في اللغة أنهم يبشر بعضهم بعضاً مثل يتباشرون .

وقد تواترت المرأى بذلك (فنها) ما ذكره صالح بن بشير^(۳) قال رأيت عطاء السلي في النوم بعد موته فقلت له يرحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا فقال أما والله لقد أعزني ذلك فرحاً طويلاً وسروراً دائماً فقلت في أي الدرجات أنت؟ قال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

(وقال) عبد الله بن المبارك رأيت سفيان الثوري في النوم فقلت له ما فعل الله بك قال تميت محمداً وحزبه .

(وقال) صخر بن راشد رأيت عبد الله بن المبارك في النوم بعد موته فقلت أليس قد مت؟ قال بلى قلت فما صنع الله بك؟ قال غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثوري؟ قال بئح بئح ذلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

(وذكر) ابن أبي الدنيا^(۴) من حديث حماد بن زيد عن هشام بن حسان عن يقظة بنت

(۱) من المستدرك .

(۲) هكذا في المستدرك ووقع في الأصل إلى الله فيدعو .

(۳) هو أبو بشر المري البصرى مات سنة (۱۷۶) .

(۴) هو عبد الله بن محمد مات سنة (۲۸۱) .

راشد قالت كان مروان المحلى لى جاراً وكان قاضياً مجتهداً قالت فمات فوجدت عليه وجداً شديداً قالت فرأيتة فيما برى النائم قلت أبا عبدالله ما صنع بك ربك ؟ قال أدخلنى الجنة قلت ثم ماذا ؟ قال ثم رفعت إلى أصحاب اليمين قلت ثم ماذا ؟ قال ثم رفعت إلى المقربين قلت فمن رأيت من إخوانك ؟ قال رأيت الحسن وابن سيرين وميمون بن سياه . قال حماد قال هشام بن حسان فحدثنى أم عبدالله وكانت من خيار نساء أهل البصرة قالت رأيت فيما يرى النائم كأنى دخلت داراً حسنة ثم دخلت بستاناً فذكرت من حسنه ماشاء الله فإذا أنا فيه برجل متكئ على سرير من ذهب وحوله الوصفاء بأيديهم إلا كاريب قالت فإني لمتعجبة من حسن ما أرى إذ قيل هذا مروان المحلى أقبل فوثب فاستوى جالساً على سريره قالت واستيقظت من منامى فإذا جنازة مروان قد مربها على بابى تلك الساعة .

وقد جاءت سنة صريحة بتلاقى الأرواح وتعارفها (قال) ابن أبى الدنيا حدثنى محمد بن عبدالله بن بزيع أخبرنى فضيل بن سليمان النيرى حدثنى يحيى بن عبدالرحمن بن أبى لبيبة عن جده قال لما مات بشر بن البراء بن معرور وجدت عليه أم بشر وجداً شديداً فقالت يا رسول الله إنه لا يزال الهالك يهلك من بنى سلة فهل تتعارف الموتى فأرسل إلى بشر بالسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نعم والذي نفسى بيده يا أم بشر انهم ليتعارفون كما تتعارف الطير فى رهوس الشجر وكان لا يهلك هالك من بنى سلة إلا جاءته أم بشر فقالت يا فلان عليك السلام فيقول وعليك فتقول اقرأ على بشر السلام .

(وذكر) ابن أبى الدنيا من حديث سفيان عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير قال أهل القبور يتوكلون الأخبار إذا أتاهم الميت قالوا ما فعل فلان ؟ فيقول صالح . ما فعل فلان ؟ يقول صالح . ما فعل فلان ؟ فيقول أم يأتكم أو ما قدم على ؟ فيقولون لا فيقول إن الله وإنا إليه راجعون سلك به غير سبيلنا .

(وقال) صالح المري بلغنى أن الأرواح تلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التى تخرج إليهم كيف كان مأواك وفى أى الجسد كنت فى طيب أم خبيث ؟ ثم بكى حتى غلبه البكاء .

(وقال) عبيد بن عمير إذا مات الميت تلقته الأرواح يستخبرونه كما يستخبر الركاب ما فعل فلان ؟ ما فعل فلان ؟ فإذا قال توفى ولم يأتهم قالوا ذهب به إلى أمه الهاربة (وقال) سعيد بن المسيب إذا مات الرجل استقله والده كما يستقبل الغائب .

(وقال) عبيد بن عمير أيضاً لو أنى آيس من لقاء من مات من أهلى لالفانى قد مت كذا .

(وذكر) معاوية بن يحيى عن عبد الله بن سلمة أن أبا رهم المسمى حدثه أن أبا أيوب الأنصارى حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا فيقولون انظروا أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان؟ وماذا فعلت فلانة؟ وهل تزوجت فلانه؟ فإذا سألوه عن رجل مات قبله قال إنه قد مات قبلي قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المريية .

وقد تقدم حديث يحيى بن بسطام حدثني مسمع بن عاصم قال رأيت عاصما الجعدي في منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مات؟ قال بلى قلت وأين أنت؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني فتلقى أخباركم قلت أجسامكم أم أرواحكم؟ قال هيأت بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح .

المسألة الثالثة

وهي هل تتلاقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم لا؟

شواهد هذه المسألة وأدلتها أكثر من أن يحصها إلا الله تعالى والحس والواقع من أعدل الشهود بها فتلقى أرواح الأحياء والأموات كما تلتقى أرواح الأحياء وقد قال تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

(قال) أبو عبد الله بن منده حدثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن حسين الحراني حدثنا حمدي أحمد بن شعيب حدثنا موسى بن أعين عن مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال بلغني أن أرواح الأحياء والأموات تلتقى في المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها .

(وقال) ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا عند الله بن سليمان حدثنا الحسين حدثنا عامر حدثنا اسباط عن السدي وفي قوله تعالى (والتي لم تمت في منامها) قال يتوفاها في منامها فيلتقى روح الحى وروح الميت فيتذاكران ويتعارفان قال فترجع روح الحى إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتعجب .

وهذا أحد القولين في الآية وهو أن المسك من توفيت وفاة الموت أولا والمرسلة من

توفيت وفاة النوم والمعنى على هذا القول أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى .

والقول الثاني في الآية أن الممسكة والمرسلة في الآية كلاهما توفى وفاة النوم فن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكملها واختار شيخ الإسلام هذا للقول وقال عليه يدل القرآن والسنة قال فانه سبحانه ذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاة النوم وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بامساك ولا بإرسال بل هي قسم ثالث .

والذي يترجح هو القول الأول لأنه سبحانه أخبر بوفاتين وفاة كبرى وهي وفاة الموت ووفاة صغرى وهي وفاة النوم وقسم الأرواح قسمين قسمًا قضى عليها بالموت فأمسكها عنده وهي التي توفاها وفاة الموت وقسمًا لها بقية أجل فردها إلى جسدها إلى استكمال أجلها وجعل سبحانه الإمساك والإرسال حكيمين للوفاتين المذكورتين أولاً فهذه ممسكة وهذه مرسلة وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفاها في منامها فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين وفاة موت ووفاة نوم لم يقل (والتي لم تمت في منامها) فإنها من حين قبضت ماتت وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك (فيمسك التي قضى عليها الموت) .

ولمن نصر هذا القول أن يقول قوله تعالى (فيمسك التي قضى عليها الموت) بعد أن توفاها وفاة النوم فهو سبحانه توفاها أولاً وفاة نوم ثم قضى عليها الموت بعد ذلك والتحقيق أن الآية تناول النوعين فإنه سبحانه ذكر وفاتين وفاة نوم ووفاة موت وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء مات في النوم أو اليقظة ويرسل نفس من لم يمت فقوله : (يتوفى الأنفس حين موتها) يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام .

وقد دل على التقاء أرواح الأحياء والأموات أن الحى يرى الميت في منامه فيستخبره ويخبره الميت بما لا يعلم الحى فيصادف خبره كما أخبر في الماضى والمستقبل وربما أخبره بما لدفنه الميت في مكان لم يعلم به سواء وربما أخبره بدين عليه وذكر له شواهد وأدلته .

وأبلغ من هذا أنه يخبر بما عمله من عمل لم يطلع عليه أحد من العالمين وأبلغ من هذا أنه يخبره أنك تأتينا إلى وقت كذا وكذا فيكون كما أخبر وربما أخبره عن أمور يقطع الحى أنه لم يكن يعرفها غيره ، وقد ذكرنا قصة الصعب بن جثامة وقوله لعوف بن مالك ما قال له ، وذكرنا قصة ثابت بن قيس بن شماس وأخباره لمن رآه بدرعه وما عليه من الدين .

وقصة صدقة بن سليمان الجعفرى وأخبار ابنه له بما عمل من بعده ، وقصة شبيب بن شيبة
وقول أمه له بعد الموت جزاك الله خيراً حيث لقنها لا إله إلا الله ، وقصة الفضل بن الموفق
مع ابنه وإخباره إياه بعلمه بزيارته .

وقال سعيد بن المسيب التقي عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي فقال أحدهما للآخر إن
مت قبلي فالقني فأخبرني ما لقيت من ربك وإن أنا متك قبلك لقيتك فأخبرتك فقال الآخر
، هل تلتقى الأموات والأحياء ؟ قال نعم أرواحهم في الجنة تذهب حيث تشاء قال فأت
فلان فلقية في المنام فقال توكل وأبشر فلم أر مثل التوكل قط وقال العباس بن عبد المطلب
كنت أشبهن أن أرى عمر في المنام فما رأيته إلا عند قرب الحول فرأيتني يمسح العرق عن
جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى إن كاد عرشي ليهد لولا أن لقيت ربه وفارحياً .

ولما حضرت شريح بن عابد الثمالي الوفاة دخل عليه غضيف بن الحارث وهو يوجد بنفسه
فقال يا أبا الحجاج إن قدرت على أن تأتينا بعد الموت فتخبرنا بما ترى فافعل قال وكانت
كلمة مقبولة في أهل النخعة قال فمكث زماناً لا يراد ثم رآه في منامه فقال له أليس قد مت ؟
قال بن قال فكيف حالك ؟ قال تجاوز ربنا عنا الذنوب فلم يهلك منا إلا الأحرار قلت
وما الأحرار ؟ قال الذين يشار إليهم بالأصابع في الشيء .

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز رأيت أنى في النوم بعد موته كأنه في حديقة فدفع
إلى تماحات فأولهن الولد فقلت أى الأعمال وجدت أفضل ؟ فقال الاستغفار أى بنى .

ورأى مسلمة بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز بعد موته فقال يا أمير المؤمنين ليت
شعري إلى أى الحالات صرت بعد الموت ؟ قال يا مسلمة هذا أوان فراغى والله ما استرحت
إلا الآن قال قلت فأين أنت يا أمير المؤمنين قال مع أئمة الهدى في جنة عدن .

(قال) صالح البراد رأيت زراراً بن أوفى بعد موته فقلت رحمك الله ماذا قيل لك
وماذا قلت ؟ فأعرض عني قلت فما صنع الله بك ؟ قال تفضل على بجوده وكرمه قلت
فأبو العلاء بن يزيد أخو مطرف ؟ قال ذلك في الدرجات العلى قلت فأى الأعمال أبلغ فيما تتدكم ؟
قال التوكل وقصر الأمل .

(وقال) مالك بن دينار رأيت مسلم بن يسار بعد موته فسلمت عليه فلم يرد على السلام
فقلت ما يمنعك أن ترد السلام ؟ قال أنا ميت فكيف أرد عليك السلام فقلت له ماذا لقيت
بعد الموت ؟ قال لقيت والله أهوالاً وزلازل عظيماً شداًداً قال قلت له فما كان بعد ذلك ؟
قال وما تراه يكون من الكريم . قبل منا الحسنات ، وعفانا عن السيئات . وضمن عنا
التبعات . قال ثم شق مالك شهقة خر مغشياً عليه ، قال قلبك بعد ذلك أياماً مريضاً ،
ثم انصدع قلبه فمات .

59591

(وقال) سهيل أخو حزم رأيت مالك بن دينار بعد موته فقلت يا أبا يحيى ليت شعري ماذا قدمت به على الله قال قدمت بذنوب كثيرة محاسنها عن حسن الظن بالله عز وجل .
(ولما مات) رجاء بن حيوة رآته امرأة عابدة فقالت يا أبا المقدم إلام صرتم ؟ قال إلى خير ولكن فزعنا بعدكم فزعة ظننا أن القيامة قد قامت قالت قلت ومم ذلك ؟ قال دخل الجراح وأصحابه الجنة بأثقالهم حتى ازدحموا على بابها .

(وقال) جميل بن مرة كان مورق العجلى لى أخا وصديقاً فقلت له ذات يوم أينما مات قبل صاحبه فليأت صاحبه فليخبره بالذى صار إليه قال فمات مورق فرأت أهلى فى منامها كأنه أنا كما كان يأتى فقرع الباب كما كان يقرع قالت فقامت ففتحت له كما كنت أفتح وقلت أدخل يا أبا المعتمر إلى باب أخيك فقال كيف أدخل وقد ذقت الموت ؛ إنما جئت لأعلم جيلاً بما صنع الله بي أعليه أنه قد جعلنى فى المقربين .

(ولما مات) محمد بن سيرين حزن عليه بعض أصحابه حزناً شديداً فرآه فى المنام فى حال حسنة فقال يا أخى قد أراك فى حال يسرنى فما صنع الحسن ؟ قال رفع فوقى بسبعين درجة ، قلت ولم ذاك وقد كنا نرى أنك أفضل منه ؟ قال ذاك بطول حزنه .

(وقال) ابن عيينة رأيت سفيان الثورى فى النوم فقلت أوصنى قال أقل من معرفة الناس .

(وقال) عمار بن سيف رأيت الحسن بن صالح فى منامى فقلت قد كنت متمنياً للقاءك فماذا عندك فتخبرنا به فقال أبشر فإنى لم أر مثل حسن الظن بالله شيئاً .

(ولما مات) ضيفم العابد رآه بعض أصحابه فى المنام فقال أما صليت على ؟ قال فذكرت علة كانت فقال أمالو كنت على نجت رأسك .

(ولما مات) رابعة رآتها امرأة من أصحابها وعليها حلة استبرق وخمار من سندس وكانت كفت فى جبة وخمار من صوف فقالت لها ما فعلت الجبة التى كفتك فيها وخمار الصوف ؟ قالت والله انه نزع عنى وأبدلت به هذا الذى ترين على وطويت أكتافى وختم عليها ورفعت فى عليين ليكمل لى ثوابها يوم القيامة ، قالت فقلت لها لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ؟ فقالت وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله لأولياته فقلت لها فما فعلت عبدة بنت أبى كلاب ؟ فقالت هيات هيات سبقتنا والله إلى الدرجات العلى ، قالت قلت وبهم وقد كنت عند الناس أعبد منها ؟ فقالت انها لم تكن تبالى على أى حال أصبحت من الدنيا أو أمست فقلت فما فعل أبو مالك فعنى ضيفم فقالت يزور الله تبارك وتعالى متى شاء ، قالت :

قلت فما فعل بشر بن منصور؟ قالت بنح بنح أعطى والله فوق ما كان يأمل. قالت قلت مريني بأمر أتقرب به إلى الله تعالى قالت عليك بكثرة ذكر الله فيوشك أن تغتبطى بذلك في قبرك. (ولما مات) عبد العزيز بن سليمان العابد رآه بعض أصحابه وعليه ثياب خضر وهى رأسه أكليل من لؤلؤ فقال كيف كنت بعدنا وكيف وجدت طعام الموت وكيف رأيت الأمر هناك؟ قال أما الموت فلا تسأل عن شدة كربه وغمه إلا أن رحمة الله وارت عنا كل عيب وما تلقانا إلا بفضله.

(وقال) صالح بن بشر لما مات عطاء السلمي رأته في منامى فقلت يا أبا محمد ألسنت في زمرة الموتى؟ قال بلى. قلت فإذا صرت إليه بعد الموت؟ قال صرت والله إلى خير كثير ورب غفور شكور. قال قلت أما والله لقد كنت طويل الحزن في دار الدنيا، فتبسم وقال والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً. قلت ففي أى الدرجات أنت؟ قال مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

(ولما مات) عاصم الجحدري رآه بعض أهله في المنام فقال أليس قدمت؟ قال بلى قال فأين أنت؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصيحتنا إلى بكر بن عبد الله المازني فتتاق أخباركم، قال قلت أجسادكم أم أرواحكم؟ قال هيئات بليت الاجساد وإنما تتلاقى الأرواح.

(ورث) الفضيل بن عياض بعد موته فقال لم أر للعبد خيراً من ربه. (وكان مرة الهمداني) قد سجد حتى أكل التراب جبهته فلما مات رآه رجل من أهله في منامه وكان موضع سجوده كهية الكوكب الدرى فقال ما هذا الاثر الذى أرى بوجهك؟ قال كسى موضع السجود بأكل التراب له نوراً، قال قلت فما منزلتك في الآخرة؟ قال خير منزل، دار لا ينتقل عنها أهلها ولا يموتون.

(وقال) أبو يعقوب القارى رأيت في منامى رجلاً آدمياً طويلاً والناس يتبعونه قلت من هذا؟ قالوا أويس القرنى فاتبعته فقلت أوصنى يرحمك الله فكلح في وجهى فقلت مسترشد فأرشدنى رحمة الله فأقبل على فقال ابتغ رحمة الله عند محبته، واحذر نقمته عند معصيته، ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك، ثم ولى وتركنى.

(وقال) ابن السماك رأيت مسعراً في النوم فقلت أى الأعمال وجدت أفضل؟ قال مجالس الذكر (وقال الأجلح) رأيت سلمة بن كهيل في النوم فقلت أى الأعمال وجدت أفضل؟ قال قيام الليل (وقال) أبو بكر بن أبى مریم رأيت وفاة بن بشر بعد موته فقلت ما فعلت

ياوفاء؟ قال نجوت بعد كل جهد قلت فأى الأعمال وجدتموها أفضل قال البكاء من خشية الله عز وجل .

(وقال) الليث بن سعد عن موسى بن وردان أنه رأى عبد الله بن أبي حبيبة بعد موته فقال عرضت على حسناتي وسيناتي فرأيت في حسناتي حبات رمان التقطتهن فأكلتهن ، ورأيت في سيناتي خيطى حرير كانا في قلنسوتي .

(وقال) سنيذ بن داود حدثني ابن أخي جويرية بن أسماء قال كنا بعبادان فقدم علينا شاب من أهل الكوفة متعب فبات بها في يوم شديد الحر فقلت تبرد ثم نأخذ في جهازه فنمت فرأيت كأنى في المقابر فإذا بقبة جوهر تتلألاً حسناً وأنا أنظر إليها إذ انفطقت فأشرفت منها جارية ما رأيت مثل حسنها فأقبلت على فقالت بالله لا تحبسه عنا إلى الظهر قال فانتبهت فزعا وأخذت في جهازه وحفرت له قبراً في الموضع الذى رأيت فيه القبة فدفتته فيه .

(وقال) عبد الملك بن عتاب الليثى رأيت عامر بن عبد قيس في النوم فقلت أى الأعمال وجدت أفضل؟ قال ما أريد به وجه الله عز وجل .

(وقال) يزيد بن هارون رأيت أبا العلاء أيوب بن مسكين في المنام فقلت ما فعل بك ربك؟ قال غفر لي قلت بماذا؟ قال بالصبر والصلاة ، قلت رأيت منصور بن زاذان؟ قال هميات ذاك نرى قصره من بعيد .

(وقال) يزيد بن نعامه هلكت جارية في طاعون الجارف فلقبها أبوها بعد موتها فقال لها يا بنية أخبريني عن الآخرة ، قالت يا أبت قد منا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل وتمعنوا ولا تعلمون والله لتسيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في صحيفة عملى أحب إلى من الدنيا وما فيها وقال كثير بن مرة رأيت في منامى كأنى دخلت درجة علياء في الجنة فجعلت أطوف بها وأتعجب منها فإذا أنا بنساء من نساء المسجد في ناحية منها فذهبت حتى ملئت عليهن ثم قلت بما بلغت هذه الدرجة؟ قلن بسجديات وتكبيرات وقال مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز

عن قاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز قالت اتبته عمر بن عبد العزيز ليلة فقال لقد رأيت رؤيا معجبة قالت فقلت جعلت فداك فأخبرني بها فقال ما كنت لأخبرك بها حتى أصبح فلما طلع الفجر خرج فصلى ثم عاد إلى مجلسه ، قالت فاغتمت خلوته فقلت أخبرني بالرؤيا التى رأيت ، قال رأيت كأنى رفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر وإذا فيها قصر أبيض كأنه الفضة وإذا خارج قد خرج من ذلك القصر فهتف بأعلى صوته يقول أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى دخل ذلك القصر قال ثم إن آخر خرج من ذلك القصر فنادى

ورقم
عمر

أين أبو بكر الصديق أين ابن أبي قحافة ، إذ أقبل أبو بكر حتى دخل ذلك القصر ثم خرج آخر فنأدى أين عمر بن الخطاب ، فأقبل عمر حتى دخل ذلك القصر ثم خرج آخر فنأدى أين عثمان ابن عفان ، فأقبل حتى دخل ذلك القصر ثم خرج آخر فنأدى أين علي بن أبي طالب ، فأقبل حتى دخل ذلك القصر ثم ان آخر خرج فنأدى أين عمر بن عبد العزيز . قال عمر فقلت حتى دخلت ذلك القصر قال فدفعت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقوم حوله فقلت بيني وبين نفسي أين أجلس ، فجلست إلى جنب أبي عمر بن الخطاب فنظرت فإذا أبو بكر عن يمين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإذا عمر عن يساره فتأملت فإذا بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أبي بكر رجل فقلت من هذا الرجل الذي بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أبي بكر ؟ فقال هذا عيسى بن مريم فسمعت هاتفاً يهتف وبينى وبينه ستر نور يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنت عليه وانبت على ما أنت عليه ثم كأنه أذن لي في الخروج فخرجت من ذلك القصر فالتفت خلفي فإذا أنا بعثمان بن عفان وهو خارج من ذلك القصر يقول الحمد لله الذي نصرني وإذا علي بن أبي طالب في أثره خارج من ذلك القصر وهو يقول الحمد لله الذي غفر لي .

(وقال) سميد بن أبي عروبة عن عمر بن عبد العزيز رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر جالسان عنده فسلمت وجلست فينا أنا جالس إذ أتى بعلي ومعاوية فأدخلا بيتنا وأجيف عليها الباب وأنا أنظر فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول قضي لي ورب الكعبة وما كان بأسرع من أن خرج معاوية علي أثره وهو يقول غفر لي ورب الكعبة .

(وقال) حماد بن أبي هاشم جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله وأقبل رجلان يختصمان وأنت بين يديه جالس فقال لك يا عمر إذا عملت فاعمل بعمل هذين لأبي بكر وعمر فاستحلفته عمر بالله أرأيت هذه الرقيا ؟ خلف فبكي عمر .

(وقال) عبد الرحمن بن غنم رأيت معاذ بن جبل بعد وفاته بثلاث على فرس أبلق وخلفه رجال بيض عليهم ثياب خضر على خيل بلق وهو قدامهم وهو يقول (ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) ثم التفت عن يمينه وشماله يقول يا ابن رواحة يا ابن مظهر (الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نقبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) ثم صالحني وسلم علي .

(وقال) قبيصة بن عقبة رأيت سفیان الثوري في المنام بعد موته فقلت ما فعل الله بك؟ فقال:

نظرت إلى ربي عيانا فقال لي هنيئاً رضايا عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواماً إذا الليل قد دجا بعبرة محزون وقلب عميد
فدونك فاخترأي قصر تريده وزرني فإني منك غير بعيد

(وقال) سفیان بن عيينة: رأيت سفیان الثوري بعد موته يطير في الجنة من نخلة إلى شجرة ومن شجرة إلى نخلة وهو يقول (لمثل هذا فلا يعمل العاملون) فقيل له بما أدخلت الجنة؟ قال بالورع بالورع، قيل له فما فعل علي بن عاصم؟ قال ما نراه إلا مثل الكوكب.

(وكان) شعبة بن الحجاج ومسر بن كدام حافظين وكانا جليلين قال أبو أحمد البريدي فرأيتهما بعد موتهما فقلت أبا بسطام ما فعل الله بك؟ فقال وفقك الله لحفظ ما أقول:

حباتي إلهي في الجنان بقيّة لها ألف باب من الجين وجوهرها
وقال لي الرحمن يا شعبة الذي تبحر في جمع العلوم فأكثرها
تعم بقربي إني عنك ذورضا وعن عبد القوام في الليل مسعرا
كفا مسعراً عزا بأن سيزورني واكشف عن وجهي الكريم لينظرا
وهذا فعالي بالذين تنسكوا ولم يألوا في سالف الدهر منكرها

قال أحمد بن محمد اللبدي رأيت أحمد بن حنبل في النوم فقلت يا أبا عبد الله ما فعل الله بك؟ قال غفر لي ثم قال يا أحمد ضربت في ستين سوطاً، قلت نعم يا رب قال هذا وجهي قد أبحتك فانظر إليه.

وقال أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج حدثني رجل من أهل طوسوس قال دعوت الله عز وجل أن يريني أهل القبور حتى أسألهم عن أحمد بن حنبل ما فعل الله به؟ فرأيت بعد عشر سنين في المنام كأن أهل القبور قد قاموا على قبورهم فبادروني بالكلام فقالوا يا هذا كم تدعو الله عز وجل أن يريك إيانا تسألنا عن رجل لم يزل منذ فارقتكم تحليه الملائكة تحت شجرة طوبى قال أبو محمد عبد الحق وهذا الكلام من أهل القبور إنما هو اخبار عن علو درجة أحمد بن حنبل وارتفاع مكانه وعظم منزلته فلم يقدرُوا أن يعبروا عن صفة حاله وعن ما هو فيه إلا بهذا وما هو في معناه.

(وقال) أبو جعفر السقاء صاحب بشر بن الحارث رأيت بشرا الخافي ومعروف الكرخي وهما جائيان فقلت من أين؟ فقالا من جنة الفردوس زرنا كليم الله موسى .

(وقال) عاصم الجزري رأيت في النوم كأنني لقيت بشر بن الحارث فقلت من أين يا أبا نصر؟ قال من عليين ، قلت فما فعل أحد بن حنبل؟ قال تركته الساعة مع عبد الوهاب الوراق بين يدي الله عز وجل يأكلان ويشربان ، فقلت له فأنت قال علم قلة رغبتى في الطعام فأباحني النظر إليه .

(وقال) أبو جعفر السقاء رأيت بشر بن الحارث في النوم بعد موته فقلت أبا نصر ما فعل الله بك؟ قال الطغنى ورحمى وقال لى يا بشر لو سجدت لى فى الدنيا على الجمر ما أدبت شكر ما حشوت قلوب عبادى منك وأباح لى نصف الجنة فأسرح فيها حيث شئت ووعدنى أن يغفر لمن تبع جنازتى فقلت ما فعل أبو نصر التمار؟ فقال ذاك فوق الناس بصبره على بلائه وفقره .

قال عبد الحق لعله أراد بقوله نصف الجنة نصف نعيمها لأن نعيمها نصفان نصف روحانى ونصف جسمانى فيتعمون أولا بالروحانى فإذا ردت الأرواح إلى الأجساد أضيف لهم النعيم الجسمانى إلى الروحانى ، وقال غيره نعيم الجنة مرتب على العلم والعمل وحظ بشر من العمل كان أوفى من حظه فى العلم . والله أعلم .

(وقال) بعض الصالحين رأيت أبا بكر الشبلى فى المنام وكأنه قاعد فى مجلس الرصافة بالموضع الذى كان يقعد فيه وإذا به قد أقبل وعليه ثياب حسان فقمتم إليه وسلمت عليه وجلست بين يديه فقلت له من أقرب أصحابك إليك؟ قال ألهجهم بذكر الله وأقومهم بحق الله وأسرعهم مبادرة فى مرضاة الله .

(وقال) أبو عبد الرحمن الساحلى رأيت ميسرة بن سليم فى المنام بعد موته فقلت له طالت غيبتك فقال السفر طويل ، فقلت له فما الذى قدمت عليه؟ فقال رخص لى لانا كنا نفقى بالرخص ، فقلت فما تأمرنى به؟ قال اتباع الآثار وصحبة الاخيار ينجيان من النار ويقربان من الجبار .

(وقال) أبو جعفر الضير رأيت عيسى بن زاذان بعد موته فقلت ما فعل الله بك فأنشأ يقول :

لو رأيت الحسان فى الخلد حولى وأكواب معها للشراب
يترنمن بالكتاب جميعاً يتمشين مسبلات الثياب

(وقال) بعض أصحاب ابن جريج رأيت كأنى جئت إلى هذه المقبرة التي بمكة فرأيت على هامتها سرادقاً ورأيت منها قبراً عليه سرادق وقسطاط وسدرة فجتت حتى دخلت فسلمت عليه فإذا مسلم بن خالد الزنجي فسلمت عليه وقلت يا أبا خالد ما بال هذه القبور عليها سرادق وقبرك عليه سرادق وقسطاط وفيه سدرة فقال انى كنت كثير الصيام فقلت انى قبر ابن جريج وانى محله ، فقد كنت أجالسه وأنا أحب أن أسلم عليه فقال هكذا بيده هيات وأدار أصبعه السبابة وانى ابن جريج رفعت صحيفته فى عليين .

ورأى حماد بن سلمة فى النوم بعض الأصحاب فقال له ما فعل الله بك ؟ فقال قال لى طال ما كددت نفسك فى الدنيا فالىوم أطبل راحتك وراحة المتعبين .

وهذا باب طويل جداً فإن لم تسمح نفسك بتصديقه وقلت هذه منامات وهى غير معصومة فتأمل من رأى صاحباً له أو قريباً أو غيره فأخبره بأمر لا يعلمه إلا صاحب الرؤيا أو أخبره بما لدفنه أو حذره من أمر يقع أو بشره بأمر يوجد فوق كما قال أو أخبره بأنه يموت هو أو بعض أهله إلى كذا وكذا فيقع كما أخبر ، أو أخبره بنحسب أو جذب أو عدو أو نازلة أو مرض أو بغرض له فوق كما أخبره ، والواقع من ذلك لا يخصه إلا الله والناس مشتركون فيه وقد رأينا نحن وغيرنا من ذلك عجائب .

وأبطل من قال أن هذه كلها علوم وعقائد فى النفس تظهر لصاحبها عند انقطاع نفسه عن الشواغل البدنية بالنوم وهذا عين الباطل والمحال فإن النفس لم يكن فيها قط معرفة هذه الأمور التى يخبر بها الميت ولاخطرت ببالها ولاعندها علامة عليها ولاأمانة بوجه ما ونحن لانكر أن الأمر قد يقع كذلك .

وان من الرؤيا ما يكون من حديث النفس وصورة الاعتقاد بل كثير من مرآتى الناس إنما هى من مجرد صور اعتقادهم المطابق وغير المطابق .

فان الرؤيا على ثلاثة أنواع : رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان ورؤيا من حديث النفس . والرؤيا الصحيحة أقسام . منها : إلهام يلقيه الله سبحانه فى قلب العبد وهو كلام يكلم به الرب عبده فى المنام كما قال عبادة بن الصامت وغيره .

ومنها : مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها .

ومنها : التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم كما ذكرنا .

ومنها : خروج روحه إلى الله سبحانه وخطابها له .

ومنها : دخول روحه إلى الجنة ومشاهدتها وغير ذلك فالتقاء أرواح الأحياء والموتى نوع من أنواع الرؤيا الصحيحة التى هى عند الناس من جنس المحسوسات .

وهذا موضع اضطرب فيه الناس (فمن قائل) إن العلوم كلها كامنة في النفس وإنما اشتغالها بعالم الحس يحجب عنها مطالعتها فإذا تجردت بالنوم رأت منها بحسب استعدادها ولما كان تجردها بالموت أكمل كانت علومها ومعارفها هناك أكمل وهذا فيه حق وباطل فلا يرد كله ولا يقبل كله فإن تجرد النفس يطلعها على علوم ومعارف لا تحصل بدون التجرد لكن لو تجردت كل التجرد لم تطلع على علم الله الذي بعث به رسوله وعلى تفاصيل ما أخبر به عن الرسل الماضية والامم الحالية وتفاصيل المعاد وأشراط الساعة وتفاصيل الأمر والنهي والاسماء والصفات والأفعال وغير ذلك مما لا يعلم إلا بالوحي ولكن تجرد النفس عون لها على معرفة ذلك وتلقيه من معدنه أسهل وأقرب وأكثر مما يحصل للنفس المنغمسة في الشواغل البدنية .

(ومن قائل) إن هذه المراني علوم علقها الله في النفس ابتداء بلا سبب وهذا قول منكري الأسباب والحكم القوي وهو قول يخالف للشرح والعقل والفطرة .

(ومن قائل) أن الرؤيا أمثال مضرورية يضربها الله للعبد بحسب استعداده الفه على يد ملك الرؤيا فمرة يكون مثلاً مضروباً ومرة يكون نفس ما رآه الرائي فيطابق الواقع مطابقة العلم لمعلومه .

وهذا أقرب من القوانين قبله ولكن الرؤيا ليست مقصورة عليه بل لها أسباب آخر كما تقدم من ملاقاته الأرواح وأخبار بعضها بعضها ومن إلقاء الملك الذي في القلب والروح ومن رؤية الروح للأشياء مكافئة بلا واسطة .

(وقد ذكر) أبو عبد الله بن منده الحافظ في (كتاب النفس والروح) من حديث محمد بن حميد حدثنا عبد الرحمن بن مقراء الدومسي حدثنا الأزهر بن عبد الله الأزدي عن محمد بن عجلان عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال لقي عمر بن الخطاب على بن أبي طالب فقال له يا أبا الحسن ربما شهدت وغبنا وشهدنا وغبت ، ثلاث أسألك عنهن عندك منهن علم؟ فقال على ابن أبي طالب وما هن؟ فقال الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيراً ، والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شراً ، فقال على نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ، إن الأرواح جنود مجندة تلتقي في الهوا فقتلهم فإتعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، فقال عمر واحدة . قال عمر ، والرجل يحدث الحديث إذ نسيه فينا هو وما نسيه إذ ذكره فقال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ، ما في القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر بينا القمر مضيء إذا تجلته سحابة الظلم إذا تجلعت فأضاء وبيننا القلب يتحدث إذ تجلته سحابة فمضى إذ تجلعت منه فيذكر قال حمرا اثنتان قال والرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب ،

فقال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من عبد ينام يتمليء نوما إلا عرج بروحه إلى العرش فالذى لا يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تصدق والذي يستيقظ دون العرش فهي التي تكذب فقال عمر ثلاث كنت في طلبهن فالحمد لله الذي أصبتهن قبل الموت .

(وقال) بغية بن الوليد حدثنا صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر الحضرمي قال : قال عمر بن الخطاب عجبك لرؤيا الرجل يرى الشيء لم يخطر له على بال فيكون كما أخذ بيد ويرى الشيء فلا يكون شيئاً فقال علي بن أبي طالب يا أمير المؤمنين يقول الله عز وجل (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) قال والأرواح يعرج بها في منامها فما رأت وهي في السماء فهو الحق فإذا ردت إلى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتهما فما رأت من ذلك فهو الباطل . قال فجعل عمر يتعجب من قول علي قال ابن منده هذا خبر مشهور عن صفوان بن عمرو وغيره وروى عن أبي الدرداء .

(و ذكر) الطبراني من حديث علي بن أبي طلحة أن عبد الله بن عباس قال لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين أشياء أسألك عنها قال سل عما شئت قال يا أمير المؤمنين مم يذكر الرجل ومم ينسى ومم تصدق الرؤيا ومم تكذب ؟ فقال له عمر إن على القلب طخاوة كطخاوة القمر فإذا غشت القلب نسي ابن آدم فإذا انجلت ذكر ما كان نسي وأما مم تصدق الرؤيا ومم تكذب فإن الله عز وجل يقول : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) فمن دخل منها في ملكوت السماء فهي التي تصدق وما كان منها دون ملكوت السماء فهي التي تكذب .

(وروى) ابن لهيعة عن عثمان بن نعيم الرعيني عن أبي عثمان الأصمعي عن أبي الدرداء قال إذا نام الإنسان عرج بروحه حتى يوثق بها العرش فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود وإن كان جنبا لم يؤذن لها بالسجود .

(وروى) جعفر بن عون عن إبراهيم الهجري عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود انه قال إن الأرواح جنود مجندة تتلقى فتشأم كما تشأم الخيل فما تعارف منها ائتت وما تناكر منها اختلف .

ولم يزل الناس قديماً وحديثاً تعرف هذا وتشاهده قال جميل بن معمر العذري :

أظل نهاري مستهما وتلقى مع الليل روحى في المنام وروحها

فإن قيل : فالنائم يرى غيره من الأحياء بعدته ويخاطبه وربما كان بينهم مسافة بعيدة . يكون

المرق يقظان روحه لم تفارق جسده فكيف التقت روحاهما ؟ قيل هذا إما أن يكون مثلاً
مضروباً ضربه ملك الرؤيا للنائم أو يكون حديث نفس من الرائي تجرد له في منامه كما قال
حبيب بن أوس :

حقياً لطيفك من زور أنك به حديث نفسك عنه وهو مشغول

وقد تناسب الروحان وتشدد علاقة احدهما بالآخرى فيشعر كل منهما ببعض ما يحدث
لصاحبه وإن لم يشعر بما يحدث لغيره لشدة العلاقة بينهما وقد شاهد الناس من ذلك عجائب .
والمقصود أن أرواح الأحياء تتلاقى في النوم كما تتلاقى أرواح الأحياء والأموات قال
بعض السلف ان الأرواح تتلاقى في الهواء فتتعارف أو تتذاكر فيأتيها ملك الرؤيا بما هو
لاقيها من خير أو شر قال وقد وكل الله بالرؤيا الصادقة ملكاً عليه وألممه معرفة كل نفس
بعينها واسمها ومتقلها في دينها ودنياها وطبعها ومعارفها لا يشقه عليه منها شيء ولا يغلط
فيها فتأتيه نسخة من علم غيب الله من أم الكتاب بما هو نصيب لهذا الإنسان من خير
وشر في دينه ودنياه ويضرب له فيها الأمثال والأشكال على قدر عادته فتارة يبشره بخير
قدمه أو يتدبمه وينذره من معصية ارتكبها أو هم بها ويحذره من مكروه انعقدت أسبابه ليعارض
تلك الأسباب بأسباب تدفعها وتغير ذلك من الحكم والمصالح التي جعلها الله في الرؤيا نعمة
منه ورحمة وإحساناً وتذكيراً وتعريفاً وجعل أحد طرق ذلك تلاقى الأرواح وتذاكرها
وتعارفها وكما من كانت توبته وصلاحه وزهده واقباله على الآخرة عن منام رآه أو رقى له ،
وكما من استغنى وأصاب كنزاً دفيناً عن منام .

وفي (كتاب المجالسة) لآبي بكر أحمد بن مروان المالكي عن ابن قتيبة عن أبي حاتم عن
الأصمعي عن المعتز بن سليمان عن حدثه قال خرجنا مرة في سفر وكنا ثلاثة نفر فنام
أحدنا فرأينا مثل المصباح خرج من أنفه فدخل غاراً قريباً منه ثم رجع فدخل أنفه فاستيقظ
يمسح وجهه وقال رأيت عجباً رأيت في هذا الغار كذا وكذا فدخلناه فوجدنا فيه بقية
من ككنز كان .

وهذا عبد المطلب دل في النوم على زمزم وأصاب الكنز الذي كان هناك .

وهذا عمير بن وهب أتى في منامه فقيل له قم إلى موضع كذا وكذا من البيت فاحفره تجد
مال أبيك وكان أبوه قد دفن مالا ومات ولم يوص به فقام عمير من نومه فاحفر حيث
أمره فأصاب عشرة آلاف درهم وتبراً كثيراً فقضى دينه وحسن حاله وحال أهل بيته وكان
ذلك عقب إسلامه فقالت له الصغرى من بناته يا أبت ربنا هذا الذي حياتنا يدينه خير من
هبل والعزى ولولا انه كذلك ما ورثك هذا المال وإنما عبدته أياماً قلائل .

(قال) علي بن أبي طالب القبرواني العابر وما حديث عمير هذا واستخراجه المال بالمنام بأعجب مما كان عندنا وشاهدناه في عصرنا بمدينتنا من أبي محمد عبد الله البغاشي (١) وكان رجلاً صالحاً مشهوراً برواية الأموات وسؤالهم عن الغائبات ونقله ذلك إلى أهلهم وقراباتهم حتى اشتهر بذلك وكثر منه فكان المرء يأتيه فيشكو إليه أن حريمه قد مات من غير وصية وله مال لا يمتدى إلى مكانه فيعده خيراً ويدعو الله تعالى في ليلته فيترا آله الميت الموصوف فيسأله عن الأمر فيخبره به .

(فمن نوادره) ان امرأة عجززا من الصالحات توفيت ولأمرأة عندها سبعة دنانير وديعة فجاءت إليه صاحبة الوديعة وشكت إليه ما نزل بها وأخبرته باسمها واسم الميتة صاحبها ثم عادت إليه من الغد فتمال لها تقول لك فلانة عدى من سقف بيتي سبع خشبات تجدى الدنانير في السابعة في خرقة صوف ففعلت ذلك فوجدتها كما وصف لها .

(قال) وأخبرني رجل لا أظن به كدبا استأجرتني امرأة من أهل الدنيا على هدم دار لها وبنائها بمال معلوم فلما أخذت في الهدم لزمت الفعلة هي ومن معها فقلت مالك؟ قالت والله مالي إلى هدم هذه الدار من حاجة لكن أبي مات وكان ذا يسار كثير فلم نجد له كثير شيء نخلت أن ماله مدفون فعمدت إلى هدم الدار لعلي أجد شيئاً ، فقال لها بعض من حضر لقد فانك ما هو أهون عليك من هذا قالت وما هو؟ قال فلان تمضين إليه وتساينيه أن يبيت قصتك الليلة فلعله يرى أباك فيدلك على مكان ماله بلا تعب ولا كلفة فذهب إليه ثم عادت إلينا فرعمت أنه كتب اسمها واسم أبيها عنده فلما كان من الغد بكرت إلى العمل وجاءت المرأة من عند الرجل فقالت ان الرجل قال لي رأيت أباك وهو يقول المال في الخنية قال فجعلنا نحفر تحت الخنية وفي جوانبها حتى لاح لي شق وإذا المال فيه قال فأخذنا في التعجب والمرأة تستخف بما وجدت وتقول مال أبي كان أكثر من هذا ولكني أعود إليه فضت فأعلته ثم سأله المعاودة فلما كان من الغد أتت وقالت انه قال لها أن أباك يقول لك احفري تحت الجابية المربعة التي في مخزن الزيت قال ففتحت المخزن فإذا بجابية مربعة في الركن فأزلناها وحفرنا تحتها فوجدنا كوزاً كبيراً فأخذته ثم دام بها الطمع في المعاودة ففعلت فرجعت من عنده وعليها الكآبة فقالت زعم انه رآه وهو يقول له قد أخذت ما قدر لها وأما ما بقي فقد جلس عليه عفريت من الجن تحرسه إلى من قدر له والحكايات في هذا الباب كثيرة جداً .

(١) التمايشي .

وأما من حصل له الشفاء باستعمال دواء رأى من وصفه له في منامه فكثير جدا (وقد حدثني) غير واحد ممن كان غير مائل إلى شيخ الإسلام ابن تيمية أنه رآه بعد موته وسأله عن شيء كان بشكل عليه من مسائل الفرائض وغيرها فأجابته بالصواب .
وبالجملة فهذا أمر لا ينكره إلا من هو أجهل الناس بالارواح وأحكامها وشأنها وبالله التوفيق .

المسألة الرابعة

وهي أن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده ؟

اختلف الناس في هذا فقالت طائفة تموت الروح وتذوق الموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت .

قالوا وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده قال تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) وقال تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) قالوا وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت قالوا وقد قال تعالى عن أهل النار أنهم قالوا (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) فالموتة الأولى هذه المشهودة وهي للبدن والآخرى للروح .

وقال آخرون لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان قالوا وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب وقد قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) . هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاق الموت .

والدواب أن يقال موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخرجها منها فان أريد بمرتها هذا القدر فهي ذائقة الموت وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدا محضا فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب كما سيأتي ان شاء الله تعالى بعد هذا وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردّها الله في جسدها وقد نظم أحد بن الحسين الكندي هذا الاختلاف في قوله :

تتازع الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب
فقليل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

فإن قيل فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح حية كما هي أو تموت ثم تحيا؟ قيل قد قال تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السموات ومن في الأرض من هذا الصعق .

فقيل هم الشهداء هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير .

وقيل هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وهذا قول مقاتل وغيره .

وقيل هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها قاله أبو إسحق بن شاذان من أصحابنا .

وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان وأما قول أهل النار (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) فتفسير هذه الآية التي في البقرة وهي قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) فكانوا أمواتا وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور وليس في ذلك إمامة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها ففي الحديث الصحيح ان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى أخذ بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقه يوم الطور .

فمذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره حينئذ تصعق الخلائق بهم قال تعالى (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون) ولو كان هذا الصعق موتا لكانت موتة أخرى وقد تذهب لهذا جماعة من الفضلاء فقال أبو عبد الله القرطبي ظاهر هذا الحديث ان هذه صعقة غشى تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور قال وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو ظاهر حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدل على أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد النفخة الصعق ولما كان هذا فال بعض العلماء يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأبداء وهذا باطل وقال القاضي عياض يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تفسق السموات والأرض قال فتستقل الأحاديث والآثار ورد عليه أبو العباس القرطبي فقال يرد هذا قوله في الحديث الصحيح أنه حين يخرج من قبره يلقى موسى أخذاً بقائمة العرش قال وهذا إنما عند نفخة الفزع .

قال أبو عبد الله وقال شيخنا أحمد بن عمرو الذي يربح هذا الاشكال إن شاء الله تعالى

ان الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين وهذه صفة الأحياء في الدنيا وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى مع أنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأنه صلى الله عليه وآله وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء وخصوصاً بموسى وقد أخبر بأنه مامن مسلم بسلم عليه إلا رداً الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام . إلى غير ذلك مما يحصل من جلته القطع

وأنبياء
والموت عدم
كعدم
مفهوم
بعدم
مقال

بأن أموت لأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين حياءً . واذا كان الحال في الملائكة فانهم أحياء موجودون ولا تراهم وإذا تقرر انهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق الصعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فأما صعق غير الأنبياء فموت وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حتى ومن غشى عليه أفاق ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتفق على صحته ، فأكون أول من يفيق ، فبينما أول من يخرج من قبره فهبل جميع الناس إلا موسى . فإنه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً لأنه حوسب بصعقة يوم الطور وهذه فضيلة عظيمة لموسى ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقاً لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمراً كلياً ، انتهى .

قال أبو عبد الله القرطبي ان حمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال وإن حمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله فالمعنى إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور .

قلت وحمل الحديث على هذا لا يصح لأنه صلى الله عليه وآله وسلم تردد هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق بل جوزى بصعقة الطور فالمعنى لأدري أصعق أم لم يصعق ، وقد قال في الحديث فأكون أول من يفيق وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم يصعق فيمن يصعق وان التردد حصل في موسى هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهي صعقة الموت لسكان صلى الله عليه وآله وسلم قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يموت وهذا باطل لوجوه كثيرة فلم أنها صعقة فزع لا صعقة موت وحيث فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى نعم تدل على أن موت الخلاق عند النفخة الأولى وكل من لم يذوق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ . وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت مائة ثانية والله أعلم .

(فإن قيل) فكيف تصنعون بقوله في الحديث إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عليه الأرض فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ! قيل لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الاشكال ولكنه دخل فيه على الراوى حديث في حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا . والحديثان هكذا :

(أحدهما) ان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق .

(والثاني) هكذا : أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، ففي الترمذى وغيره من حديث أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولاخر وييدى لواء الحمد ولافخر وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولاخر قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

فدخل على الراوى هذا الحديث في الحديث الآخر وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ^(١) يقول ذلك .

(فإن قيل) فما تصنعون بقوله : فلا أدري أفاق قبلى أم كان ممن استثنى الله عز وجل والذين استثناهم الله إنهم مستثنون من صعقة النفخة لا من صعقة يوم القيامة كما قال الله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة قيل هذا والله أعلم غير محفوظ وهو وهم من بعض الرواة والمحموظ ما توأطأت الروايات الصحيحة من قوله فلا أدري أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور فظن بعض الرواة ان هذه الصعقة هى صعقة النفخة وأن موسى داخل فيمن استثنى منها وهذا لا يلتزم على مساق الحديث قطعاً فإن الإفاقة حينئذ هى إفاقة البحث فكيف يقول لأدري أبعث قبلى أم جوزى بصعقة الطور فتأمل ، وهذا بخلاف الصعقة التى يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء بين العباد وتبلى لهم فانهم يصعقون جميعاً . وأما موسى صلى الله عليه وسلم فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تبلى ربه للجبل فجعله دكا فجعلت صعقة هذا التبلى عوضاً من صعقة الخلائق لتبلى الرب يوم القيامة . فتأمل هذا المعنى العظيم . وللم يكن فى الجواب إلا كشاف هذا الحديث وإنه لكان حقيقة ان بعض عليه بانواعه والله الحمد والمنة وبه التوفيق .

(١) هو جمال الدين المزي محدث الشام . مات اثنا عشر صفر سنة (٦٤٢) .

المسألة الخامسة

روح كل ملاقات

بغير متشكل بينه وبين
بدن المسألة
قال
وهي أن الأرواح بعد مفارقة الأبدان إذا تجردت بأي شيء يتميز بعضها من بعض حتى تتعارف وتتلاقى وهل تشكل إذا تجردت بشكل بدنها الذي كانت فيه وتلبس صورته أم كيف يكون حالها .

هذه مسألة لا تكاد تجد من تكلم فيها ولا يظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل ولا سيما على أصول من يقول بأنها مجردة عن المادة وعلائقها وليست بداخل العالم ولا خارجه ولا لها شكل ولا قدر ولا شخص فهذا السؤال على أصولهم مما لا جواب لهم عنه وكذلك من يقول هي عرض من أعراض البدن فتميزها عن غيرها مشروط بقيامها ببدنها فلا تميز لها بعد الموت بل لا وجود لها على أصولهم بل تعدم وتبطل باضمحلال البدن كما تبطل سائر صفات الحي ولا يكن جواب هذه المسألة إلا على أصول أهل السنة التي تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل والقول أنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها في كتابنا الكبير في معرفة الروح والنفس وبيننا بطلان ما خالف هذا القول من وجوه كثيرة وإن من قال غيره لم يعرف نفسه .

وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالدخول والخروج والقبض والتوفى والرجوع وصعودها إلى السماء وفتح أبوابها لها وغلقها عنها فقال تعالى (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا أنفسكم) وقال تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد وقال تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) فأخبر أنه سوى النفس كما أخبر أنه سوى البدن في قوله (الذي خلقك فسواك فعدلك) فهو سبحانه سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه بل سوى بدنه كالقالب لنفسه فتسوية البدن تابع لتسوية النفس والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له .

ومن هاهنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها فانها تتأثر وتنتقل عن البدن كما يتأثر البدن وينتقل عنها فيكتسب البدن الطيب والخبيث من طيب النفس وخبيثها وتكتسب النفس الطيب والخبيث من طيب البدن وخبيثه فأشياء ارتباطا وتامبا وتفاعلا وتأثرا من أحدهما بالآخر الروح والبدن ولهذا يقال لها عند المفارقة اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب النفس واخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث .

وقال الله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فوصفها بالتوفى والامساك والارسال كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت . وأخبر أن الملك يقبضها فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض .

والاعراض لا يريح لها ولا تمسك ولا تؤخذ من يد إلى يد .

وأخبر أنها تصعد إلى السماء ويصلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض وأنها تفتح لها أبواب السماء فتصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل فتوقف بين يديه ويأمر بكتابة اسمه في ديوان أهل عليين أو ديوان أهل سبعين ثم ترد إلى الأرض وإن روح الكافر تطرح طرحاً وأنها تدخل مع البدن في قبرها للسؤال .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن نسمة المؤمن وهي روحه طائر يعلق في شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها .

وأخبر أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وأخبر أن الروح تنعم وتعذب في البرزخ إلى يوم القيامة .

وقد أخبر سبحانه عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدواً وعشياً قبل يوم القيامة وقد أخبر سبحانه عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون وهذه حياة أرواحهم ورزقها دار وإلا فالأبدان قد تمزقت وقد فمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الحياة بان أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعاً فقال هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شدنا فعل بهم ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى .

(وصح) عنه صلى الله عليه وآله وسلم أن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة وتعلق بضم اللام أى تأكل العلقة .

(وقال) ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مشربهم وما كلفهم وحسن مقيلهم قالوا

باليتم إخواننا يعلون ما صنع الله لنا لتلايزهدوا في الجهاد ولا ينكروا عن الحرب فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) الآيات رواه الإمام أحمد وهذا صريح في أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها وسيأتي مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله تعالى .

وإذا كان هذا شأن الأرواح فتميزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان فإن الأبدان تشبه كثيراً وأما الأرواح فقل ما تشبه .

يوضح هذا أنما تشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة وهم متميزون في علنا أظهر تميز وليس ذلك التميز راجعاً إلى مجرد أبدانهم وإن ذكر لنا من صفات أبدانهم ما يختص به أحدهم من الآخر بل التميز الذي عندنا بما علناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها ، وتميز الروح عن الروح بصفات أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته ، ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتهان كثيراً وبين روحيهما أعظم التباين والتميز ، وأنت ترى أخوين شقيقين مشابهيين في الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين ، فإذا تجردت هاتان الروحان كان تميزهما في غاية الظهور .

وأخبرك بأمر إذا تأملت أحوال الأَنْفُس والأبدان شامدته عياناً قل أن ترى بدنا قبيحاً وشكلاً شديعاً إلا وجدتته مركباً على نفس تشاكله وتناسبه وقل أن ترى آفة في بدن إلا وفي روح صاحبه آفة تناسبها ولهذا تأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها فتقل أن تخطئ ذلك .

(وبحسبى) عن الشافعى رحمه الله في ذلك عجائب .

وقل أن ترى شكلاً حسناً وصورة جميلة وتركيباً لطيفاً إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له هذا ما لم يعارض ذلك ما يوجب خلافه من تعلم وتدريب واعتياد .

وإذا كانت الأرواح العلوية وهم الملائكة متميزاً بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم وكذلك الجن فتميز الأرواح البشرية أولى .

المسألة السادسة

وهي أن الروح هل تعاد إلى الميت في قبره وقت السؤال أم لا ؟

فقد كفانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس حيث صرح باعادة الروح إليه فقال البراء بن عازب كنا في جنازة في بقيع الغرقود فأتانا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقعده وقعدنا حوله كأن على رءوسنا الطير وهو يلحده فقال أعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات ثم قال ان العبد إذا كان في اقبال من الآخرة وانقطع من الدنيا نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس فيجلسون منه مد البصر ثم يحمى ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفه عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال فيصعدون بها فلا يبرون بها يعني على ملائكة الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبدى في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول ربى الله فيقولان له ما دينك؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك بهذا؟ فيقول قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت، فينادى من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابا من الجنة قال فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ، قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعده ، فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه الذى يحمى بالخير فيقول أنا عمك الصالح ، فيقول رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . قال وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يحمى ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة أخرجي الى سخط من الله وغضب قال فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفه عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنه ريح جيفة

وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يبرون بها على ملا من الملائكة إلا قالوا ما هذا الريح الخبيث ؟ فيقولون فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى يذمور به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيقولان له من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدري ، فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدري فينادى مناد من السماء إن كذب عدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب مذن الریح فيقول أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يحيى بالشرف فيقول أنا عمك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة . رواه الإمام أحمد وأبو داود وروى النسائي وابن ماجه أوله ورواه أبو عوانة الأسفرائيني في صحيحه .

وذهب إلى القول بموجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث من سائر الطوائف . وقال أبو محمد بن حزم في كتاب الملل والنحل له وأما من ظن أن الميت يحيا في قبره قبل يوم القيامة خطأ ان الآيات التي ذكرناها تمنع من ذلك يعني قوله تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتان وأحييتنا اثنتين) وقوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) قال ولو كان الميت يحيا في قبره لكان تعالى قد أماتنا ثلاثا وأحيانا ثلاثا وهذا باطل وخلاف القرآن إلا من أحياه الله تعالى آية لنبي من الانبياء ، كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ، ثم أحياهم ، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، ومن خصه نص ، وكذلك قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلى جسده إلا إلى الأجل المسمى وهو يوم القيامة وكذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى الأرواح ليلة أسرى به عند سماء الدنيا من عن يمين آدم أرواح أهل السعادة وعن شماله أرواح أهل الشقاوة ، وأخبر يوم بدر إذ خاطب الموتى أنهم قد سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور ولم ينكر على الصحابة قولهم قد جيفوا ، واعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك ، فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلا شك ، وأما الجسد فلا حس له وقد قال تعالى (وما أنت بمسمع من في القبور)

فنفى السمع عن في القبور وهي الاجساد بلاشك ولايشك مسلم أن الذي نفى الله عز وجل عنه السمع هو غير الذي أثبت له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السمع . قال ولم يأت قط عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المساءة ولو صح ذلك عنه لقلنا به قال وإنما تفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح في القبور إلى الأجساد المنهال بن عمرو وحده وليس بالقوى تركه شعبة وغيره وقال فيه المغيرة بن مقسم الضبي وهو أحد الأئمة ماجازت المنهال بن عمرو قط شهادة في الإسلام على ما قد نقل وسائر الأخبار الثابتة على خلاف ذلك .

قال وهذا الذي قلنا هو الذي صح أيضاً عن الصحابة .

ثم ذكر من طريق بن عيينة عن منصور بن صفيية عن أمه صفيية بنت شيبه قالت دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحاً قبل أن يقبر فقليل له هذه أسماء بنت أبي بكر الصديق قال ابن عمر إليها فعزاها وقال ان هذه الجثث ليست بشيء وان الأرواح عند الله فقالت أمه وما يمنعني وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بني إسرائيل .

(قلت) ما ذكره أبو محمد فيه حق وباطل أما قوله من ظن أن الميت يحيا في قبره خطأ فهذا فيه إجمال ان أراد به الحياة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه وتحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس فهذا خطأ كما قال والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص .

وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعارة المسأفة في الدنيا ليسأل ويمتحن في قبره فهذا حق ونفيه خطأ وقد دل عليه النص الصحيح الصريح وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم فتعاد روحه في جسده ، وسند ذكر الجواب عن تضعيفه للحديث إن شاء الله تعالى .

وأما استدلاله بقوله تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) فلا ينفي ثبوت هذه الإعادة العارضة للروح في الجسد كما أن قتيل بني إسرائيل الذي أحياه الله بعد قتله ثم أماته لم تكن تلك الحياة العارضة له للمساءلة معتدا بها فإنه يحيى لحظة بحيث قال فلان قتلتني ثم خر ميتا على أن قوله ثم تعاد روحه في جسده لا يدل على حياة مستقرة وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن وتعلق به والروح لم تزال متعلقة ببدنها وإن بل وتمزق .

وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام .

(أحدها) تعلقها به في بطن الأم جنينا .

(الثاني) تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

(الثالث) تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه .

(الرابع) تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقت وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها انفات إليه البتة وقد ذكرنا في أول الجواب من الاحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه وقت سلام المسلم وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة .

(الخامس) تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه إذ تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً .

وأما قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فامساك سبحانه التي قضى عليها الموت لا ينافي ردها إلى جسدها الميت في وقت ما رداً عارضاً لا يوجب له الحياة المعهودة في الدنيا .

وإذا كان النائم روجه في جسده وهو حي وحياته غير حياة المستيقظ فإن النوم شقيق الموت فهكذا الميت إذا أعيدت روجه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحي وبين الميت الذي لم ترد روجه إلى بدنه كحال النائم المتوسطة بين الحي والميت فتأمل هذا يزج عنك إشكالات كثيرة .

وأما أحاديث التي نسبها إليه وآله وسلم عن رؤية الأنبياء ليلة أُسرى به فقد زعم بعض أهل الحديث أن النبي رأى أشباحهم وأرواحهم قال فإنهم أحياء عند ربهم ، وقد رأى إبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ورأى موسى قائماً في قبره يصلي وقد نعت الأنبياء لما رأهم نعت الأشباح فرأى موسى آدمياً ضرباً طوالاً كأنه من رجال شنوءة ، ورأى عيسى يقطر رأسه كأنما أخرج من ديماس ، ورأى إبراهيم فشمه بنفسه .

ونازعهم في ذلك آخرون وقالوا هذه الرؤية إنما هي لأرواحهم دون أجسادهم والأجساد في الأرض قطعاً إنما تبعث يوم بعث الأجساد ولم تبعث قبل ذلك إذ لو بعثت قبل ذلك لمكانت قد انشقت عنها الأرض قبل يوم القيامة وكانت تذوق الموت عند نفخة الصور وهذه موتة ثالثة وهذا باطل قطعاً ولو كانت قد بعثت الأجساد من القبور لم يعدم الله إليهم بل كانت في الجنة وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله حرم الجنة على الأنبياء حتى يدخلها هو وهو أول من يستفتح باب الجنة وهو أول من تذوق عنه الأرض على الإطلاق لم تذوق عن أحد قبله .

ومعلوم بالضرورة أن جسده صلى الله عليه وآله وسلم في الأرض طرى مطراً وقد سأله الصحابة كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرميت ؟ فقال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

ولو لم يكن جسده في ضريحه لما أجاب بهذا الجواب .
 وقد صح عنه أن الله وكل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام .
 وصح عنه أنه خرج بين أبي بكر وعمر وقال هكذا نبعث .
 هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلى في أعلى عليين مع أرواح الأنبياء .
 وقد صح عنه أنه رأى موسى قائماً يصلي في قبره ليلة الاسراء ورآه في السماء السادسة أو
 السابعة . فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن في القبر وإشراف عليه وتعلق به بحيث يصلي
 في قبره ويرد سلام من سلم عليه وهي في الرفيق الأعلى .
 ولاتنافي بين الأمرين فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان وأنت تجسد الروحين المتماثلتين
 المتناسبتين في غاية التجاور والقرب وإن كان بينهما بعد المشرقين وتجسد الروحين المتنافرتين
 المتماثلتين بينهما غاية البعد وإن كان جسدهما متجاورين متلاصقين .
 وليس نزول الروح وصعودها وقربها وبعدها من جنس ما للبدن فإنها تصعد إلى ما فوق
 السموات ثم تهبط إلى الأرض ما بين قبضها ووضع الميت في قبره وهو زمن يسير لا يصعد
 البدن وينزل في مثله وكذلك صعودها وعودها إلى البدن في النوم واليقظة وقد مثله
 بالشمس وشعاعها فإنها في السماء وشعاعها في الأرض ، قال شيخنا وليس هذا مثلاً بل
 فإن نفس الشمس لا تنزل من السماء والشعاع الذي على الأرض ليس هو الشمس ولا صلتها
 بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها والروح نفسها تصعد وتنزل وأما
 قول الصحابة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في قتلى بدر كيف تخاطب أقواماً قد جيفوا مع
 أخباره بسماعهم كلامه فلا ينفى ذلك رد أرواحهم إلى أجسادهم ذلك الوقت رداً يسمعون به
 خطابه والأجساد قد جيفت فالخطاب للأرواح المتعلقة بتلك الأجساد التي قد فسدت .

أما قوله تعالى (وما أنت بمسمع من في القبور) فسياق الآية يدل على أن المراد منها

أن الكافر الميت القلب لا تقدر على إسماعه إسماعاً ينتفع به كما أن من في القبور لا تقدر على
 إسماعهم إسماعاً ينتفعون به ولم يرد سبحانه أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئاً التة كيف
 وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين وأخبر أن قتلى بدر
 سمعوا كلامه وخطابه وشرع السلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذي يسمع وأخبر أن من
 سلم على أخيه المؤمن رد عليه السلام .

هذه الآية نظير قوله (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين)
 وقد يقال نفى إسماع الصم مع نفى إسماع الموتى يدل على أن المراد عدم أهلية كل منهما للسمع

وأن قلوب هؤلاء لما كانت ميتة صماء كان اسماعها ممتعاً بمنزلة خطاب الميت والأصم وهذا حق وإن كان لا ينفق لإسماع الأرواح بعد الموت لإسماع توييخ وتقرير بواسطة تعلقها بالأبدان في وقت ما فهذا غير الإسماع المنقى والله أعلم .

وحقيقة المعنى أنك لا تستطيع أن تسمع من لم يشأ الله أن يسمعه إن أنت إلا نذير أى إنما جعل الله لك الاستطاعة على الإنذار الذى كلفك إياه لا على إسماع من لم يشأ الله إسماعه .
وأما قوله إن الحديث لا يصح لتفرد المنهال بن عمرو وحده به وليس بالقوى ، فهذا من مجازفته رحمه الله فالحديث صحيح لا شك فيه وقد رواه عن البراء بن عازب جماعة غير زاذان منهم عدى بن ثابت ومحمد بن عقبة ومجاهد .

(قال) الحافظ أبو عبد الله بن منده فى (كتاب الروح والنفس) أخبرنا محمد بن يعقوب ابن يوسف حدثنا محمد بن اسحق الصفار أنبأنا أبو النضر هاشم بن القاسم حدثنا عيسى بن المسيب عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فاتمينا إلى القبر ولما يلحد جلسنا وجلس كأن على أكتافنا فلق الصخر وعلى رؤوسنا الطير فأرم قليلاً ، والارمام السكوت ، فلما رفع رأسه قال إن المؤمن إذا كان فى قف من الآخرة ودبر من الدنيا وحضره ملك الموت نزلت عليه ملائكة معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة فجلسوا منه مد البصر وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه ثم قال اخرجى أيتها النفس المطمئنة اخرجى إلى رحمة الله ورضوانه فتذلل (١) نفسه كما تقطر للقطرة من السماء فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل من بين السماء والأرض إلا الثقلين ثم يصعد به إلى السماء فتفتح له السماء ويشيعه مقربوها إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة إلى العرش مقربو كل سماء فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه فى عليين ويقول الرب عز وجل ردوا عبدى إلى مضجعه فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فيرد إلى مضجعه فيأنيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنبياءهما ويفحصان الأرض بأشعارهما فيجلسانه ثم يقال له يا هذا من ربك ؟ فيقول ربى الله ، فيقولان صدقت ثم يقال له ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان صدقت ، ثم يقال له من نبيك ؟ فيقول محمد رسول الله ، فيقولان صدقت ، ثم يفسح له فى قبره مد بصره ويأنيه رجل حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول جزاك الله خيراً فوالله ما علمت إن كنت لسريعاً فى طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فيقول وأنت جزاك الله خيراً فن أنت ؟ فيقول أنا عمك الصالح ، ثم يفتح له باب إلى الجنة فينظر

(١) الظاهر : فتسيل .

إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة ، وان الكافر إذا كان في دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزات عليه من السماء ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من نار قال فيجلسون منه مد بصره وجاء ملك الموت فيجلس عند رأسه ثم قال اخرجي أيتها النفس الحبيثة اخرجي إلى غضب الله وسخطه فتفرق روحه في جسده كراهية ان تخرج لما ترى وتعاين فيستخرجها كما يستخرج السفود من الصوف المبلول فإذا خرجت نفسه اخذ كل شيء بين السماء والأرض إلا الثقلين ثم يصعد به إلى السماء فتغلق دونه فيقول الرب عز وجل ردوا عبدى إلى مضجعه فإني وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فترد روحه إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران في الأرض بأنبياهما ويفحصان الأرض بأشعارهما أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيجلسانه ثم يقولان يا هذا من ربك ؟ فيقول لا أدري ، فينادى من جانب القبر لا دريت فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخائفين لم تقل ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول جزاك الله شراً فوالله ما علمت إن كنت لطيفاً عن طاعة الله سريعاً في معصية الله فيقول ومن أنت ؟ فيقول أنا عمك الحبيث ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة رواه الإمام أحمد ومحمود بن غيلان وغيرهما عن أبي بصير .

ففيه أن الأرواح تعاد إلى القبر وأن الملكين يجلسان الميت ويستنطقانه .

(ثم ساقه) ابن منده من طريق محمد بن سلمة عن خصيف الجزرى عن مجاهد عن البراء ابن عازب قال كنا في جنازة رجل من الانصار ومعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانتبهنا إلى القبر ولم يلحد ووضعنا الجنازة وجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال إن المؤمن إذا احتضر أتاه ملك الموت في أحسن صورة وأطيبه ريحاً^(١) فيجلس عنده لقبض روحه وأتاه ملكان بحنوط من الجنة وكفن من الجنة وكانا منه على بعد فاستخرج ملك الموت روحه من جسده رشحاً فإذا صارت إلى ملك الموت ابتدرها الملكان فأخذاها منه فخطاها بحنوط من الجنة وكفناها بكفن من الجنة ثم عرجا به إلى الجنة ففتح له أبواب السماء وتبشروا بالملائكة بها ويقولون لمن هذه الروح الطيبة التي فتحت لها أبواب السماء ؟ ويسمى بأحسن الأسماء التي كان يسمى بها في الدنيا ، فيقال هذه روح فلان فإذا صعد بها إلى السماء شيعها مقربو كل سماء حتى توضع بين يدي الله عند العرش فيخرج عملها من عليين فيقول الله عز وجل المقربين أشهدوا أنى قد غفرت لصاحب هذا العمل ويحتم كتابه فيرد في عليين فيقول الله عز وجل

(١) كذا في الأصل . واعلمه : وأطيبها ريحاً .

ردوا روح عبدى إلى الارض فإنى وعدتهم أنى أردهم فيها ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) فإذا وضع المؤمن فى قبره فتح له باب عند رجليه إلى الجنة فيقال له أنظر إلى ما أعد الله لك من الثواب ويفتح له باب عند رأسه إلى النار فيقال له أنظر ما صرف الله عنك من العذاب ثم يقال له تم قرير العين فليس شيء أحب إليه من قيام الساعة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا وضع المؤمن فى لحده تقول له الارض إن كنت لحيبا إلى وأنت على ظهري فكيف إذا صرت اليوم فى بطن سأريك ما أصنع بك فينسخ له فى قبره مد بصره ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا وضع الكافر فى قبره أنه منكر ونكير فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول لا أدري فيقولان له لا دريت فيضربانه ضربة فيصير رمادا ثم يعاد فيجلس فيقال له ما قولك فى هذا الرجل ؟ فيقول أى رجل فيقولان محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيقول قال الناس أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيضربانه ضربة فيصير رمادا .

هذا حديث ثابت مشهور مستفيض صححه جماعة من الحفاظ ولا نعلم أحداً من أئمة الحديث طعن فيه بل روه فى كتبهم وتلقوه بالقبول وجعلوه أصلا من أصول الدين فى عذاب القبر ونعيمه ومسألة منكر ونكير وقبض الأرواح وصعودها إلى بين يدي الله ثم رجوعها إلى القبر وقول أبى محمد لم يروه غير زاذان فوهم منه بل رواه عن البراء غير زاذان ورواه عنه عدى بن ثابت ومجاهد بن جبير ومحمد بن عقبة وغيرهم وقد جمع الدارقطنى طريقه فى مصنف مفرد ، وزاذان من الثقة روى عن أكبر الصحابة كعمر وغيره وروى له مسلم فى صحيحه قال يحيى بن معين ثقة وقال حميد بن هلال وقد سئل عنه هو ثقة لا تسأل عن مثل هؤلاء وقال ابن عدى أحاديثه لا بأس بها إذا روى عن ثقة .

وقوله ان المنهال بن عمرو تفرد بهذه الزيادة وهى قوله فتعاد روحه فى جسده وضعفه . فالمنهال أحد الثقة العدول ، قال ابن معين المنهال ثقة ، وقال العجلي كوفى ثقة . وأعظم ما قيل فيه أنه سمع من بيته صوت غناء وهذا لا يوجب القدح فى روايته واطراح حديثه وتضعيف ابن حزم له لاشيء فإنه لم يذكر موجبا لتضعيفه غير تفرد به بقوله فتعاد روحه فى جسده وقد بينا أنه لم يتفرد بها بل قد رواها غيره وقد روى ما هو أبلغ منها أو نظيرها كقوله فترد إليه روحه وقوله فتصير إلى قبره فيستوى جالسا ، وقوله فيجلسانه ، وقوله فيجلس فى قبره ، وكلها أحاديث صحاح لا معزز فيها . وقد أعل غيره بأن زاذان لم يسمعه من البراء وهذه العلة باطلة فإن أباعوانة الاسفرائينى رواه فى صحيحه بإسناده وقال عن أبى عمرو زاذان الكندى قال سمعت البراء بن عازب ، وقال الحافظ أبو عبد الله بن منده هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء .

ولو نزلنا عن حديث البراء فسائر الأحاديث الصحيحة صريحة في ذلك مثل حديث ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قال اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان قال فيقول ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا؟ فيقولون فلان (١) فيقولون مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد ادخلي حميدة وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان فيقال لها ذلك حتى يفتى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء قال اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فيقولون ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا؟ فيقولون فلان ، فيقولون لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنها لن تفتح لك أبواب السماء وترسل بين السماء والأرض فتصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع ولا معوق ثم يقال فما كنت تقول في الإسلام ما هذا الرجل؟ فيقول محمد رسول الله جاءنا بالبينات من قبل الله فآمنا وصدقنا . وذكر تمام الحديث .

قال الحافظ أبو نعيم هذا حديث متفق على عدالة ناقله اتفق الإمامان محمد بن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج عن ابن أبي ذئب ومحمد بن عمرو بن عطاء وسعيد بن يسار وهم من شرطهما ، ورواه المتقدمون الكبار عن ابن أبي ذئب مثل ابن أبي فديك وعبد الرحيم بن ابراهيم انتهى . ورواه عن ابن أبي ذئب غير واحد .

(وقد احتج) أبو عبد الله بن منده على إعادة الروح إلى البدن بأن قال حدثنا محمد بن الحسين ابن الحسن حدثنا محمد بن زيد النيسابوري حدثنا حماد بن قيراط حدثنا محمد بن الفضل عن يزيد بن عبد الرحمن الصائغ البلخي عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس أنه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم قاعد تلا هذه الآية (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم) الآية قال والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفرق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار ، ثم قال فإذا كان عند ذلك صفاه سمطان من الملائكة ينتظان ما بين الخافقين كأن وجوههم الشمس فينظر إليهم ما ترى غيرهم وإن كنتم ترون أنهم ينظرون (٢) إليكم مع كل منهم أكفان وحنوط فإن كان مؤمناً بشروده بالجنة وقالوا

(١) في نسخة : فلان ابن فلان .

(٢) هكذا في المنقول عنه . والظاهر : أنه ينظر إليكم .

أخرجى أيتها النفس الطيبة إلى رضوان الله وجنته فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير من الدنيا وما فيها فلا يزالون يبشرونه ويحفون به فهم أطف وأرأف من الوالدة بولدها ثم يسلمون روحه من تحت كل ظفر ومفصل ويموت الأول فالأول ويهون عليه وكنتم ترونه عنده آ حتى تبلغ ذقنه قال فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم فيبتدرها كل ملك منهم أيهم يقبضها فيتولى قبضها ملك الموت ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) فينلقاها بأكفان بيض ثم يحتضنها إليه فهو أشد لزوما لها من المرأة إذا ولدتها ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك فيستشقون ريحها ويتباشرون بها ويقولون مرحباً بالروح الطيبة والروح للطيب اللهم صل عليه روحاً وعلى جسده خرجت منه قال فيصعدون بها وقه عز وجل خلق في الهواء لا يعلم هددتهم إلا هو فيفوح لهم منها ريح أطيب من المسك فيصلون عليها ويتباشرون وينتح لهم أبواب السماء فيصل على كل ملك في كل سماء تمر بهم حتى ينتهي بها بين يدي الملك الجبار فيقول الجبار جل جلاله مرحباً بالنفس الطيبة وبجسد خرجت منه وإذا قال الرب عز وجل للشيء مرحباً وحب له كل شيء ويذهب عنه كل ضيق ثم يقول لهذه النفس الطيبة أدخلوها الجنة وأروها مقعدها من الجنة وأعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم ثم اذهبوا بها إلى الأرض فإني قضيت أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فوالذي نفس محمد بيده لهي أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد وتقول أين تذهبون بي إلى ذلك الجسد الذي كنت فيه ؟ قال فيقولون إنا مأمورون بهذا فلا بد لك منه فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه .

فدل هذا الحديث أن الروح تعاد بين الجسد والأكفان وهذا هو غير التعلق الذي كان لها في الدنيا بالبدن وهو نوع آخر وغير تعلقها به حال النوم وغير تعلقها به وهي في مقرها بل هو عود خاص للسائلة .

قال شيخ الإسلام الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن وقت السؤال ، وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس وأنكره الجمهور وقابلهم آخرون فقالوا السؤال للروح بلا بدن وهذا قاله ابن مرة وابن حزم وكلاهما غلط والأحاديث الصحيحة ترده ولو كان ذلك على الروح فقط لم يكن للقبر بالروح اختصاص .

وهذا يتضح بجواب المسألة

وهي قول السائل هل عذاب القبر على النفس والبدن أو على النفس دون البدن أو على البدن دون النفس . وهل يشارك البدن النفس في النعيم والعذاب أم لا ؟

وقد مثل شيخ الإسلام عن هذه المسألة ونحن نذكر لفظ جوابه فقال « بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتنعم وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين كما تكون على الروح منفردة عن البدن . وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح ؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام ، وفي المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث . قول من يقول إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح وإن البدن لا ينعم ولا يعذب ، وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان وهؤلاء كفار باجماع المسلمين ويقولون كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يقرون بمعاد الأبدان لكن يقولون لا يكون ذلك في البرزخ وإنما يكون عند القيام من القبور لكن هؤلاء ينكرون عذاب البدن في البرزخ فقط ويقولون إن الأرواح هي المنعمة أو المعذبة في البرزخ فإذا كان يوم القيامة عذبت الروح والبدن معاً وهذا القول فآله طوائف من المسلمين من أهل الكلام والحديث وغيرهم وهو اختيار ابن حزم وابن مرة فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة بل هو مضاف إلى قول من يقول بعذاب القبر ويقر بالقيامة ويثبت معاد الأبدان والأرواح ولكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال :

(أحدها) أنه على الروح فقط .

(الثاني) أنه عليها وعلى البدن بواسطتها .

(الثالث) أنه على البدن فقط وقد يضم إلى ذلك القول الثاني وهو قول من يثبت عذاب القبر ويجعل الروح هي الحياة ويجعل الشاذ قول منكر عذاب الأبدان مطلقاً وقول من ينكر عذاب الروح مطلقاً فإذا جعلت الأقوال الثلاثة فالقول الثاني الشاذ قول من يقول إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب وإنما الروح هي الحياة وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والاشعرية كالقاضي أبي بكر وغيره وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن وهذا قول باطل وقد خالف أصحابه أبو المعالي الجرجاني وغيره بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأمة أن الروح تبقى بعد فراق البدن وأنها منعمة أو معذبة والفلاسفة الإلهيون يقرون بذلك لكن ينكرون معاد الأبدان وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان لكن ينكرون

معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان وكلا القولين خطأ وضلال لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف والتحقيق والكلام .

والقول الثالث الشاذ قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن وأن البدن لا ينعم ولا يعذب لجميع هؤلاء الطوائف ضلال في أمر البرزخ لكنهم خير من الفلاسفة فانهم مقرون بالقيامة الكبرى .

فصل

فاذا عرفت هذه الأقوال الباطلة فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معدبة وأنها تتصل بالبدن أحيانا ويحصل له معها النعيم أو العذاب ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى .

فصل

ونحن ثبت ما ذكرناه فأما أحاديث عذاب القبر ومساواة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول وأما الآخر فكان يمسي بالنخلة ثم دعا بجريدة رطبة فشققها نصفين فقال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا .

(وفي صحيح مسلم) عن زيد بن ثابت قال بيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حائط ابني التجار على بقلته ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه فإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال من يعرف أصحاب هذه القبور؟ فقال رجل أنا، قال فتى مات هؤلاء؟ قال ماتوا في الإشرار فقال إن هذه الأمة تبلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ثم أقبل علينا بوجهه فقال تعوذوا بالله من عذاب النار، قالوا نعوذ بالله من عذاب النار، قال تعوذوا بالله من عذاب القبر، قالوا نعوذ بالله من عذاب القبر، قال تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قالوا نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال تعوذوا بالله من فتنة الدجال، قالوا نعوذ بالله من فتنة الدجال .

(وفي صحيح مسلم) وجميع السنن عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع ، من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال .

(وفي صحيح مسلم) أيضاً وغيره عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال .

(وفي الصحيحين) عن أبي أيوب قال خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً فقال يهود تعذب في قبورها .

(وفي الصحيحين) عن عائشة رضی الله عنها قالت دخلت على عجوز من عجائز يهود المدينة فقالت ان أهل القبور يعذبون في قبورهم ، قالت فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها قالت فخرجت ودخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا رسول الله ان عجوزا من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذبون في قبورهم قال صدقت انهم يعذبون عذابا تسمعه البهائم كلها قالت فما رأيت بعد في صلاة الا يتعوذ من عذاب القبر .

(وفي صحيح ابن حبان) عن أم مبشر قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول تعوذوا بالله من عذاب القبر ، فقلت يا رسول الله وللقبر عذاب ؟ قال إنهم ليعذبون في قبورهم عذاباً تسمعه البهائم .

(قال) بعض أهل العلم ولهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلت إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين كالاسماعيلية والنصيرية والقرامطة من بني عبيد وغيرهم الذين بأرض مصر والشام فان أصحاب الخيل يقصدون قبورهم لذلك كما يقصدون قبور اليهود والنصارى قال فاذا سمعت الخيل عذاب القبر أحدث لها ذلك فزعها وحرارة تذهب بالمغل .

(وقد قال) عبد الحق الأشبيلي حدثني الفقيه أبو الحكم بن برخان وكان من أهل العلم والعمل أنهم دفنوا ميتاً بقريتهم في شرف أشبيلية فلما فرغوا من دفنه قعدوا ناحية يتحدثون ودابة ترعى قريباً منهم فإذا بالدابة قد أقبلت مسرعة إلى القبر فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع ثم ولت فارة ثم عادت إلى القبر فجعلت أذنها عليه كأنها تسمع ثم وات فارة فطقت ذلك مرة بعد أخرى .

قال أبو الحكم فذكرت عذاب القبر وقول النبي صلى الله عليه وسلم أنهم ليعذبون عذاباً تسمعه البهائم .

ذكر لنا هذه الحكاية ونحن نسمع عليه كتاب مسلم لما انتهى القارىء إلى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم .

وهذا السماع واقع على أصوات المعذبين . قال هناد بن السرى فى كتاب الزهد حدثنا وكيع عن الأعمش عن شقيق عن عائشة رضى الله عنها قالت دخلت على يهودية فذكرت عذاب القبر فكذبتها فدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على فذكرت ذلك له فقال والذي نفسى بيده إنهم ليعذبون فى قبورهم حتى تسمع البهائم أصواتهم .

(قلت) وأحاديث المسألة فى القبر كثيرة كما فى الصحيحين والسنن عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال المسلم إذا مثل فى قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قول الله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وفى لفظ نزلت فى عذاب القبر يقال له من ربك ؟ فيقول الله ربي ومحمد نبي فذلك قول الله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) .

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسائيد مطولاً كما تقدم .

وقد صرح فى هذا الحديث بإعادة الروح إلى البدن وباختلاف أضلاعه وهذا بين فى أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين .

وقد روى مثل حديث البراء قبض الروح والمسألة والنعيم والعذاب أبو هريرة (وحديثه) فى المسند وصحيح أبي حاتم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الميت إذا وضع فى قبره أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجله فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ما قبلى مدخل ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام ما قبلى مدخل ثم يؤتى من يساره فتقول الزكاة ما قبلى مدخل ثم يؤتى من قبل رجله فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان ما قبلى مدخل فيقال له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد أخذت الغروب فيقال له هذا الرجل الذى كان فيكم مات قول فيه وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول دهونى حتى أصلى فيقولون انك ستصلى أخبرنا عما نسألك عنه أرايت هذا الرجل الذى كان فيكم مات قول فيه وما تشهد عليه ؟ فيقول محمد ، أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله ، فيقال له على ذلك حيث وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدىء

منه وتجعل نسمة في النسم الطيب وهي طير معلق في شجر الجنة قال فذلك قول الله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وذكر في الكافر ضد ذلك إلى أن قال ثم يضيق عليه في قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التي قال الله تعالى (فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) .

(وفي الصحيحين) من حديث قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الميت إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه انه ليسمع خفق نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله ، قال فيقول أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيراها جميعاً . قال قتادة وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً يملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون ، ثم رجع إلى حديث أنس قال فأما الكافر والمنافق فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول للناس ، فيقولان لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطراق من حديد بين أذنيه فيصبح صيحة فيسمعها من عليها غير الثقلين .

(وفي صحيح أبي حاتم) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قبر أحدكم أو الإنسان أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو قائل ما كنت يقول فان كان مؤمناً قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان له إن كنا نعلم أنك تقول ذلك ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً وينور له فيه ويقال له ثم فيقول ارجع إلى أهلي ومالي فأخبرهم فيقولان ثم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً قال لا أدري كنت أسمع الناس يقولون شيئاً فكنت أقوله فيقولان له كنا نعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التثمي عليه فلتتم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معدباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وهذا صريح في أن البدن يعذب .

(وعن أبي هريرة) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال إذا احتضر المؤمن أتته الملائكة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجي أيتها الروح الطيبة راضية مرضياً عنك إلى روح وربحان ورب غير غضبان فتخرج كأطيب من ريح المسك حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً حتى يأتوا به باب السماء فيقولون ما أطيب هذه الريح التي جاءكم من الأرض ! فيأتون به أرواح المؤمنين فهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه ماذا فعل فلان ؟ قال فيقولون

دعوه يستريح فانه كان في غم الدنيا فاذا قال انا كم فيقولون انه ذهب به إلى أمه الهاوية ، وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون اخرجي مسخوطاً عليك إلى عذاب الله فتخرج كأنهن ريح جيفة حتى يأتوا به باب الأرض فيقولون فما أنتن هذه الروح (١) حتى يأتوا به أرواح الكفار . رواه النسائي والبخاري ومسلم مختصراً .

(وأخرجه أبو حاتم في صحيحه) وقال إن المؤمن إذا حضره الموت حضرته ملائكة الرحمة فاذا قبض جعلت روحه في حريرة بيضاء فينطلق بها إلى باب السماء فيقولون ما وجدنا ريحاً أطيب من هذه فيقال ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فيقال دعوه يستريح فانه كان في غم الدنيا وأما الكافر إذا قبضت نفسه ذهب بها إلى الأرض فتقول خزنة الأرض ما وجدنا ريحاً أنتم من هذه ! فيبلغ بها إلى الأرض السفلى .

(وروى) النسائي في سننه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال هذا الذي تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهد له سبعون ألفاً من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه ، قال النسائي يعني سعد بن معاذ .

(وروى) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للقبر ضفطة لو نجوا منها أحد انجا منها سعد بن معاذ . رواه من حديث شعبة .

(وقال) هناد بن المرعي حدثنا محمد بن فضيل عن أبيه عن ابن أبي مليكة قال ما أجبر من ضفطة القبر أحد ولا سعد بن معاذ الذي منديل من مناديله خير من الدنيا وما فيها .

(قال) وحدثنا عبدة عن عبيد الله بن عمر عن نافع قال لقد بلغني أنه شهد جنازة سعد ابن معاذ سبعون ألف ملك لم ينزلوا إلى الأرض قط ، واقد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لقد ضم صاحبكم في القبر ضمة .

(وقال) علي بن معبد حدثنا عبيد الله عن زيد بن أبي أنيسة عن جابر عن نافع قال أتينا صفية بنت أبي عبيد امرأة عبد الله بن عمر وهي فرعة فقنا ما شأنك ؟ فقالت جنت من عند بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالت فحدثني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن كنت لأرى لو أن أحدا أعني من عذاب القبر لأعني منه سعد بن معاذ لقد ضم فيه ضمة .

(١) الريح : هكذا في سنن النسائي .

(وحدثنا) مروان بن معاوية عن العلاء بن المسيب عن معاوية العبسي عن زاذان ابن عمرو (١) قال لما دفن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابنته فجلس عند القبر فتريد وجهه ثم سرى عنه فقال له أصحابه رأينا وجهك آنفا ثم سرى فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت ابنتي وضعفها وعذاب القبر فدعوت الله ففرج عنها وأيم الله لقد ضمت ضمة سمعها من بين الخافقين .

(وحدثنا) شعيب عن ابن دينار عن إبراهيم الغنوي عن رجل قال كنت عند عائشة رضی الله عنها فمرت جنازة صبي صغير فبككت فقات لها ما يبكيك يا أم المؤمنين فقالت هذا الصبي بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر .
ومعلوم أن هذا كله للجسد بواسطة الروح .

فصل

وهذا كما أنه مقتضى السنة الصحيحة فهو متفق عليه بين أهل السنة . قال المروزي قال أبو عبد الله عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال أو مضل . وقال حنبل قلت لأبي عبد الله في عذاب القبر فقال هذه أحاديث صحاح تؤمن بها ونقر بها ، كلما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إسناد جيد أقررنا به . إذا لم نقر بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودفنناه ورددناه ورددنا على الله أمره قال الله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه) قلت له وعذاب القبر حق ؟ قال حق يعذبون في القبور . قال وسمعت أبا عبد الله يقول تؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير وأن العبد يسأل في قبره فد (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) في القبر .

(وقال) أحمد بن القاسم قلت يا أبا عبد الله تقر بمنكر ونكير وما يروى في عذاب القبر ؟ فقال سبحان الله نعم نقر بذلك ونقوله ، قلت هذه اللفظة تقول منكرو ونكير هكذا أو تقول ملكين ؟ قال منكرو ونكير ، قلت يقولون ليس في حديث منكرو ونكير قال هو هكذا يعني أنهما منكرو ونكير .

وأما أحوال أهل البدع والضلال فقال أبو الهذيل والريسي من خرج عن سمة الإيمان فإنه يعذب بين النفتين ، والمسألة في القبر إنما تقع في ذلك الوقت .

(١) هكذا في الاصل ولعله : عن زاذان عن عمر أو ابن عمر .

وأثبت الجباني وابنه للبلخي عذاب القبر ولكنهم نفوه عن المؤمنين وأثبتوه لأصحاب التخليد من الكفار والفساق على أصولهم .

(وقال) كثر من المعتزلة لا يجوز تسمية ملائكة الله بمنكر ونكير وإنما المنكر ما يبدو من تلجلجه إذا سئل والنكير تفرغ الملكين له .

وقال الصالحى وصالح فيه عذاب القبر يجرى على المؤمن من غير رد الأرواح إلى الأجساد والميت يجوز أن يألم ويحس ويعلم بلا روح ، وهذا قول جماعة من الكرامية .

(وقال) بعض المعتزلة ان الله سبحانه يعذب الموتى في قبورهم ويحدث فيهم الآلام وهم لا يشعرون فإذا حشروا وجدوا تلك الآلام وأحسوا بها ، قالوا وسبيل المعذبين من الموتى كسبيل السكران والمغشى عليه لو ضربوا لم يجدوا الآلام فإذا عاد عليهم العقل أحسوا بألم الضرب .

وأنكر جماعة منهم عذاب القبر رأساً مثل ضرار بن عمرو ويحيى بن كامل ، وهو قول المريسي ، فهذه أقوال أهل الحزبية والضلال .

فصل

وما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر فلو أكلته السباع أو أحرقت حتى صار رماداً ونسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور .

(وفي صحيح البخارى) عن سمرة بن جندب قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال من رأى منكم الليلة رؤيا ؟ قال فان رأى أحد رؤيا قصها فيقول ما شاء الله فسا لنا يوماً فقال هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا لا ، قال لكنى رأيت الليلة رجلين اتيانى فأخذتا بيدي وأخرجتا إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد يدخله في شدة حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشدة الآخر مثل ذلك ويلتم شدة هذا فيعود فيصنع مثله قلت ما هذا ؟ قال انطلق فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فهر فيشدخ بها رأسه فإذا ضربه تدهده الحجر فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه . قلت ما هذا ؟ قال انطلق فانطلقنا إلى نقب مثل التبور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوجد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم فإذا اقرب ارتفعوا حتى

كادوا يخرجوا فإذا نهدت رجعوا ، فقلت ما هذا ؟ قالوا انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فرجع كما كان فقلت ما هذا ؟ قالوا انطلق فانطلقنا حتى اتينا الى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفي اصلها شيوخ وصبيان واذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا بي الشجرة وأدخلاني داراً لم أرقط أحسن منها فيها شيوخ وشبان ثم صعدا بي فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل ، قلت طوفتاني الليلة فأخبراني عما رأيت قالوا نعم الذي رأيت يشق شدة كذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة . والذي رأيت يشدخ رأسه فرجل عليه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة ، وأما الذي رأيت في النقب فهم الزناة ، والذي رأيت في النهر فآكل الربا . وأما الشيخ الذي في أصل الشجرة فأبراهيم والصبيان حوله فأولاد الناس ، والذي يوقد النار فمالك خازن النار ، والدار الأولى دار عامة المؤمنين ، وأما هذه الدار فدار الشهداء وأنا جبرائيل وهذا ميكائيل ، فارجع رأسك فرفعت رأسي فإذا قصر مثل السحابة قال ذلك منزلك ، قلت دعاني أدخل منزلي قالوا انه بقي لك عمر لم تستكمله فلو اسكلمته أتيت منزلك .

وهذا نص في عذاب البرزخ فإن رؤيا الانبياء وحى مطابق لما في نفس الامر .

(وقد ذكر) الطحاوي عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال امر بعبد من عباد الله ان يضرب في قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة فامتلا قبره عليه نارا فلما ارتفع عنه أفاق فقال علام جلدتموني ؟ قالوا إنك صليت صلاة بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره .

(وذكر البيهقي) حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) إلا أنه أتى بفرس فحمل عليه قال كل خطوة منتهى أقصى بصره فسار وسار معه جبريل فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال يا جبرائيل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء المجاهدون في سبيل الله يضاعف لهم الحسنة بسبعائة (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شيء من ذلك قال يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين تتناقل رءوسهم عن الصلاة ، قال ثم أتى على قوم على اقبالهم رقاع وعلى أديبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الانعام على الضريع والرقوم ورضف جهنم وحجارتها قال ما هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم

وما ظلمهم الله وما الله بظلام للعبيد ، ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم من قدر نضيج ولحم آخر خبيث فجعلوا يأكلون من الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هذا الرجل يقوم وعندة امرأة حلالا طيبا فيأتي المرأة الخبيثة فتبيت معه حتى تصبح ، ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها شيء إلا قصفته ^(١) يقول الله تعالى (ولا تقعدوا بكل عراطير عدون) ثم مر على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها قال يا جبريل ما هذا ؟ قال هذا رجل من أمتك عليه أمانة لا يستطيع أداءها وهو يزيد عليها ، ثم أتى على قوم تفرض شفاهم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفرغ عنهم شيء ، قال يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء خطباء الفتنة ثم أتى على جحر صغير يخرج منه نور عظيم فجعل النور يريد أن يدخل من حيث خرج ولا يستطيع قال ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل يتكلم بالكلمة فيندم عليها فيريد أن يردّها فلا يستطيع وذكر الحديث .

وذكر النبي أيضا في حديث الاسراء من رواية أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال فصعدت أنا وجبريل فاستفتح جبريل فإذا بآدم كهيئته يوم خلقه الله على صراط مستقيم تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها في عليين ثم تعرض عليه أرواح ذريته الكفار فيقول روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها في سجين ، ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بأخونة عليا لحم مشرح ليس بقربها أحد وإذا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وتفن وعندها ناس يأكلون منها قلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء يتركون الحلال ويأتون الحرام ، قال ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البوت كلما مض أحدهم خر يقول اللهم لاتقم الساعة قال وهم على سابلة آل فرعون قال فتجيء السابلة فتطأهم فيصيحون قلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) قال ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بقوم مشافرم كمشافر الإبل فتفتح أفواههم فيلقمون الحجر ثم يخرج من أسافلهم فسمعتهم يصيحون قلت من هؤلاء ؟ قال الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بفساء معلقات بشدين فسمعتهم يصيحون قلت من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الزواني ، ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيأقمنون فيقال كل كما كنت تأكل لحم أخيك قلت من هؤلاء ؟ قال الهازنون من أمتك وذكر الحديث بطوله .

(١) سقط هنا شيء ، وفي الخصائص : لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء إلى خرقة قال ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه .

وفي سنن أبي داود من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت يا جبريل من هؤلاء؟ قال الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم .

(وقال) أبو داود الطيالسي في مسنده ، حدثنا شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتى على قبرين فقال إنها ليعذبان في غير كبير أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس وأما الآخر فكان صاحب نيمة ثم دعا بجريدة فشقها نصفين فوضع نصفها على هذا القبر ونصفها على هذا القبر وقال عسى أن يخفف عنهما ما دامتا رطبتين .

وقد اختلف الناس في هذين هل كانا كافرين أو مؤمنين؟ كانا كافرين وقوله وما يعذبان في كبير يعني بالاضافة إلى الكفر والشرك قالوا ويدل عليه أن العذاب لم يرتفع عنها وإنما خفف ، وأيضاً فإنه خفف مدة رطوبة الجريدة فقط ، وأيضاً فإنها لو كانا مؤمنين لشفع فيها ودعا لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرفع عنها بشفاعته ، وأيضاً ففي بعض طرق الحديث أنها كانا كافرين وهذا التعذيب زيادة على تعذيبها بكفرهما وخطاياهما وغير ذلك على أن الكافر يعذب بكفره وذنوبه جميعاً . وهذا اختيار أبي الحكم بن برخان .

وقيل كانا مسلمين لنفيه صلى الله عليه وآله وسلم التعذيب بسبب غير السببين المنكرين ولقوله وما يعذبان في كبير والكفر والشرك أكبر الكبائر على الإطلاق ولا يلزم أن يشفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكل مسلم يعذب في قبره على جريمة من الجرائم فقد اشهر عن صاحب الشملة الذي قتل في الجهاد أن الشملة تشتعل عليه ناراً في قبره وكان مسلماً مجتهداً ولا يعلم ثبوت هذه اللفظة وهي قوله كانا كافرين واعلموا لو صحت وكلا فهى من قول بعض الرواة ، والله أعلم . وهذا اختيار أبي عبد الله القرطبي .

المسألة السابعة

وهي قول السائل ماجوابنا للملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر وسعته وضيقة وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة وكون الميت لا يجلس ولا يقعد فيه . قالوا فانا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عمياً صماً يضربون الموتى بمطارق من حديد ولا نجد هناك حيات ولا ثعابين ولا نيراناً تاجع ولو كشفنا حاله في حالة من الاحوال لو جدناه لم يتغير ولو وضعنا على عينيه الزئبق وعلى صدره الخردل لو جدناه على حاله وكيف كان .

سره أو يضيق عليه ونحن نجده بحاله ونجد مساحته على حد ما حفرناها لم يزد ولم ينقص وكيف يسع ذلك اللحد الضيق له ولللائكة وللصورة التي تؤنسه أو توحشه؟ قال إخوانهم من أهل البدع والضلال وكل حديث يخالف مقتضى العقول والحس يقطع بتخطئة قائله قالوا نحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لا يسأل ولا يجيب ولا يتحرك ولا يتوقد جسمه ناراً ومن افتترسته السباع ونهشته الطيور وتفرقت أجزاءه في أجواف السباع وحواصل الطيور وبطن الحيتان ومدارج الرياح كيف تسأل أجزاءه مع تفرقها وكيف يتصور مسألة الملاكين لمن هذا وصفه وكيف يصير القبر على هذا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار وكيف يضيق عليه حتى تلتصم أضلاعه؟ ونحن نذكر أموراً يعلم بها الجواب.

فصل

(الامر الاول) أن يعلم أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بما تحبلة العقول وتقطع باستحالته بل اخبارهم قسبان :
(أحدهما) ما تشهد به العقول والفطر .

(الثاني) ما لا تدركه العقول بمجرد ما كالغيب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر وتفاصيل الثواب والعقاب ولا يكون خبرهم محالاً في العقول أصلاً وكل خبر يظن أن العقل يحبلة فلا يخلو من أحد أمرين إما يكون الخبر كذبا عليهم أو يكون ذلك للعقل فاسداً وهو شبهة خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح قال تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) وقال تعالى (أفن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه) والنفوس لا تفرح بالمحال ، وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) والمحال لا يشفي ولا يحصل به هدى ولا رحمة ولا يفرح به . فهذا أمر من لم يستقر في قلبه خبير ولم يثبت له على الإسلام قدم وكان أحسن أحواله الحيرة والشك .

فصل

(الامر الثاني) أن يفهم عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مراد، من غير غلو ولا تقصير فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ولا يقصر به عن مراده وما قصدته من الهدى والبيان .

وقد حصل باهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب وما لا يعلمه إلا الله بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد فيتفق سوء الفهم في بعض الأشياء من المتبوع مع حسن قصده وسوء القصد من التابع فيا محنة الدين وأمله والله المستعان .

وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والرافضة وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله حتى صار الدين بأيدي أكثر الناس هو موجب هذه الأفهام ، والذي فهمه الصحابة ومن تبعهم عن الله ورسوله فهمجور لا يلتفت إليه ولا يرفع هؤلاء به رأسا . ولكثرة أمثلة هذه القاعدة تركناها فانا لو ذكرناها لزادت على عشرة الوف حتى أنك لتمر على الكتاب من أوله إلى آخره بلا تجد صاحبه فهم عن الله ورسوله ومراده كما ينبغي في موضع واحد .

وهذا إنما يعرفه من عرف ما عند الناس وعرضه على ما جاء به الرسول وأما من عكس الأمر بعرض ما جاء به الرسول على ما اعتقده وانتحلته وقلد فيه من أحسن به الظن فليس يجدي الكلام معه شيئا فدعه وما اختاره لنفسه ووله ما تولى واحمد الذي عافاك عما ابتلاه به .

فصل

(الأمر الثالث) أن الله سبحانه جعل الدور ثلاثا ، دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكم دار أحكاما تختص بها وركب هذا الانسان من بدن ونفس وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظن من حركات اللسان والجوارح وان أضمرت النفوس خلافه . وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا فألمت بألمها والتذت براحتها وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها والأرواح حينئذ هي التي تبشر العذاب والنعيم فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية والأبدان كالقبور لها والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية في قبورها تجري أحكام البرزخ على الأرواح فتسرى إلى أبدانها نعيماً أو عذاباً كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتسرى إلى أرواحها نعيماً أو عذاباً فأحاط بهذا الموضوع علماً واعرفه كما ينبغي يزيل عنك كل اشكال يورد عليك من داخل وخارج .

وقد أرانا الله سبحانه بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجا في الدنيا من حال النائم فإن ما ينعم به أو يعذب في نومه يجرى على روجه أصلا والبدن تبع له وقد يقوى حتى يؤثر

في البدن تأثيراً مشاهداً فيرى النائم في نومه أنه ضرب فيصبح وأثر الضرب في جسمه ويرى أنه قد أكل أو شرب فيستيقظ وهو يحمد أثر الطعام والشراب في فيه ويذهب عنه الجوع والظما .

وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم في نومه ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان وهو نائم لا شعور له بشيء من ذلك ، وذلك أن الحكم لما جرى على الروح استعانت بالبدن من خارجه ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس فإذا كانت الروح تتألم وتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع فهكذا في البرزخ بل أعظم فإن تجرد الروح عن ذلك أكل وأقوى وهي متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً أصلاً .

ومنى أعطيت هذا الموضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه وضيقه وسعته ورضه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة مطابق للعقل وأنه حق لا مريبة فيه وإن من أشكال عليه ذلك فمن سوء فهمه وقلة علمه أني كما قيل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السقيم

وأعجب من ذلك أنك تحمد النائم في فراش واحد وهذا روحه في النعم ويستيقظ وأثر النعم على بدنه ، وهذا روحه في العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر فأمر البرزخ أعجب من ذلك .

فصل

(الأمر الرابع) أن الله سبحانه جعل أمر الآخرة وما كان متصلاً بها غيباً وحجباً عن إدراك المكلفين في هذه الدار وذلك من كمال حكمته ولتتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم فأول ذلك أن الملائكة تنزل على المحتضر وتجلس قريباً منه ويشاهدون عياناً ويتحدثون عنده ومعهم الأكفان والخنوط إما من الجنة وإما من النار ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير والشر وقد يسلمون على المحتضر ويرد عليهم تارة بلفظه وتارة بإشارته وتارة بقلبه حيث لا يتمكن من نطق ولا إشارة .

(وقد سمع) بعض المحتضرين يقول أهلاً وسهلاً ومرحباً بهذه الوجوه .

(وأخبرني) شيخنا عن بعض المحتضرين فلا أدري أشاهده وأخبر عنه أنه سمع وهو يقول عليك السلام هاهنا فاجلس ، وعليك السلام هاهنا فاجلس .

(وقصة) خير الناس رحمة الله مشهورة حيث قال عند الموت اصبر عافاك الله فان ما أمرت به لا يفوت وما أمرت به يفوت ثم استدعى بماء فتوضأ وصلى ثم قال امض لما أمرت به ومات .

(وذكر) ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبد العزيز لما كان في يومه الذي مات فيه قال أجلسوني فأجلسوه فقال : أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأحد النظر فقالوا انك لتتظر نظراً شديداً يا أمير المؤمنين فقال إني لأرى حضرة ما هم بانس ولا جن ثم قبض .

(وقال) مسلمة بن عبد الملك لما احتضر عمر بن عبد العزيز كنا عنده في قبة فأومى إلينا أن اخرجوا فخرجنا فقمنا حول القبة وبقي عنده وصيف فسمعناه يقرأ هذه الآية (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) ما أنتم بانس ولا جان ثم خرج الوصيف فأومى إلينا أن ادخلوا فدخلنا فإذا هو قد قبض .

(وقال) فضالة بن دينار حضرت محمد بن واسع وقد سجن الموت فجعل يقول مرحباً بملائكة ربي ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وشممت رائحة طيب لم أشم قط أطيب منها ثم شخص ببصره فات .

والآثار في ذلك أكثر من أن تحصر .

وأبلغ وأكفى من ذلك كله قول الله عز وجل (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) أي أقرب إليه بملائكتنا ورسالتنا ولكنكم لا ترونهم فهذا أول الأمر وهو غير مرئي لنا ولا مشاهد وهو في هذه الدار .

ثم يمد الملك يده إلى الروح فيقبضها ويخاطبها والحاضرون لا يرونه ولا يسمعونه ثم تخرج فيخرج لها نور مثل شعاع الشمس ورائحة أطيب من رائحة المسك والحاضرون لا يرون ذلك ولا يسمونه .

ثم تصعد بين سحابين من الملائكة والحاضرون لا يرونهم .

ثم تأتي الروح فتشاهد غسل البدن وتكفينه وحمله وتقول قد وني قد موني أو إلى أين تذهبون بي ولا يسمع الناس ذلك فإذا وضع في لحده وسوى عليه التراب لم يحجب التراب الملائكة عن الوصول إليه بل لو نقر له حجر فأودع فيه وختم عليه بالرصاص لم يمنع وصول الملائكة إليه فإن هذه الأجسام الكثيفة لا تمنع خرق الأرواح لها ، بل الجن لا يمنعها ذلك ، بل قد جعل الله سبحانه الحجارة والتراب للملائكة بمنزلة الهواء للطير واتساع القبر وانفاسه الروح
• - الروح

بالذات والبدن تبعاً فيكون البدن في لحد أضيق من ذراع وقد فسح له مد بصره تبعاً لروحه
وأما عصرة القبر حتى تختلف بعض أجزاء الموتى فلا يردده حس ولا عقل ولا فطرة ولو قدر
أن أحداً نبش عن ميت فوجد أضلاعه كما هي لم تختلف لم يمنع أن تكون قد عادت إلى حالها
بعد العصرة وليس مع الزنادقة والملاحدة إلا مجرد تكذيب الرسول .

واقدم أخبر بعض الصادقين أنه حفر ثلاثة أقبر فلما فرغ منها اضطلع ليسترخ فرأى فيها
يرى النائم ملكين نزلاً فوقاً على أحداً الأقبير فقال أحدهما لصاحبه اكتب فرسخاً في فرسخ
ثم وقف على الثاني فقال اكتب ميلاً في ميل ثم وقف على الثالث فقال اكتب فتراً في فتر ثم
انتبه شيء برجل غريب لا يؤبه له فدفن في القبر الأول ثم جرى برجل آخر فدفن في القبر الثاني
ثم جرى بامرأة مترفة من وجوه البلد حولها ناس كثير فدفنت في القبر الضيق الذي سمعه يقول
فتراً في فتر والفتر ما بين الإبهام والسبابة .

فصل

الامر الخامس أنه أن النار التي في القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع
الدنيا فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرتها وإنما هي من نار الآخرة وخضرتها وهي أشد
من نار الدنيا فلا يحس به أهل الدنيا فان الله سبحانه يحمى عليه ذلك التراب والحجارة التي
عليه وتحت حتى يكون أعظم حرأ من جمر الدنيا ولومسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك بل أعجب
من هذا أن الرجلين يدفنان أحدهما إلى جنب الآخر وهذا في حفرة من حفر النار لا يصل
سرها إلى جاره وذلك في روضة من رياض الجنة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره .
وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك وقد أرانا الله من آيات قدرته في هذه الدار
ما هو أعجب من ذلك بكثير ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علماً إلا من
وفقه الله وعصمه .

فيفرش للكافر لوحان من نار فيشتعل عليه قبره بهما كما يشتعل التور فاذا شاء الله
سبحانه أن يطلع على ذلك بعض عبده اطلعه وغيبه عن غيره إذ لو طلع العباد كلهم لزال
كله التكليف والإيمان بالغيب ولما تدافن الناس كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وآله وسلم
لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع .

ولما كانت هذه الحكمة منفية في حق البهائم سمعت ذلك وأدركته كما حادت برسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم بقلته وكادت تلقيه لما مر بمن يعذب في قبره .

(وحدثني) صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الرزير الحمراني أنه خرج من داره بعد العصر
بآمد إلى بستان قال فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور فاذا بقبر منها وهو جرة

نار مثل كوز الزجاج والميت في وسطه فجعلت أسمع عيني وأقول أنا أم يقظان ؟ ثم التفت إلى سور المدينة وقلت والله ما أنا بناتم ثم ذهبت إلى أهلي وأنا مدهوش فأتوني بطعام فلم أستطع أن آكل ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكاس^(١) قد توفي ذلك اليوم .

فرؤية هذه النار في القبر كروية الملائكة والجن تقع أحيانا لمن شاء الله ان يريه ذلك . (وقد ذكر) ابن أبي الدنيا في (كتاب القبور) عن الشعبي انه ذكر رجلا قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مررت ببدر فرأيت رجلا يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقعدة حتى يغيب في الأرض ثم يخرج فيفعل به ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك أبو جهل بن هشام يعذب إلى يوم القيامة .

(وذكر) من حديث حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال بينا أنا أسير بين مكة والمدينة على راحلة وأنا محقب اداوة اذ مررت بمقبرة فإذا رجل خارج من قبره يلتهب نارا وفي عنقه سلسلة يجرها فقال يا عبد الله انضح يا عبد الله انضح فوالله ما أدري اعرفني باسمي أم كما تدعو الناس قال فخرج آخر فقال يا عبد الله لا تنضح يا عبد الله لا تنضح ثم اجتذب السلسلة فاعاده في قبره .

(وقال) ابن أبي الدنيا حدثني أبي حدثنا موسى بن داود حدثنا حماد بن سلمة عن هشام ابن عروة عن أبيه قال بينما راكب يسير بين مكة والمدينة اذ مر بمقبرة فإذا برجل قد خرج من قبر يلتهب نارا مصفدا في الحديد فقال يا عبد الله انضح يا عبد الله انضح قال وخرج آخر يتلوه فقال يا عبد الله لا تنضح يا عبد الله لا تنضح قال وغشي على الراكب وعدلت به راحلته إلى العرج قال وأصبح قد ابيض شعره فأخبر عثمان بذلك فنهى أن يسافر الرجل وحده .

(وذكر) من حديث سفیان حدثنا داود بن شاپور عن أبي قزعة قال مررتا في بعض المياه التي بيننا وبين البصرة فسمعنا نهبق حمار فقلنا لم ما هذا النهبق ؟ قالوا هذا رجل كان عندنا كانت أمه تكلمه بالشيء فيقول لها إنه نهبق فلبا مات سمع هذا النهبق من قبره كل ليلة .

(وذكر) أيضا عن عمرو بن دينار قال كان رجل من أهل المدينة وكانت له أخت في ناحية المدينة فاشتكت وكان يأتيها يعودها ثم ماتت فدفنوها فلما رجع ذكر أنه نسي شيئا في

^(١) المكس: الظلم والنقص ويقال مكس إذا حبي طالا .

القبر كان معه فاستعان برجل من أصحابه قال فنبشنا القبر ووجدت ذلك المتاع فقال للرجل
تمح حتى انظر على أي حال أختي فرفع بعض ما على اللحد فإذا القبر مشتعل نارا فرده وسوى
القبر فرجع إلى أمه فقال ما كان حال أختي فقالت ما تسأل عنها وقد هلكت فقال لتخبريني
قالت كانت تؤخر الصلاة ولا تصلي فيما أظن بوضوء وتأتي أبواب الجيران فتلقم أذنها بأوابهم
وتخرج حديثهم .

(وذكر) عن حصين الأسدي قال سمعت مرثد بن حوشب قال كنت جالسا عند يوسف
ابن عمر . إني جنبه رجل كأن شفة وجهه صنفة من حديد فقال له يوسف حدث مرثدا بما
رأيت فقال كنت شابا قد أتيت هذه الفواحش فلما وقع الطاعون قلت أخرج إلى ثغر من هذه
الثغور ثم رأيت أن احفر الثور فاذا بي ليلة بين المغرب والعشاء قد حضرت وأنا متكىء على
تراب قبر آخر إذ جرى بمجازة رجل حتى دفن في ذلك وسووا عليه فأقبل طائران أبيضان
من المغرب مثل البعيرين حتى سقط أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله ثم اثاراه ثم تدلى
أحدهما في القبر والآخر على شفيره فحنت حتى جلست على شفير القبر وكنت رجلا لا يملأ
جوفى شيء . قال فسمعت يقول ألسن الزائر اصمارك في ثوبين مصرين تسحبها كبرا تمشي
الخيلاء فقال أنا أضوف من ذلك قال فضربه ضربة امتلأ القبر حتى فاض ماء ودهنا ثم عاد
فأعاد إليه القول حتى ضربه ثلاث ضربات كل ذلك يقول ذلك ويذكر أن القبر يفيض ماء
ودهنا قال ثم رفع رأسه فنظر إلى فقال انظر أين هو جالس بلسه الله قال ثم ضرب
جانب وجهي فسقطت فكشفت ليلتي حتى أصبحت قال ثم أخذت انظر إلى القبر فإذا
هو على حاله .

فهذا الماء والدهن في رأى العين لهذا الرأى هو نار تأجج للميت كما أخبر النبي صلى الله
عليه وآله وسلم عن الدجال أنه يأتي معه بماء ونار فالنار ماء بارد والماء نار تأجج .

(وذكر) ابن أبي الدنيا أن رجلا سأل أبا اسحاق الفزارى عن النباش هل له توبة ؟ فقال
نعم إن صححت نيته وعلم الله منه الصدق فقال له الرجل كنت أنبش القبور وكنت أجد قوما
وجوههم لغير القبلة فلم يكن عند الفزارى في ذلك شيء فكتب إليه الأوزاعى يخبره بذلك
فكتب إليه الأوزاعى تقبل توبته إذا صححت نيته وعلم الله الصدق من قلبه وأما قوله أنه كان
يمجد قوما وجوههم لغير القبلة فأولئك قوم ماتوا على غير السنة .

(وقال) ابن أبي الدنيا حدثني عبد المؤمن بن عبد الله بن عيسى القيسى أنه قيل لنباش قد
تاب ما أعجب ما رأيت ؟ قال نبشت رجلا فإذا هو مسمر بالمسامير في سائر جسده ومسامير
كبير في رأسه وآخر في رجله .

(قال) وقيل لبناش آخر ما أعجب ما رأيت ؟ قال رأيت جمجمة انسان مصبوب فيها رصاصا .
(قال) وقيل لبناش آخر ما كان سبب توبتك ؟ قال عامة من كنت أنبش كنت أراه
محول الوجه عن القبلة .

(قلت) وحدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن مساب السلامي وكان من خيار عباد الله
وكان يتحرى الصدق قال جاء رجل إلى سوق الحدادين ببغداد فباع مسامير صغار المسمار
برأسين فأخذها الحداد وجعل يحمي عليها فلا تلين معه حتى عجز عن ضربها فطلب البائع
فوجده فقال من أين لك هذه المسامير ؟ فقال لقيتها فلم يزل به حتى أخبره انه وجد قبرا
مفتوحا وفيه عظام ميت منظومة بهذه المسامير قال فعالجتها على أن أخرجها فلم أقدر فأخذت
حجرا فكسرت عظامه وجمعتها قال وأنا رأيت تلك المسامير قلت له فكيف صفتها ؟ قال
المسمار صغير برأسين .

(قال) ابن أبي الدنيا وحدثني أبي عن أبي الحريش عن أمه قالت لما حفر أبو جعفر خندق
الكوفة حول الناس موتاهم فرأينا شابا من حول عاضا على يده .
(وذكر) عن سماك بن حرب قال مر أبو الدرداء بين القبور فقال ما أسكن ظواهرك
وفي داخلك الدواهي .

(وقال) ثابت البناني بينما أنا أمشي في المقابر وإذا صوت خلقي وهو يقول يا ثابت
لا يغرنك سكونها فكم من مغموم فيها فالتفت فلم أر أحدا .

(ومر) الحسن على مقبرة فقال يا لهم من عسكر ما أسكنهم وكم فيهم من مكروب .
(وذكر) ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبد العزيز قال لمسلة بن عبد الملك يا مسلة من دفن
أباك ؟ قال مولاي فلان قال فمن دفن الوليد ؟ قال مولاي فلان قال فأنا أحدثك ما حدثني
به أنه لما دفن أباك والوليد فوضعهما في قبورهما وذهب ليحل العقد عنها وجد وجوهها
قد حولت في اقفيتهما فانظر يا مسلة إذا أنا مت فالتمس وجهي فانظر هل نزل في منازل
بالقوم أو هل عوفيت من ذلك قال مسلة فلما مات عمر وضعته في قبره فالتفت وجهه
فاذا هو مكانه .

(وذكر) ابن أبي الدنيا عن بعض السلف قال ماتت ابنة لي فأنزلتها القبر فذهبت أصليح
اللبنة فإذا هي قد حولت عن القبلة فاغتممت لذلك غما شديدا فرأيتها في النوم فقالت يا أبت
اغتممت لما رأيت فإن عامة من حولي محولين عن القبلة قال كأنها تريد الذين ماتوا مصرين
حلي الكبار .

(وقال) عمرو بن ميمون سمعت عمر بن عبد العزيز يقول كنت في من دلى الوليد بن عبد الملك في قبره فنظرت إلى ركبتيه قد جمعنا في عنقه فقال ابنه عاش أبي ورب الكعبة فقلت عوجل أبوك ورب الكعبة فاتعظ بها عمر بعده .

(وقال) عمر بن عبد العزيز لعزير بن المهلب لما استعمله على العراق بإيزيد اتق الله فاني حين وضعت الوليد في لحده فإذا هو يركض في أكفانه .

(وقال) يزيد بن هارون أخبر هشام بن حسان عن واصل مولى أبي عيينة عن عمر بن زهدم عن عبد الحميد بن محمود قال كنت جالسا عند ابن عباس فأناه قوم فقالوا إنا خرجنا حجاجا ومعنا صاحب لنا إذ أتينا فإذا الصفاح مات فبأناه ثم انطلقنا فحفرنا له ولحدنا له فلما فرغنا من لحده إذا نحن بأسود قد ملأ اللحد فحفرنا له آخر فإذا به قد ملأ لحده فحفرنا له آخر فإذا به فقال ابن عباس ذلك الغل الذي يغل به انطلقوا فادفنوه في بعضها فوالذي نفسي بيده لو حفرتم الأرض كلها لوجدتموه فيه فانطلقنا فوضعناه في بعضها فلما رجعنا أتينا أهله بمتاع له معنا فقلنا لامراته ما كان يعمل زوجك ؟ قالت كان يبيع الطعام فيأخذ منه كل يوم قوت أهله ثم يقرض الفضل مثله فيلقيه فيه .

(وقال) ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن الحسين قال حدثني أبو اسحاق صاحب الشاط قال دعيت إلى بيت الأنسبة فلم أكشف الشرب عن وجهه إذا بحية قد تطورت على حلقه فذكر من غاظها قال فخرجت فلم أعسد فذكروا أنه كان يسب الصحابة رضى الله عنهم .

(وذكر) ابن أبي الدنيا عن سعيد بن خالد بن يزيد الانصارى عن رجل من أهل البصرة كان يحفر القبور قال حفرت قبرا ذات يوم ووضعت رأسي قريبا منه فأتني امرأتان في منامي فقالت احداهما يا عبد الله نشدتك بالله الا صرفت عنا هذه المرأة ولم تجاورنا بها فاستيقظت فرعا فإذا بجنازة امرأة قد جىء بها فقلت القبر ورامكم فصرفتهم عن ذلك القبر فلما كان بالليل إذا أنا بالمرأتين في منامي تقول احداهما جزاك الله عنا خيرا فلقد صرفت عنا شرا طويلا ، قالت والصاحبة لا تكلمني كما تكلمني أنت ؟ قالت إن هذه ماتت عن غير وصية وحق لمن مات عن غير وصية ألا يتكلم إلى يوم القيامة .

وهذه الاخبار وأضعافها وأضعافها ما لا يتسع لها الكتاب مما أراه الله سبحانه لبعض عباده من عذاب القبر ونعيمه عيانا .

وأما رؤية المنام فلو ذكرناها لجاءت عدة أسفار ومن أراد الوقوف عليها فليطالع (بكتاب المنامات) لابن أبي الدنيا و (كتاب البستان) للقيرواني وغيرهما من الكتب المتضمنة لذلك وليس عند الملاحدة والزنادقة إلا التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه .

فصل

(الأمر السابع) أن الله سبحانه وتعالى يحدث في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك فهذا جبريل كان ينزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتمثل له رجلاً فيكلمه بكلام يسمعه ومن إلى جانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يراه ولا يسمعه وكذلك غيره من الأنبياء وأحياناً يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس ولا يسمعه غيره من الحاضرين وهؤلاء الجن يتحدثون ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لانسمعهم وقد كانت الملائكة تضرب الكفار بالسياط وتضرب رقابهم وتصيح بهم والمسلمون معهم لا يرونهم ولا يسمعون كلامهم والله سبحانه قد حجب بنى آدم عن كثير مما يحدثه في الأرض وهو بينهم وقد كان جبريل يقرئ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويدارسه القرآن والحاضرون لا يسمعوناه .

وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويقر بتدبره أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه حكمة منه ورحمة بهم لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها وللمبدأ أضعف بصراً وسمعاً من أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر وكثيراً عن أشهده الله ذلك صعق وغشى عليه ولم ينتفع بالعيش زمناً وبعضهم كشف قناع قلبه فبات فكيف ينكر في الحكمة الإلهية أسبال غطاء يحول بين المكلفين وبين مشاهدة ذلك من أجل ضعف البصر والسمع وشاهدود عياناً .

ثم إن المبدأ قادر على أن يرى الملائكة والجن والانس والحيوان والنبات والجمادات فكيف يعجز عنه الملك وكيف لا يتقن طيبته من كل شيء فتسير وكيف تعجز عنه عن إبقائه في عيذه وعلى صدره لا يسقط عنه شيء من كل شيء على ما يشاء الله في الدنيا إلى محض الجهول والسفاهة فكيف يعجز عنه أن يثبت في قلبه ما يشاء من غاية الجهول والظلم .

وإذا كان أسدنا يكذب نوسه فماذا نرى من أسدنا من الكذب والظلم والفساد ويستنكر ويستهيبه عن الكذب والظلم والفساد فماذا نرى من أسدنا من الكذب والظلم والفساد على من يشاء ويستنكره من أسدنا من الكذب والظلم والفساد فماذا نرى من أسدنا من الكذب والظلم والفساد وأدغمه إضاءة ونورا وهم لا يرون ذلك .

وسر المسألة أن هذه السعة والضيق والإضاءة والخظيرة والدار ليس من مجلس المعهود في هذا العالم والله سبحانه إنما أشهد بنى آدم في هذه الدار ما كان فيها ومنها وأما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء ليكون الاقرار به من الملائكة والانس والحيوان والجمادات فكيف ينكر

الغطاء صار عياناً مشاهداً فلو كان الميت بين الناس موضوعاً لم يتمتع أن يأتيه الملكان وبسألانه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك ويجيبهما من غير أن يسمعا كلامه ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه وهذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه فيعذب في النوم ويضرب ويألم وليس عند المستيقظ خبر من ذلك البتة وقد سرى أثر الضرب والألم إلى جسده .

ومن أعظم الجهل استبعاد شق الملك الأرض والحجر وقد جعلهم الله سبحانه له كالهواء للطير ولا يلزم من حجبهما الأجسام الكثيفة أن تتولج حجبهما الأرواح اللطيفة وهل هذا إلا من أفسد القياس وبهذه وأمثاله كذبت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

فصل

في الأمر الثامن أنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لا نشعر بها لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود فهذا المعنى عليه والمسكوت والمبهوت أحياء وأرواحهم معهم ولا تشعر بحياتهم من تفرقت أجزاءه لا يمتنع على من هو على كل شيء قد ير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل في الجمادات شعوراً وإدراكاً تسبح ربها به وتسقط الحجارة من خشيته وتسجد له الجبال والشجر وتسبحه الحصى والمياه والنبات قال تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) فان كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها وقال تعالى (انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين وكذلك قوله تعالى : (يا جبال أوبي معه) والدلالة لا تختص معيته وحده وكذب على الله من قال التأويل رجوع الصدى فان هذا يكون لكل مصوت وقال تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس وقد قال تعالى (ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير) صفات كل قد علم صلواته وتسبيحه فمذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله وإن جحدتها الجاهلون المكذبون وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته ، وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأتان له وقولها ذلك أي يستمعان كلامه وأنه خاطبهما فسمعا خطابه وأحسنا جوابه فقال لها (اتقيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين) وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام

وهو يؤكل ، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد ، فاذا كانت هذه الاجسام فيها الاحساس والشعور فالاجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك ، وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح فتكلم ومشى وأكل وشرب وتزوج وولد له (كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم) وكقتيل بنى إسرائيل أو كالذين قالوا لموسى (إن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فأماتهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم وكأصحاب الكهف وقصة إبراهيم في الطيور الأربعة ، فاذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الاجساد بعد ما بردت بالموت فكيف يمتنع على قدرته الأهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة يقضى بها ما أمره فيها ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود وبالله التوفيق .

فصل

(الأمر التاسع) انه ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونييمه وهو ما بين الدنيا والآخرة قال تعالى (ومن وراءهم برزخ إلى يوم يبعثون) وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة ، وسمى عذاب القبر ونييمه وأنه روضة أو حفرة نار باعتبار غالب الخلق فالمصلوب والحرق والغرق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونييمه قسطه الذي تقتضيه أعماله وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفية ما فقد ظن بعض الأوائل انه إذا حرق جسده بالنار وصار رماداً وذرى بعضه في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح أنه ينجو من ذلك فأوصى بنبيه أن يفعلوا به ذلك فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ثم قال قم فإذا هم قائم بين يدي الله فسأله ما حملك على ما فعلت ؟ فقال خشيتك يا رب وأنت أعلم فما تلافاه أن رحمه . فلم يفت عذاب البرزخ ونييمه لهذه الاجزاء التي صارت في هذه الحال حتى لو علق الميت على رؤوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه فيجعل الله النار على هذا برداً وسلاماً والهواء على ذلك ناراً وسموماً فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها بصرفها كيف يشاء ولا يستعصى عليه منها شيء أراده بل هي طلوع مشيئته مذلة منقادة لقدرته ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين وكفر به وأنكر ربوبيته .

المسألة الثامنة

وهي قول السائل : ما الحكمة في كون عذاب القبر لم يذكر في القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى ؟ فالجواب من وجهين : بجمل ، ومفصل .

أما الجمل فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحين وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة وقال تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) وقال تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وقال تعالى (واذكرونا ما يتلى في بيوتكم من آيات الله والحكمة) .

والكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة بانفاق السلف ، وما أخبر به الرسول عن الله فهو في وجوب تصديقه والإيمان به كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله ، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنى أوتيت الكتاب ومثله معه .

وأما الجواب المفصل فهو أن نعيم البرزخ وعذابه مذكور في القرآن في غير موضع . فنها قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) وهذا خطاب لهم عند الموت وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم اليوم تجزون .

(ومنها) قوله تعالى (فوفاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً لا يحتمل غيره .

(ومنها) قوله تعالى (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون ، وإن الذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون) وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا ، وقد يقال وهو أظهر أن من مات منهم عذب في البرزخ ومن بقى منهم عذب في الدنيا بالقتل وغيره فهو وعيد بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ .

(ومنها) قوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون)

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبد الله بن عباس على عذاب القبر وفي الاحتجاج بها شيء لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعى به رجوعهم عن الكفر ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن لكن من فقهه في القرآن ودقته فهمه فيه فهم منها عذاب القبر فانه سبحانه أخبر أن له فهم عذابين أدنى وأكبر فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ولهذا قال من العذاب الأدنى ولم يقل ولذيقهم العذاب الأدنى وتأمله .

هذا نظير قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وحرها ولم يقل فيأتيه حرها وسمومها فإن الذي وصل إليه بعض ذلك وبقي له أكثره والذي ذاقه أمداه الله في الدنيا بعض العذاب وبقي لهم ما هو أعظم منه .

(ومنها) قوله تعالى (فلولاً إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولاً إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين فأما إن كان من المؤمنين فروح وربحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم إن هذا هو الحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم) فذكر هاهنا أحكام الأرواح عند الموت وذكر في أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية إذ هي أهم وأولى بالذكر وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام .

(ومنها) قوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) وقد اختلف السلف متى يقال لها ذلك فقالت طائفة يقال لها عند الموت وظاهر اللفظ مع هؤلاء فانه خطاب للنفس التي قد تجردت عن البدن وخرجت منه وقد فسر ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله في حديث البراء وغيره فيقال لها ارجعي راضية مرضياً عنك وسيأتي تمام تقرير هذا في المسألة التي يذكر فيها مستقر الأرواح في البرزخ إن شاء الله تعالى وقوله تعالى (فادخلي في عبادي) مطابق لقوله صلى الله عليه وآله وسلم (اللهم الرفيق الأعلى) .

وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دل عليه القرآن وبالله التوفيق .

المسألة التاسعة

وهي قول السائل ما الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور

جوابها من وجهين : مجمل ومفصل : أما المجمل فانهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه فلا يعذب الله روحا عرفته وأحبته وامثلت أمره واجتنبت نهيه ولا بدناً كانت فيه أبدا فان عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده فن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه فستقل ومستكثر ومصداق ومكذب .

وأما الجواب المفصل : فقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجلين الذين رأهما يعذبان في قبورهما يمشى أحدهما بالنخلة بين الناس ويترك الآخر الاستبراء من البول فهذا ترك للطهارة الواجبة وذلك ارتكاب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وإن كان صادقا وفي هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة بالكذب والزور والبهتان أعظم عذابا كما أن في ترك الاستبراء من البول تنبيه على أن من ترك الصلاة التي الاستبراء من البول بعض واجباتها وشروطها فهو أشد عذابا وفي حديث شعبة أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس فهذا مقتاب وذلك تمام وقد تقدم حديث ابن مسعود رضى الله عنه في الذي ضرب سوطا لمتك القبر عليه به نارا ، لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور ومر على مظلوم فلم ينصره .

وقد تقدم حديث سمرة في صحيح البخارى في تعذيب من يكذب الكذبة فيبلغ الآفاق وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به بالنهار . وتعذيب الزناة والزواني وتعذيب آكل الربا كما شاهدتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في البرزخ .

وتقدم حديث أبي هريرة رضى الله عنه الذي فيه رضى رءوس أفوام بالصخر المشافل رءوسهم عن الصلاة ، والذي يسرحون بين الضريع والزقوم لتركهم زكاة أموالهم ، والذي يأكلون اللحم المتين الخبيث لزنابهم ، والذي تقرض شفاهم بمقاريض من حديد لتيامهم في الفتن بالكلام والخطب .

وتقدم حديث أبي سعيد وعقوبة أرباب تلك الجرائم فمنهم من بطونهم أمثال البيوت وهم على سابلة آل فرعون وهم آكلة الربا . ومنهم من تفتح أفواههم فيلقدون الجرح حتى يخرج من أسافلهم وهم آكلة أموال اليتامى ، ومنهم المعلقات بشدين وهن الزواني . ومنهم من تقطع جنوبيهم ويطعمون لحريمهم وهم المعتابون . ومنهم من لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم وهم الذين يغمتمون أعراض الناس .

وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن صاحب الشملة التي غلبا من المغنم أنها تشتعل عليه ناراً في قبره هذا وله فيها حق فكيف بمن ظلم غيره ملاحق له فيه . فعذاب القبر عن معاصي القلب والعين والأذن والشم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله فالنمام والكذاب والامتاب وشاهد الزور وقاذف المحصن والموضع في الفتنة والداعى إلى البدعة والقائل على الله ورسوله مالا علم له به ، والمجازف في كلاه ، وآكل الربا وآكل أموال اليتامى وآكل السحت من الرشوة والبرطيل^(١) ونحوهما وآكل مال أخيه المسلم بغير حق أو مال المعاهد وشارب المسكر وآكل لقمة الشجرة الملعونة والزاني واللوطي والسارق والخائن والغادر والخادع والمأكر وأخذ الربا ومعطيه وكاتبه وشاهدها والمحلل والمحلل له ، والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه ، ومؤذى المسلمين ومتبع عوراتهم ، والحاكم بغير ما أنزل الله والمفتى بغير ما شرعه الله والمعين على الإثم والعدوان وقاتل النفس التي حرم الله والمليح في حرم الله والممطل لحقائق أسماء الله وصفاته المليح فيها والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والنائحة والمستمع إليها ونواحيروا جنهم وهم المغنون الغناء الذي حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها القناديل والارج ، والمطففون في استيفاء ما لهم إذا أخذوه وهضم ما عليهم إذا بذلوه والجبارون والمتكبرون والمراؤون والهزازون واللمازون والطاعنون على السلف والذين يأتون الحكمة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم ، وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم والذي إذا خوفته بالله وذكرته به لم يرعو ولم ينزجر فاذا خوفته بمخلوق مثله خاف وارعوى وكف عما هو فيه والذي يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدى ولا يرفع به رأساً فاذا بلغه عن يحسن به الظن من يصيب ويخطئ . عنى عليه بانواجد ولم يخالفه والذي يقرأ عليه القرآن فلا يؤثر فيه وربما استنقل به فاذا سمع قرآن الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعى الطرب وودأن المعنى لا يسكت والذي يحلف بالله ويكذب فاذا حلف بالبندق أو برىء من شيخه أو قريبه أو سراويل الفتوة أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين لم يكذب ولو هدد وعوقب ، والذي يفتخر بالمعصية ويتكبرها بين اخوانه وأضرابه وهو الجاهر ، والذي لا تأمنه على مالك وحرمتك ، والفاحش اللسان البذيء الذي تركه الخلق اتقاء شره وخشيه والذي يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً ولا يؤدي زكاة ماله طيبة بها نفسه ولا يحج مع قدرته على الحج ولا يؤدي ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها ولا يتورع من لحظة ولا لفظة ولا أكلة ولا

(١) البرطيل : الرشوة .

خطوة ولا يبالي بما حصل من المال من حلال أو حرام ولا يصل رحمه ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم بل يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ويرافق للمالين ويمنع الماعون ويشغل بعيوب الناس عن عيبه وبذنوبهم عن ذنبه ، فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها وصغيرها وكبيرها .

ولما كان أكثر الناس كذلك كان أكثر أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل فظواهر القبور تراب وبواطنها حشرات وعذاب ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبيدات وبواطنها الدواهي والبليات تغلى بالحشرات كما تغلى القدور بما فيها ويحرق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيتها تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالا ، ونادت بأعمار الدنيا لقد عمتم دارا موشكة بكم زوالا ، وخربت دارا أتم مسرعون إليها انتقالا ، عمرتم بيوتنا لغيب كنفاتها وسكنائها ، وخربت بيوتنا ليس لكم مساكن سواها هذه دار الاستباق ومستودع الاعمال وبذر الزرع وهذه محل للعبر رياض من رياض الجنة أو حفر من حفر النار .

المسألة العاشرة

الأسباب المنجية من عذاب القبر

جوابها أيضاً من وجهين : مجمل ومفصل :

أما المجمل فهو تجنب تلك الأسباب التي تقتضي عذاب القبر ومن انفعها أن يحاسب النفس عند ما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه ثم يحسب نفسه نصحاً بينه وبين الله فينام على تلك التوبة ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ ويؤمن هذا كل ليلة فإن مات من ليلته مات على توبة وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعصاة من غير تأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاتته وليس للمعبد انفع من هذه التوبة ولا من غيرها إذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند النوم حتى يغله النوم فمن أراد الله به خيراً ووفقه لذلك وإلا بالله .

وأما الجواب المفصل فنذكر أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما ينفع من عذاب القبر .

(فنها) ما رواه مسلم في صحيحه عن سلمان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن لانتان .

(وفي جامع الترمذى) من حديث فضالة بن عبيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطا فى سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر ، قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

(وفي سنن النسائى) عن رشدين بن سعد عن رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن رجلا قال يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد ؟ قال كفى يارقة السيوف على رأسه فتنه .

(وعن المقدم بن معد يكرب) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للشيد هند الله ست خصال يغفر له فى أول دفعة من دمه ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع فى سبعين من أقاربه . رواه ابن ماجه والترمذى وهذا لفظه وقال هذا حديث حسن صحيح .

(وعن ابن عباس رضى الله عنهما) قال ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبائه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فاذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله ضربت خبائى على قبر وأنا لأحسب أنه قبر فاذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي المائة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب .

(ورويانا) فى مسند عبد بن حميد عن إبراهيم بن الحكم عن أبيه عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لرجل ألا تحفك بحديث تفرح به ؟ قال الرجل بلى ؟ قال اقرأ (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) احفظها وعلما أهلك وولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارثها وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب النار إذا كانت فى جوفه وينجى الله بها صاحبها من عذاب القبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لودت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى .

(قال) أبو عمر بن عبد البر وصح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن سورة ثلاثين آية شفعت فى صاحبها حتى غفر له (تبارك الذى بيده الملك) .

(وفي سنن ابن ماجه) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه برفعه من مات مبطونا مات شهيدا ووقى فتنه القبر وغدى وريح عليه برزق من الجنة .

(وفي سنن النسائى) عن جامع بن شداد قال سمعت عبد الله بن يشكر يقول كنت جالساً مع سليمان بن صره ومخالد بن عرفطة فذكروا أن رجلا مات يبطنه فإذا هما يشتهيان أن

يكونا شهدا جنازته فقال أحدهما للآخر ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قتله بطنه لم يعذب في قبره ؟ .

(وقال) أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا شعبة حدثني أحمد بن جامع بن شداد قال أبي ، فذكره وزاد فقال الآخر بلى .

(وفي الترمذى) من حديث ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وليس إسناده بمتصل . ربيعة بن سيف إنما يروى عن أبي عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو ولا يعرف لربيعة بن سيف سماع من عبد الله بن عمرو . انتهى .

وقد روى الترمذى الحكيم من حديث ربيعة بن سيف هذا عن عياض بن عمبة الفهرى عن عبد الله بن عمرو .

وقد رواه أبو نعيم الحافظ عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعاً ولنظفه من مات ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أجير من عذاب القبر وجاء يوم القيامة وعليه طابع الشهداء . تفرد به عمر بن موسى الوجيهى وهو مدنى ضعيف .

(بقوله) صلى الله عليه وآله وسلم كفى بيارقة السيوف على رأسه فتنة . معناه والله أعلم قد انتحن نفاقه من إيمانه بيارقة السيوف على رأسه فلم يفر فلو كان منافقاً لما صبر بيارقة السيوف على رأسه فدل على أن إيمانه هو الذى حمله على بذل نفسه لله وتسليمها له وهاج من قلبه حمية الغضب لله ورسوله واطهار دينه وإعزاز كلمته فهذا قد أظهر صدق ما فى ضميره حيث برز للقتل فاستغنى بذلك عن الامتحان فى قبره .

(قال) أبو عبد الله القرطبي إذا كان الشهيد لا يفتن فالصديق أجل خطراً وأعظم أجراً أن لا يفتن لأنه مقدم ذكره فى التنزيل على الشهداء وقد صح فى المرابط الذى هو دون الشهيد أنه لا يفتن فكيف بمن هو أعلى رتبة منه ومن الشهيد .

والاحاديث الصحيحة ترد هذا القول وتبين أن الصديق يسأل فى قبره كما يسأل غيره وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأس الصديقين وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أخبره عن سؤال الملك فى قبره فقال وأنا على مثل حالتى هذه ؟ فقال نعم وذكر الحديث .

وقد اختلف فى الانبياء هل يسألون فى قبورهم على قولين وهما . جهان فى مذهب أحد

وغيره ولا يلزم من هذه الخاصية التي اختص بها الشهيد أن يشاركه الصديق في حكمها وإن كان أعلى منه فخواصر الشهداء قد تتفق عن هو أفضل منهم وإن كان أعلى منهم درجة .

وأما حديث ابن ماجه . من مات مريضاً مات شهيداً ووقى فتنة القبر ، فن أفراد ابن ماجه وفي أفراد غرائب ومنكرات ومثل هذا الحديث مما يتوقف فيه ولا يشهد به على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن صح فهو مقيد بالحديث الآخر وهو الذي يقتله بطنه فإن صح عنه أنه قال المبطلون شهيد فيحمل هذا المطلق على ذلك المقيد . والله أعلم .

(رقد جاء) فيما ينجى من عذاب القبر حديث فيه الشفاء رواه أبو موسى المدني وبين علته في كتابه في الترغيب والترهيب وجعله شرحاً له . رواه من حديث الفرع بن فضالة حدثنا هلال أبو جبلة عن سعيد بن المسيب عن عبدالرحمن بن سمرة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن في صفة بالمدينة فقام علينا فقال إني رأيت البارحة عجا رأيت رجلاً من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فطير الشياطين عنه . ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان فأسقاه وأرواه ، ورأيت رجلاً من أمتي ورأيت النبيين جلوساً حلقاً حلقاً كلما دنا إلى حلقة طرد ومنع فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي ، ورأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة وهو متحير فيه فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور ، ورأيت رجلاً من أمتي يتقى وهج النار وشررها فجاءته صدقة فصارت ستراً بينه وبين النار وظلا على رأسه ، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلته لرحمة فقالت يامعشر المؤمنين انه كان وصولاً لرحمة فكلموه فكلمه المؤمنون وصالحوه وصالحهم ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله في ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتي خف ميزانه فجاءه أفراطه^(۱) فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم فجاءه رجاءه من الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ومضى ورأيت رجلاً من أمتي قد هوى

^(۱) جمع فرط . والمراد بهم اولاده الذين ماتوا صغاراً .

في النار فجاءته دمعته التي قد بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمي قائماً على الصراط يردد كما ترعد السعفة في ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن روعه^(١) ومضى ، ورأيت رجلاً من أمي يزحف على الصراط يحبو أحياناً ويتعلق أحياناً فجاءته صلواته فأقامته على قدميه وأنقذته ، ورأيت رجلاً من أمي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة . قال الحافظ أبو موسى هذا حديث حسن جداً رواه عن سعيد بن المسيب وعمر بن ذر وعلى ابن زيد بن جدعان .

ونحو هذا الحديث بما قيل فيه أن رؤيا الأنبياء وحى فهر على ظاهرها لا كنعو ماروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال رأيت كأن سبني انقطع فأولته كذا وكذا . ورأيت بقرا تنحر . ورأيت كأننا في دار عقبة بن رافع .

وقد روى في رؤياه الطويلة من حديث سمرة في الصحيح ومن حديث علي وأبي أمامة وروايات هؤلاء الثلاثة قريب بعضها من بعض مشتملة على ذكر عقوبات جماعة من المعذبين في البرزخ فأما في هذه الرواية فذكر العقوبة وأنبعها بما ينجي صاحبها من العمل وراوى هذا الحديث عن ابن المسيب هلال أبو جبلة مدني لا يعرف بغير هذا الحديث ذكره ابن أبي حاتم عن أبيه هكذا ذكره الحاكم أبو أحمد والحاكم أبو عبد الله أبو جيل بلا هاء وحكياه عن مسلم ورواه عنه الفرج بن فضالة وهو وسط في الرواية ليس بالقوى ولا المترك ورواه عنه بشر ابن الوليد الفقيه المعروف بأبي الخطيب كان حسن المذهب جميل الطريقة وسمعت شيخ الإسلام يعظم أمر هذا الحديث وقال أصول السنة تشهد له وهو من أحسن الأحاديث .

المسألة الحادية عشر

وهي أن السؤال في القبر هل هو عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق ؟

قال أبو عمر بن عبد البر في (كتاب التمهيد) والآثار الدالة تدل على أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق كان منسوباً إلى أهل القبلة ودين الإسلام بظاهر الشهادة ، وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام فيثبت الله الذين آمنوا ويرتاب المبطلون .

(١) ن . رعدته .

والقرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول وأن السؤال للكافر والمسلم ، قال الله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وقد ثبت في الصحيح أنها نزلت في عذاب القبر حين يسأل من ربك وما دينك ومن نبيك .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم ، وذكر الحديث . زاد البخاري وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول لأدرى كنت أقول ما يقول الناس فيقال لا دريت ولا تليت ويضرب بمطرقه من حديد يصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين ~~مكنا~~ في البخاري وأما المنافق والكافر بالواو وقد تقدم في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه ابن ماجه والإمام أحمد ، كنا في جنازة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلنا يا أيها الناس إن هذه الأمة تبلى في قبورها فإذا الإنسان دفن وتولى عنه أصحابه جاء ملك رقى يده مطراق فأقعدته فقال ما تقول في هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمناً قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول له صدقت فيفتح له باب إلى النار فيتمول هذا منزلك لو كفرت بربك وأما الكافر والمنافق فيقول له ما تقول في هذا الرجل ؟ فيقول لأدرى فيقال لا دريت ولا اهتديت ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول له هذا منزلك لو آمنت بربك فأما إذ كفرت فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى النار ثم يقمعه الملك بالمطراق قعدة يسمعه خلق الله إلا الثقلين ، فقال بعض الصحابة يارسول الله ما أحد يقرم على رأسه ملك إلا هيل عند ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) .

(وفي حديث) البراء بن عازب الطويل . وأما الكافر إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزل عليه الملائكة من السماء معهم مسوح . وذكر الحديث إلى أن قال ، ثم تعاد روحه في جسده في قبره ، وذكر الحديث ، وفي لفظ فإذا كان كافر جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فذكر الحديث إلى قوله : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بأسو أسماء ، فإذا انتهى به إلى سماء الدنيا أغلقت دونه قال يرى به من السماء ثم قرأ قوله تعالى : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) قال فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان شديدا الاقترار فيجسطانه وينتهرانه فيقولان من ربك ؟ فيقول هاه لا أدرى فيقولان لا دريت ، فيقولان ما هذا النبي الذي بعث فيكم ؟ فيقول سمعت

الناس يقولون ذلك لأدري . فيقولان له لادريت وذلك قوله تعالى (ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وذكر الحديث .

واسم الفاجر في عرف القرآن والسنة يتناول الكافر قطعاً كقوله تعالى (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) وقوله تعالى (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين) وفي لفظ آخر في حديث البراء وإن الكافر إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزل إليه ملائكة شداد غضاب معهم ثياب من نار وسراويل من قطران فيحتوشونه فتتزع روحه كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المتبل فاذا أخرجت لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء .

وذكر الحديث إلى أن قال أنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين فيقال يا هذا من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول لأدري فيقال لادريت . وذكر الحديث رواه حماد بن سلمة عن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء .

وفي حديث عيسى بن المسيب عن عدى بن ثابت عن البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جنازة رجل من الأنصار . وذكر الحديث إلى أن قال وإن الكافر إذا كان في دبر من الدنيا وقيل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه ملائكة معهم كفن من نار وحنوط من نار . فذكر الحديث إلى أن قال فترد روحه إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنياهما ويفحصان الأرض بأشعارهما ، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيجلسانه ثم يقولان يا هذا من ربك؟ فيقول لأدري فينادى من جانب القبر لادريت فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل . يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه . وذكر الحديث .

ورواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي النضر هاشم بن القاسم حدثنا عيسى بن المسيب فذكره .

(وفي حديث) محمد بن سلمة عن خصيف عن مجاهد عن البراء قال كنا في جنازة رجل من الأنصار ومعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر الحديث إلى أن قال وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإذا وضع الكافر أتاه منكر ونكير فيجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول لأدري فيقولان له لادريت . الحديث وقد تقدم .

وبالجملة فعامة من روى حديث البراء بن عازب قال فيه وأما الكافر بالجزم وبعضهم قال وأما الفاجر وبعضهم قال وأما المنافق والمرتاب وهذه اللفظة من شك بعض الرواة هكذا في الحديث لأدري أي ذلك قال .

وأما من ذكر الكافر والفاجر فلم يشك ورواية من لم يشك مع كثرتهم أولى من رواية من شك مع انفراده على أنه لا تناقض بين الروایتين فإن المنافق يسأل كما يسأل الكافر والمؤمن فيثبت الله أهل الإيمان ويضل الله الظالمين وهم الكفار والمنافقون .

(وقد جمع) أبو سعيد الخدری فی حدیثه الذی رواه أبو عامر العقدي حدثنا عباد بن راشد عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جنازة . فذكر الحديث وقال وإن كان كافراً أو منافقاً يقول له ماتقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري وهذا صريح في أن السؤال للكافر والمنافق ، وقول أبي عمر رحمه الله وأما الكافر الجاحد المبطل فليس بمن يسأل عن ربه ودينه ، فيقال له ليس كذلك بل هو من جهة المستولين وأولى بالسؤال من غيره .

وقد أخرج الله في كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة قال تعالى (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) وقال تعالى (فوريكم لذآئبهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقال تعالى (فلذآئب الذين أرسل إليهم ولذآئب المرسلين) فإذا سئلوا يوم القيامة فكيف لا يسألون في قبورهم فليس لما ذكره أبو عمر رحمه الله وجه .

المسألة الثانية عشرة

وهي أن سؤال منكر ونكير هل هو مختص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها هذا موضع تكلم فيه الناس فقال أبو عبد الله الترمذی (١) إنما سؤال الميت في هذه الأمة خاصة لأن الأمم قبلنا كانت الرسل تأتيهم بالرسالة فإذا أبوا كفت الرسل واعتزلوهم وعولجوا بالعذاب فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالرحمة إماماً للخلق كما قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أمسك عنهم العذاب وأعطى السيف حتى يدخل في دين الإسلام من دخل لمهابة السيف ثم يرسخ الإيمان في قلبه فأمهلوا فن هاهنا ظهر أمر النفاق وكانوا يسرون الكفر ويعلمون الإيمان فكانوا بين المسلمين في ستر فلما ماتوا قبض الله لهم فتاني القبر ليستخرجوا سرهم بالسؤال (وليميز الله الخبيث من الطيب فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) .

وخالف في ذلك آخرون منهم عبد الحق الأشيلي والقرطبي وقالوا السؤال لهذه الأمة ولغيرها .

(٢) كذا . ولعله الحميدي .

وتوقف في ذلك آخرون منهم أبو عمر بن عبد البر فقال وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ومنهم من يرويه تسأل ، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصت بذلك فهذا أمر لا يقطع عليه .
وقد احتج من خصه بهذه الأمة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، وبقوله أوحى إلى أنكم تفتنون في قبوركم وهذا ظاهر في الاختصاص بهذه الأمة قالوا ويدل عليه قول الملكين له ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول المؤمن أشهد أنه عبد الله ورسوله فهذا خاص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقوله في الحديث الآخر إنكم بي تمتحنون وعنى تسألون .

وقال آخرون لا يدل هذا على اختصاص السؤال بهذه الأمة دون سائر الأمم فإن قوله إن هذه الأمة إما أن يراد به أمة الناس كما قال تعالى (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) وكل جنس من أجناس الحيوان يسمى أمة ، وفي الحديث لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها وفيه أيضاً حديث النبي الذي قرصته نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه من أجل أن قرصتك نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله . وإن كان المراد به أمته صلى الله عليه وآله وسلم الذي بعث فيهم لم يكن فيه ما ينفي سؤال غيرهم من الأمم . بل قد يكون ذكرهم اخباراً بأنهم مشرولون في قبورهم وأن ذلك لا يختص بمن قبلهم لفضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم .

وكذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم أوحى إلى أنكم تفتنون في قبوركم .

وكذلك اخباره عن قول الملكين ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ هو اخبار لامته بما تمتحن به في قبورها والظاهر والله أعلم أن كل نبي مع أمته كذلك وأنهم معذبون في قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجّة عليهم كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجّة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

المسألة الثالثة عشرة

وهي أن الاطفال هل يمتحنون في قبورهم ؟

اختلف الناس في ذلك على قولين : هما وجهان لأصحاب أحد .

وحجة من قال أنهم يسألون أنه بشرع الصلاة عليهم والدعاء لهم وسؤال الله أن يقيم عذاب القبر وفتنة القبر (كما ذكر) مالك في موطنه عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وآله وسلم صلى على جنازة صبي فسمع من دعائه : اللهم قه عذاب القبر .

(واحتجوا) بما رواه علي بن معبد عن عائشة رضى الله عنها أنه مر عليها بجنائز صبي صغير فبكت فقيل لها ما يبكيك يا أم المؤمنين ؟ فقالت هذا الصبي بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر .

(واحتجوا) بما رواه هناد بن السرى حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه قال إنه كان ليصلى على المنفوس وما ان عمل خطيئة قط فيقول اللهم أجره من عذاب القبر .

قالوا والله سبحانه يكمل لهم عقولهم ايعرفوا بذلك منزلتهم ويلهمون الجواب عما يسألون عنه .

قالوا وقد دل على ذلك الأحاديث الكثيرة التي فيها أنهم يمتحنون في الآخرة وحكاة الأشعري عن أهل السنة والحديث فإذا امتحنوا في الآخرة لم يتمتع امتحانهم في القبور .

(قال الآخرون) السؤال إنما يكون لمن عقل الرسول والمرسل فيسأل هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا ؟ فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فأما الطفل الذي لا تميز له بوجه ما فكيف يقال له ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ! ولو رد إليه عقله في القبر فانه لا يسأل عما يتمكن من معرفته والعلم به ولا فائدة في هذا السؤال وهذا بخلاف امتحانهم في الآخرة فان الله سبحانه يرسل اليهم رسولا ويأمرهم بطاعة أمره وعقولهم معهم فن أطاعه منهم نجحوا ومن عصاه أدخله النار فذلك امتحان بأمر يأمرهم به يفعلونه ذلك الوقت لا أنه سؤال عن أمر مضى لهم في الدنيا من طاعة أو عصيان كسؤال الملكين في القبر

وأما حديث أبي هريرة رضى الله عنه فليس المراد بعذاب القبر فيه عقوبة الطفل على ترك طاعة أو فعل معصية قطعاً فان الله لا يعذب أحداً بلا ذنب عمله ، بل عذاب القبر قد يراد به الألم الذي يحصل الميت بسبب غيره وإن لم يكن عقوبة على عمل عمله . ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه . أى يتألم بذلك ويتوجع منه لا أنه يعاقب بذنب الحى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) .

وهذا كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم السفر قطعة من العذاب . فالعذاب أعم من العقوبة . ولا ريب أن في القبر من الآلام والهموم والحمرات ما قد يبرى أثره إلى الطفل فيتألم به فيشرع المصلى عليه أن يسأل الله تعالى له أن يقيه ذلك العذاب . والله أعلم .

المسألة الرابعة عشرة

وهي قوله هل عذاب القبر دائم أو منقطع ؟

جوابها أنه نوعان (نوع دائم) سوى ماورد في بعض الأحاديث أنه يخفف عنهم ما بين النفختين فإذا قاموا من قبورهم قالوا (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا) ويدل على دوامه قوله تعالى : (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) ويدل عليه أيضاً ما تقدم في حديث سمرة الذي رواه البخاري في روى النبي صلى الله عليه وسلم وفيه فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة . وفي حديث ابن عباس في قصة الجريدتين لعله يخفف عنهما ما لم تيبسا ، فجعل التخفيف مقيداً برطوبتهما فقط .

وفي حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت لا يفتر عنهم من ذلك شيء ، وقد تقدم وفي الصحيح في قصة الذي لبس بردين وجعل يمشى يتبختر نخسف الله به الأرض فهو يتجأجل فيها إلى يوم القيامة .

وفي حديث البراء بن عازب في قصة الكافر ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة . رواه الإمام أحمد وفي بعض طرقه ثم يخرق له خرقاً إلى النار فيأتيه من غمها ودخانها إلى يوم القيامة .

(النوع الثاني) إلى مدة ثم ينقطع وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه كما يعذب في النار مدة ثم يزول عنه العذاب .

وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو شراب حجج أو قراءة تسلي إليه من بعض أقاربه أو غيرهم وهذا كما يشفع الشافع في المعذب في الدنيا فيخلص من العذاب بشفاعته لكن هذه شفاعاة قد لا تكون باذن المشفوع عنده والله سبحانه وتعالى لا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه فهو الذي يأذن للشافع أن يشفع إذا أراد أن يرحم المشفوع له ، ولا تغتر بغير هذا فإنه شرك وباطل يتعالى الله عنه (من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه — ولا يشفعون إلا لمن ارتضى — ما من شفيع إلا من بعد إذنه ولا ترفع الشفاعاة عنده إلا لمن أذن له — قل لله الشفاعاة جميعاً له ملك السموات والأرض) .

(وقد ذكر) ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن موسى الصائغ حدثنا عبد الله بن نافع قال مات رجل من أهل المدينة فرآه رجل كأنه من أهل النار فأنتم لذلك ثم أنه بعد ساعة أو

ثانية رآه كأنه من أهل الجنة فقال ألم تكن قلت انك من أصل النار ، قال قد كان ذلك إلا أنه دفن معنا رجل من الصالحين فشفع في أربعين من جيرانه فكنت أنا منهم .

(قال) ابن أبي الدنيا وحدثنا أحمد بن يحيى قال حدثني بعض أصحابنا قال مات أخي فرأيت في النوم فقلت ما كان حالك حين وضعت في قبرك ؟ قال أتاني آت بشهاب من نار فلولاً أن داعياً دعاني لرأيت أنه سيضربني به .

(وقال) عمرو بن جرير إذا دعا العبد لآخيه أذيت أتاه بها ملك إلى قبره فقال يا صاحب القبر الغريب هدية من أخ عليك شفيق .

(وقال) بشار بن غالب رأيت رابعة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور نخمرة بمدايل الحرير قلت كيف ذلك ، قالت هكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى استجيب لهم وجعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخر بمدائل الحرير ثم أتى بها الذي دعى له من الموتى فقيل هذه هدية فلان إليك .

(قال) ابن أبي الدنيا وحدثني أبو عبيد بن محير قال حدثني بعض أصحابنا قال رأيت أخاً لي في النوم بعد موته فقلت أياصل إليكم دعاء الأحياء قال أي واقه يترفرق مثل النور ثم يلبسه .

وسألتني إن شاء الله تعالى تمام لهذه في جواب السؤال عن انتفاع الأموات بما تهديه إليهم الأحياء .

المسألة الخامسة عشرة

وهي أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة هل هي في السماء أم في الأرض ؟ وهل هي في الجنة أم لا ؟ وهل تودع في أجساد غير أجسادها التي كانت فيها فتتم وتعذب فيها أم تكون مجردة ؟

هذه مسألة عظيمة تسلك فيها للناس واختلفوا فيها وهي إنما تتلقى من السمع فقط واختلف في ذلك فقال قائلون أرواح المؤمنين عند الله في الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحببهم عن الجنة كبيرة ولادين وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم والرحمة لهم ، وهذا مذهب أبي هريرة وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم .

وقالت طائفة هم بفناء الجنة على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها .

وقالت طائفة الأرواح على أفنية قبورها .

وقال مالك بلغنى أن الروح مرسله تذهب حيث شاءت .

(وقال) الإمام أحمد فى رواية ابنه عبد الله أرواح للكفار فى النار وأرواح المؤمنين فى الجنة .

(وقال) أبو عبد الله بن منده وقال طائفة من الصحابة والتابعين أرواح المؤمنين عند الله عز وجل ولم يزيدوا على ذلك ، قال روى عن جماعة من الصحابة والتابعين أرواح المؤمنين بالجافية وأرواح الكفار برهوت بئر بحضرموت .

وقال صفوان بن عمرو سألت عامر بن عبد الله أبا اليمان هل لأنفس المؤمنين مجتمع ؟ فقال إن الأرض التى يقول الله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) قال هى الأرض التى يجتمع إليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث وقالوا هى الأرض التى يورثها الله المؤمنين فى الدنيا وقال كعب أرواح المؤمنين فى عليين فى السماء السابعة ، وأرواح الكفار فى سجين فى الأرض السابعة تحت جند إبليس .

وقالت طائفة أرواح المؤمنين بئر زمزم وأرواح الكفار بئر برهوت .

وقال سلمان الفارسى أرواح المؤمنين فى رزخ من الأرض تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار فى سجين . وفى لفظ عنه نسمة المؤمن تذهب فى الأرض حيث شاءت .

وقالت طائفة أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن شماله .

وقالت طائفة أخرى منهم ابن حزم مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها .

وقال والذى نقول به فى مستقر الأرواح هو ما قاله الله عز وجل ونبيه صلى الله عليه وآله وسلم لا تتعداه فهو البرهان الواضح وهو أن الله عز وجل قال (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) وقال تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فصح أن الله تعالى خالق الأرواح جملة وكذلك أخبر صلى الله عليه وآله وسلم أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . وأخذ الله عهداً وشهادتها له بالربوبية وهى مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم وقبل أن يدخلها فى الأجساد والأجساد يومئذ تراب وماء ثم أقرها حيث شاء وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت ثم لا يزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها فى الأجساد المتولدة من المنى . إلى أن قال فصح أن الأرواح أجساد حاملة لاغراضها من التعارف والتناكر وأنها عارفة بميزة فيلوم الله فى الدنيا كما يشاء ثم يتوفاها فيرجع إلى

البرزخ الذي رآها فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسرى به عند سماء الدنيا أرواح أهل السمادة عن يمين آدم وأرواح أهل العقاوقة عن يساره وذلك عند منقطع العناصر ويعجل أرواح الأنبياء والشهداء إلى الجنة .

قال وقد ذكر محمد بن نصر المروزي عن اسحاق بن رَاهُوِيَه أنه ذكر هذا الذي قلنا بعينه .
قال : غير هذا أجمع أهل العلم .

قلت : إن حريم وهو قول جميع أهل الإسلام قال وهذا هو قول الله تعالى (فأصحاب الميمنة ما أتت من الجنة وأصحاب المشئمة ما أتت من المشئمة ، والسابقون السابقون أولئك المقربون) .
الجنة من الآء لِينِ وفلِيل من الآخرِين) وقوله تعالى (فأما إن كان من المقربين فتدبرهم) .
الجنة نعم (إلى غيرها فلا تزال الأرواح هناك حتى يتم عدد الأرواح التي من الجنة) يرجوعها إلى البرزخ فتقوم الساعة ويعيد الله عز وجل الأرواح إلى قبورها في الحياة الثانية بحسب الخلق فريق في الجنة وفريق في السعير مخلدين أبدا . انتهى .
وقال محمد بن جرير بن عبد البر أرواح الشهداء في الجنة وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم في الجنة . انتهى .

وقال محمد بن جرير بن عبد البر عن ابن جريج فيما قرىء عليه عن مجاهد ليس هي في الجنة ولكن في البرزخ . انتهى .

وقال محمد بن جرير بن صالح عن سعيد بن سويد أنه سأل ابن شهاب عن أرواح المؤمنين فقيل يروحون إلى أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو وتروح إلى رياض الجنة تأتي يومئذ يوم تسلم عليه .

(وقال) أبو عمر بن عبد البر في شرح حديث ابن عمر أن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى يوم القيامة قال وقد استدل به من ذهب إلى أن الأرواح على أفنية القبور ، وهو أصح ما ذهب إليه في ذلك والله أعلم لأن الأحاديث بذلك أحسن بحيثاً وأثبت نقلاً من غيرها .

قال والمعنى عندى أنها قد تكون على أفنية قبورها لا على أنها تلزم ولا تفارق أفنية القبور كما قال مالك رحمه الله أنه بلغنا أن الأرواح تسرح حيث شاءت .

قال وعن مجاهد أنه قال الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك . والله أعلم .

وقالت فرقة مستقرها العدم المحض وهذا قول من يقول ان النفس عرض من أعراض البدن بحياته وإدراكه فتعدم بموت البدن كما تعدم سائر الأعراض المشروطة بحياته . وهذا قول مخالف لنصوص القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين كما سند ذلك إن شاء الله . والمقصود أن عند هذه الفرقة المبطل أن مستقر الأرواح بعد الموت العدم المحض .

وقالت فرقة مستقرها بعد الموت أرواح آخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الأرواح فتصير النفس السبعية إلى أبدان السباع والكلبية إلى أبدان الكلاب والبهيمية إلى أبدان البهائم والدنية والسلفية إلى أبدان الحشرات ، وهذا قول المتناسخ منكرى المعاد ، وهو قول خارج عن أقوال أهل الإسلام منهم . فهذا ما تلخص لي من جمع أقوال الناس في مصير أرواحهم بعد الموت ولا تنسب به مجموعا في كتاب واحد غير هذا البتة ونحن نذكر ما أخذ هذه الأقوال وما لكل قول وما عليه وما هو الصواب من ذلك الذي دل عليه الكتاب والسنة على طريقتنا التي من التوفيق ورجو الإعانة والتوفيق .

فصل

فأما من قال هي في الجنة فاحتج بقوله تعالى (فأما إن كان من المقربين فتدبرنا نحن نعلم ما كانوا يعملون) وقال (نعم) قال وهذا ذكره سبحانه عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت وقد ذكرنا في كتابنا في الآخرة ثلاثه أقسام (مقربين) وأخبر أنها في جنة النعيم (وأصحاب يمين) حكاهما بالإسلام في سلامتها من العذاب (ومكذبة ضالة) وأخبر أن لها نزلا من حميم ونسليه جحيم بعد مفارقتها للبدن قطما ، وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة في أول السورة بعد الموت وبعد البعث واحتجوا بقوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) وقد قال غير واحد من الصحابة والفقهاء يقال لها عند خروجها من الدنيا يبشرها الملك بذلك ولا يبقى ذلك قول من يقول يقال لها في الآخرة فانه يقال لها عند الموت وعند البعث وهذه من البشرى التي تنزل على المؤمنين (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا نقولوا ولما قالوا سمعوا وهم يقولون أسمعوا للذين آمنوا وهم يقولون لعل الملائكة ينادونهم فقولوا الحمد لله الذي هدانا لهذا هذا كنا لنكون من الغافلين) وأول بشارة الآخرة عند الموت .

وقد تقدم في حديث البراء بن عازب أن الملك يقول لها عند قبضها أنت خير مني وهذا من ربحان الجنة .

واحتجوا بما رواه مالك في الموطأ عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أنه أخبره أن أباه كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إنما نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى حياة يوم يبعثه . قال أبو عمرو في رواية مالك هذه بيان سماع الزهري لهذا الحديث من عبد الرحمن بن كعب بن مالك وكذلك رواه يونس عن الزهري قال سمعت عبد الرحمن بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه ، وكذلك رواه الأوزاعي عن الزهري حدثني عبد الرحمن بن كعب وقد أعل محمد بن يحيى الذهلي هذا الحديث بأن شعيب بن أبي حمزة ومحمد بن أخي الزهري وصالح بن كيسان رَوَوْه عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن جده كعب فيكون منقطعا ، وقال صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن عبد الرحمن أنه بلغه أن كعبا بن مالك كان يحدث ، قال الذهلي وهذا المحفوظ عندنا وهو الذي يشبه حديث صالح وشعيب وابن أخي الزهري وخالفه في هذا غيره من الحفاظ فحكموا لمالك والأوزاعي ، قال أبو عمر فاتفق مالك ويونس بن يزيد والأوزاعي والخارث بن فضيل على رواية هذا الحديث عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه وصححه الترمذي وغيره .

(قال) أبو عمرو لا وجه عندي لما قاله محمد بن يحيى من ذلك ولا دليل عليه واتفاق مالك ويونس بن زيد والأوزاعي ومحمد بن إسحاق أولى بالصواب والنفس إلى قولهم وروايتهم أسكن وهم من الحفظ والاتقان بحيث لا يقاس بهم من خالفهم في هذا الحديث . انتهى . وقد قال محمد الذهلي سمعت علي بن المديني يقول ولد كعب خمسة : عبد الله ، وعبيد الله ، ومعبد ، وعبد الرحمن ، ومحمد . قال الذهلي فسمع الزهري من عبد الله بن كعب وكان قائداً أبيه حين عمي وسمع من عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب وروى عن بشير بن عبد الرحمن بن كعب ولا أراه سمع منه انتهى فالحديث إن كان لعبد الرحمن عن أبيه كعب كما قال مالك ومن معه فظاهر وإن كان لعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب عن جده كما قال شعيب ومن معه فنهايته أن يكون مرسل من هذا الطريق وهو وصولاً من الأخرى والذين وصلوه ليسوا بدون الذين أرسلوه قدر أولاً عدداً فالحديث من صحاح الأحاديث وإنما لم يخرج صحاباً الصحيح لهذه العلة . والله أعلم .

(قال) أبو عمرو أما قوله نسمة المؤمن ، فالنسمة هاهنا الروح يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث نفسه ، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه ، وقيل النسمة الروح والنفس والبدن وأصل هذه اللفظة اعني النسمة الإنسان بعينه وإنما قيل للروح نسمة والله أعلم لأن حياة الإنسان بروحه وإذا فارقه عدم أو صار كالممدوم والدليل على أن النسمة الإنسان قوله صلى الله عليه وآله وسلم من أعتق نسمة مؤمنة ، وقول علي رضي الله عنه ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، وقال الشاعر :

فأعظم منك تقى في الحساب إذا النسيمات نفضن الغبارا

يعنى إذا بعث الناس من قبورهم يوم القيامة وقال الخليل بن أحمد النفسمة الإنسان قال والنفسمة الروح والنسيم هبوب الريح ، وقوله تعالى في شجر الجنة يروى بفتح اللام وهو الأكثر ويروى بضم اللام والمعنى واحد وهو الأكل والرعى يقول تأكل من ثمار الجنة وتسرح بين أشجارها والغلوقة والعلوق الأكل والرعى تقول العرب ماذا اليوم تلوقا أى طعاما فان الربيع بن زياد يصف الخيل :

ومجنبات ما يذقن علوقه يمصعن بالمهترات والامهار

وقال الاعشى :

وفلاة كأنها ظهر ترس ليس فيها إلا الرجيع علق

قلت ومنه قول عائشة والنساء إذ ذاك خفاف لم يغشهن اللحم إنما يأكل العلقة من الطعام وأصل اللفظة من التعلق وهو ما يعلق القلب والنفس من الغذاء .

قال واختلف العلماء في معنى هذا الحديث فقال قائلون منهم أرواح المؤمنين عند الله في الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولادين وتلقاهم ربهم بالنعيم عنهم والرحمة لهم .

قال واحتجوا بأن هذا الحديث لم يخص فيه شهيداً من غير شهيد .

واحتجوا أيضاً بما روى عن أبي هريرة أن أرواح الأبرار في عليين وأرواح الفجار في سجين وعن عبد الله بن عمرو مثل ذلك ، قال أبو عمر وهذا قول يعارضه من السنة ما لا مفع في صحة نقله وهو قوله إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة .

وقال آخرون إنما معنى هذا الحديث في الشهداء دون غيرهم لأن القرآن والسنة إنما يدلان على ذلك . أما القرآن فقوله تعالى (ولا تحببن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) الآية .

وأما الآثار فذكر حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه من طريق بقر بن خالد^(١) مرفوعاً الشهداء يغدون وبروحون ثم يكون مأواهم إلى قناديل معلقة بالعرش فيقول لهم الرب تبارك وتعالى هل تعلمون كرامة أفضل من كرامة أكرمتموها؟ فيقولون لا . غير

(١) بقر بن خالد بوزن رضى حافظ الأندلس .

أنا وددنا أنك أعدت أرواحنا في أجسادنا حتى نقاتل مرة أخرى فنقتل في سبيلك . رواه عن هناد عن اسماعيل بن المختار عن عطية عنه .

(ثم ساق حديث) ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أصيب إخوانكم بمعنى يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة في ظل العرش فلما وجدوا طيب ما كذبهم ومشرهم ومقيلهم قالوا من يبلغ إخواننا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا ينكروا عن الحرب ^(١) ولا يزهّدوا في الجهاد؟ قال فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم فأنزّل الله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) والحديث في مسند أحمد وسنن أبي داود .

(ثم ذكر حديث) الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال سأل عند الله بن مسود رضى الله عنه عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فقال أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال أرواحهم في جوف طير خضر تسرح في الجنة في أيها شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع اليهم ربك لإطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً؟ قالوا وأي شيء نشتهى ونحن تسرح من الجنة حيث شئنا! ففعل بهم ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا . والحديث في صحيح مسلم .

(قلت) وفي صحيح البخارى عن أنس أن أم الربيع بنت البراء وهى أم حارثة بن سراقة أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة؟ وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب فان كان في الجنة صبرت وإن كان في غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء . قال يا أم حارثة إنها جنان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى .

(ثم ساق) من طريق بقى بن مخلد حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا ابن عيينة عن عبيد الله ابن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول أرواح الشهداء تجول في أجواف طير خضر تعلق في عمار الجنة .

(ثم ذكر) عن معمر بن قتادة قال بلغنا أن أرواح الشهداء في صور طير بيض تأكل من ثمار الجنة .

(ومن طريق) أبي عاصم النبيل عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن عبد الله بن عمرو أرواح الشهداء في طير كالزراير يتعارفون ويرزقون من ثمر الجنة .

(١) يقال : نكل عن الأمر إذا امتنع .

(قال) أبو عمر هذه الآثار كلها تدل على أنهم الشهداء دون غيرهم وفي بعضها في صور طير وفي بعضها في أجواف طير وفي بعضها كطير خضر قال والذي يشبهه عندي والله أعلم أن يكون القول قول من قال كطير أو صور طير لمطابقته لحديثنا المذكور (يريد حديث كعب ابن مالك) وقوله فيه نسمة المؤمن كطائر ولم يقل في جوف طائر .

(قال) وروى عيسى بن يونس حديث ابن مسعود عن الأعمش عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله كطير خضر .

قلت : والذي في صحيح مسلم في أجواف طير خضر .

قال أبو عمر : فعلى هذا التأويل كأنه صلى الله عليه وآله وسلم قال إنما نسمة المؤمن من الشهداء طائر يعلق في شجر الجنة .

(قلت) لا تنافي بين قوله صلى الله عليه وآله وسلم نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة وبين قوله إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار ، فمن أهل النار ، وهذا الخطاب يتناول الميت على فراشه والشهيد كما أن قوله نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة يتناول الشهيد وغيره ومع كونه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي ترد روحه أنهار الجنة وتأكل من ثمارها .

وأما المقعد الخاص به والبيت الذي أعد له فإنه إنما يدخله يوم القيامة ويبدل عليه أن منازل الشهداء ودورهم وقصورهم التي أعد الله لهم ليست هن تلك القناديل التي تأوى اليها أرواحهم في البرزخ قطعاً فهم يرون منازلهم ومقاعدهم من الجنة ويكون مستقرهم في تلك القناديل المعلقة بالعرش فان الدخول التام الكامل إنما يكون يوم القيامة ودخول الأرواح الجنة في البرزخ أمر دون ذلك .

ونظير هذا أهل الشقاء تعرض أرواحهم على النار غدواً وعشيا فإذا كان يوم القيامة دخلوا منازلهم ومقاعدهم التي كانوا يعرضون عليها في البرزخ فتتم الأرواح بالجنة في البرزخ شيء ، وتنعمها مع الأبدان يوم القيامة بها شيء آخر فغذاء الروح من الجنة في البرزخ دون هذاتها مع بدنها يوم البعث ولهذا قال تعلق في شجر الجنة أي تأكل العلقمة وتام الأكل والشرب واللبس والتمتع فإنما يكون إذا ردت إلى أجسادها يوم القيامة فظهر أنه لا يعارض هذا القول من السنن شيء ، وإنما تعاضده السنة وتوافقها .

وأما قول من قال إن حديث كعب في الشهداء دون غيرهم وتخصيص ليس في اللفظ ما يدل عليه وهو حمل اللفظ العام على أقل مسمياته فإن الشهداء بالنسبة إلى عموم المؤمنين

قليل جداً والنبي صلى الله عليه وآله وسلم علق هذا الجزاء بوصف الإيمان فهو المقتضى له ولم يعلقه بوصف الشهادة . ألا ترى أن الحكم الذي اختص بالشهداء طلق بوصف الشهادة كقوله في حديث المقدم بن معد يكرب للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفرع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار الباقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه ، فلما كان هذا يختص بالشهيد قال إن للشهيد ولم يقل إن للمؤمن وكذلك قوله في حديث قيس الجذامي يعطى الشهيد ست خصال ، وكذلك سائر الأحاديث والنصوص التي علق فيها الجزاء بالشهادة .
وأما ما علق فيه الجزاء بالإيمان فإنه يتناول كل مؤمن شهيداً كان أو غير شهيد .

وأما النصوص والآثار التي ذكر في رزق الشهداء وكون أرواحهم في الجنة فسكها حق وهي لا تدل على انتفاء دخول أرواح المؤمنين الجنة ولا سيما الصديقين الذين هم أفضل من الشهداء بلا نزاع بين الناس فيقال لهؤلاء ما تقولون في أرواح الصديقين هل هي في الجنة أم لا ؟ .

فإن قالوا أنها في الجنة ولا يسوغ لهم غير هذا القول فثبت أن هذه النصوص لا تدل على اختصاص أرواح الشهداء بذلك . وإن قالوا ليست في الجنة لزمهم من ذلك أن تكون أرواح سادات الصحابة كابي بكر الصديق وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة بن اليمان وأشباههم رضى الله عنهم ليست في الجنة وأرواح شهداء زماننا في الجنة ، وهذا معلوم البطلان ضرورة .

فإن قيل : فإن كان هذا حكم يختص بالشهداء فما الموجب لتخصيصهم بالذكر في هذه النصوص ؟ قلت التذية على فضل الشهادة وعلو درجتها وأن هذا مضمون لأهلها ولا بد وأن لهم منها أوفر نصيب ، فنصيبهم من هذا النعم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات هل فرأيتهم وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة منهم فله نعم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه .

ويدل على هذا أن الله سبحانه جعل أرواح الشهداء في أجواف طير خضر فإنهم لما بذلوا أنفسهم لله حتى أتلغها أعداؤه فيه أعاضهم منها في البرزخ أبداناً خيراً منها تكون فيها إلى يوم القيامة ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من نعيم الأرواح المجردة عنها ، ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير ونسمة الشهيد في جوف طير وتأمل لفظ الحديثين فإنه قال : نسمة المؤمن طير ، فهذا يعنى الشهيد وغيره ثم خص الشهيد بأن قال :

هـ هي في جوف طير ، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير فصلوات الله وسلامه على من يصدق كلامه بعضه بعضاً ويبدل على أنه حق من عند الله وهذا الجمع أحسن من جمع أنى عمر وترجيحه رواية من روى أرواحهم كطير خضر بل الروايتان حق وصواب فهي كطير خضر وفي أجواف طير خضر .

فصل

وأما قول مجاهد ليس هي في الجنة ولكن يأكلون من ثمارها ويجدون ريحاً فقد يحتاج لهذا القول بما رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن اسحق عن عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشهداء على بارق نهر باب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية .

وهذا لا ينافي كونهم في الجنة فإن ذلك النهر من الجنة ورزقهم يخرج عليهم من الجنة فهم في الجنة وإن لم يصيروا إلى مقاعد من منها . فجاهد نفي الدخول الكامل من كل وجه ، والتعبير يقصر عن الإحاطة بتمييز هذا من هذا وأكمل العبارة أدلها على المراد عبارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم عبارة أصحابه . وكلما نزلت رأيت الشفاء والهدى والنور وكلما نزلت رأيت الحيرة والدعاوى والقول بلا علم .

(قال) أبو عبد الله بن منده وروى موسى بن عبيدة عن عبد الله بن يزيد عن أم كدشة بنت المعرور قالت دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألنا عن هذه الأرواح ؛ فوصفها صفة أبكي أهل البيت فقال إن أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر ترعى في الجنة وتأكل من ثمارها وتشرب من مائها وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش يقولون ربنا ألحق بنا إخواننا وآتنا ما وعدتنا ، وأن أرواح الكفار في حواصل طير سود تأكل من النار وتشرب من النار وتأوى إلى جحر في النار يقولون ربنا لا تلحق بنا إخواننا ولا تؤتنا ما وعدتنا .

(وقال) الطبراني : حدثنا أبو زرعة الدمشقي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح عن حمزة بن حبيب قال سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أرواح المؤمنين ؛ فقال في طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت قالوا يا رسول الله وأرواح الكفار ؛ قال محبوسة في سجين . رواه أبو الشيخ عن هشام بن يونس عن عبد الله بن صالح (ورواه) أبو المغيرة عن أبي بكر بن أبي مرزوق عن حمزة بن حبيب .

(وذكر) أبو عبد الله بن منده من حديث غنجان عن الثوري عن ثور بن يزيد عن

خالد بن معدان عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرواح المؤمنين في طير خضر كالزرازير تأكل من ثمر الجنة (ورواه) غيره موقوفا .

وذكر يزيد الرقاشي عن أنس ، وأبو عبد الله الشامي عن تميم المداري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا عرج ملك الموت بروح المؤمن إلى السماء استقبله جبرائيل في سبعين الفا من الملائكة كل منهم يأتيه ببشارة من السماء سوى بشارة صاحبه فإذا انتهى به إلى العرش خر ساجداً فيقول الله عز وجل لملك الموت انطلق بروح عبدى فضعه في سدر مخضود وطلح منضود وظن ممدود وماء مسكوب . رواه بكر بن خنيس عن ضرار بن عمرو عن يزيد وأبي عبد الله .

فصل

وأما قول من قال الأرواح على أفنية قبورها فإن أراد أن هذا أمر لازم لها لا تفارق أفنية القبور أبداً فهذا خطأ ترده نصوص الكتاب والسنة من وجوه كثيرة قد ذكرنا بعضها ، وسنذكر منها ما لم نذكره إن شاء الله .

وإن أراد أنها تكون على أفنية القبور وقتاً ، أولها إشراف على قبورها وهي في مقرها فهذا حق ولكن لا يقال مستقرها أفنية القبور .

وقد ذهب إلى هذا المذهب جماعة منهم أبو عمر بن عبد البر ، قال في كتابه في شرح حديث ابن عمر إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالعداة والعشى وقد استبدل به من ذهب إلى أن الأرواح على أفنية القبور وهو أصح ما ذهب إليه في ذلك من طريق الآثار ، ألا ترى أن الأحاديث الدالة على ذلك ثابتة متواترة وكذلك أحاديث السلام على القبور .

(قلت) يريد الأحاديث المتواترة مثل حديث ابن عمر هذا ومثل حديث البراء بن عازب الذي تقدم وفيه ، هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة ، ومثل حديث أنس أن للعبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه أنه ليسمع قرع نعالهم وفيه أنه يرى مقعده من الجنة والنار ، وأنه يفسح للمؤمن في قبره سبعين ذراعاً ويضيق على الكافر ، ومثل حديث جابر إن هذه الأمة تبلى في قبورها فإذا دخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه أتاه ملك (الحديث) وأنه يرى مقعده من الجنة فيقول دعوني أبشر أهلي فيقال له أسكن فهذا مقعدك أبداً ، ومثل سائر أحاديث عذاب القبر ونعيمه التي تقدمت ، ومثل أحاديث السلام على أهل القبور وخطابهم ومعرفة بزيارة الأحياء لهم ، وقد تقدم ذكر ذلك كله .

وهذا القول ترده السنة الصحيحة والآثار التي لا مدفع لها وقد تقدم ذكرها وكل ما ذكره

من الأدلة فهو يتناول الأرواح التي هي في الجنة بالنص وفي الرفيق الأعلى وقد بينا ان عرض مقعد الميت عليه من الجنة والنار لا يدل على أن الروح في القبر ولا على فئانه دائماً من جميع الوجوه بل لها اشراف واتصال بالقبر وفئانه وذلك المقدر منها يعرض عليه مقعده فإن للروح شأن آخر تكون في الرفيق الأعلى في أعلى عليين ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهي في الملائكة الأعلى وإنما يغلط أكثر الناس في هذا الموضوع حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يعهد من الاجسام التي إذا شغلت مكانا لم يمكن أن تكون في غيره وهذا غلط محض بل الروح تكون فوق السموات في أعلى عليين وترد إلى القبر فتد السلام وتعلم بالمسلم وهي في مكانها هناك وروح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الرفيق الأعلى دائماً ويردها الله سبحانه إلى القبر فتد السلام على من سلم عليه وتسمع كلامه وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موسى قائماً يصلي في قبره ورآه في السماء السادسة والسابعة فيما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلبح البصر وإما أن يكون المتصل منها بالقبر وفئانه بمنزلة شعاع الشمس وجرمها في السماء وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق وتسجد لله بين يدي العرش ثم ترد إلى جسده في أيسر زمان ، وكذلك روح الميت تصعد بها الملائكة حتى تجاوز السموات السبع وتقف بين يدي الله فتسجد له ويقضى فيها قضاء ويرى الملك ما أعد الله لها في الجنة ثم تهبط فتشهد غسله وحمله ودفنه ، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب أن النفس يصعد بها حتى توقوف بين يدي الله فيقول تعالى اكتبوا كتاب عبدي في عليين ثم اعيدوه إلى الأرض فيعاد إلى القبر وذلك في مقدار تجهيزه وتكفينه فقد صرح به في حديث ابن عباس حيث قال فيه بطون على قدر فراغه من غسله وأكفانه فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه .

(وقد ذكر) أبو عبد الله بن منده من حديث عيسى بن عبد الرحمن حدثنا ابن شهاب حدثنا عامر بن سعد عن اسماعيل بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه قال أردت مالي بالعبادة فأدركني الليل فأويت إلى قبر عبد الله بن عمر بن حرام فسأمت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له فقال ذلك ، والله ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها في قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم فلا يزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانهم الذي كانت به .

ففي هذا الحديث بيان سرعة انتقال أرواحهم من العرش إلى الثرى ثم انتقالها من الثرى إلى مكانها ، ولهذا قال مالك وغيره من الأئمة أن الروح مرسله تذهب حيث شاءت ، وما

يراه الناس من أرواح الموتى ومجئهم إليهم من المكان البعيد أمر يعلنه عامة الناس ولا يشكون فيه . والله أعلم .

وأما السلام على أهل القبور وخطابهم فلا يدل على أن أرواحهم ليست في الجنة وأنها على أافية القبور فهذا سيد ولد آدم الذي روحه في أعلى عليين مع الرفيق الأعلى صلى الله عليه وآله وسلم يسلم عليه عند قبره ويرد سلام المسلم عليه وقد وافق أبو عمر رحمه الله على أن أرواح الشهداء في الجنة ويسلم عليهم عند قبورهم كما يسلم على غيرهم كما علنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن نسلم عليهم وكما كان الصحابة يسلمون على شهداء أحد وقد ثبت أن أرواحهم في الجنة تسرح حيث شاءت كما تقدم ولا يضيق عقلك عن كون الروح في الملا الأعلى تسرح في الجنة حيث شاءت وتسمع سلام المسلم عليها عند قبرها وتدنو حتى ترد عليه السلام وللروح شأن آخر غير شأن البدن ، وهذا جبريل صلوات الله وسلامه عليه رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وله ستائة جناح منها جناحان قد سد بها ما بين المشرق والمغرب وكان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يضع ركبتيه بين ركبتيه ويديه على فخذه وما أظنك يتسع بظنك أنه كان حينئذ في الملا الأعلى فوق السموات حيث هو مستقره وقد دنا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا الدنو فإن التصديق بهذا له قلوب خلقت له وأهلت لمعرفة ومن لم يتسع بطاقته لهذا فهو أضيق أن يتسع للإيمان بالنزول الإلهي إلى سماء الدنيا كل ليلة وهو فوق سماواته على عرشه لا يكون فوقه شيء البتة بل هو العالی على كل شيء وعلوه من لوازم ذاته . وكذلك دنوه عشية عرفة من أهل الموقف وكذلك مجيئه يوم القيامة لمحاسبة خلقه وإشراق الأرض بنوره وكذلك مجيئه إلى الأرض حين دحاها وسواها ومدّها وبسطها وهبأها لما يراد منها . وكذلك مجيئه يوم القيامة حين يقبض من عليها ولا يبقى بها أحد كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأصبح ربك يطوف في الأرض وقد خلت عليه البلاة . هذا وهو فوق سماواته على عرشه .

فصل

ومما ينبغي أن يعلم أن ما ذكرنا من شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القوة والضعف والكبر والصغر فللروح العظيمة الكبيرة من ذلك ما ليس لمن هو دونها ، وأنت ترى أحكام الأرواح في الدنيا كيف تتفاوت أعظم تفاوت بحسب تفارق الأرواح في كفياتها وقواها وإبطائها وإسراعها والمعاونة لها فللروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه من التعريف والقوة والنفوذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله والتعلق بالله ما ليس للروح المهينة المحبوسة في علائق البدن وعوائقه فاذا كان هذا وهي محبوسة في بدنها فكيف إذا تجردت

وفارقت واجتمعت فيها قواها وكانت في أصل شأنها روحاً عالية زكية كبيرة ذات همة عالية فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر .

وقد تواترت الروايات في أوصاف بني آدم على فعل الأرواح بعد موتها ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل ونحو ذلك وكما قد رثى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر وعمر في النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وعددهم وضعف المؤمنين وقتلهم .

ومن العجب أن أرواح المؤمنين المتحابين المتعارفين تتلاقى وبينها أعظم مسافة وأبعد ما فتتألم وتتعارف فيعرف بعضها بعضاً كأنه جليسه وعشيرته فإذا رآه طابق ذلك ما كان عرفته روحه قبل رؤيته .

(قال) عبد الله بن عمرو أن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط . ورفع بعضهم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

(وقال) عكرمة ومجاهد إذا نام الإنسان فان له سبياً يجرى فيه الروح وأصله في الجسد فتبلغ حيث شاء الله مادام ذاهباً فالإنسان نائم فإذا رجع إلى البدن انتبه الإنسان وكان بمنزلة شعاع الشمس الذي هو ساقط بالأرض فأصله متصل بالشمس . وقد ذكر أبو عبد الله بن منده عن بعض أهل العلم أنه قال إن الروح تمتد من منخر الإنسان ومركبه وأصله في بدنه فلو خرج الروح بالكلية لمات كما أن المراج لو فرق بينه وبين الفتيلة ألا ترى أن مركب النار في الفتيلة وضروها وشعاعها يملأ البيت فكذلك الروح تمتد من منخر الإنسان في منامه حتى تأتي السماء وتجول في البلدان وتلتقي مع أرواح الموتى فإذا أراه الملك الموكل بالأرواح العباد ما أحب أن يريه وكان المرئ^(١) في اليقظة عاقلاً ذكياً صدوقاً لا يانفتق في يقظته إن شيء من الباطل رجع إليه روحه فأدى إلى قلبه الصدق بما أراه الله عز وجل على حسب خلقه ، وإن كان خفيفاً نزقاً يحب الباطل والنظر إليه فإذا نام وأراه الله أمراً من خير أو شر رجعت روحه إليه فحيث ما رأى شيئاً من مخاريق الشيطان أو الباطل وقفت روحه عليه كما تقف في يقظته فكذلك لا يؤدي إلى قلبه فلا يعقل ما رأى لأنه خلط الحق بالباطل فلا يمكن معبر أن يعبر له وقد خلط الحق بالباطل .

(١) اسم مفعول من أراه - أن الشخص الذي أراه الملك ما أحب أن يريه .

وهذا من أحسن الكلام وهو دليل على معرفة قائله وبصيرته بالارواح وأحكامها .
وأنت ترى الرجل يسمع العلم والحكمة وما هو أنفع شيء له ثم يمر باطل وهو من غناه
أو شبهة أو زور أو غيره فيصغى إليه ويفتح له قلبه حتى يتأدى إليه فيتخط عليه ذلك الذي
سمعه من العلم والحكمة ويلتبس عليه الحق بالباطل فكذا شأن الارواح عند النوم ، وأما بعد
المفارقة فإنها تعذب بتلك الاعتقادات والشبه الباطلة التي كانت حظها حال اتصالها بالبدن ،
وينضاف إلى ذلك عذابها بتلك الارادات والشهوات التي حبل بينها وبينها وينضاف إلى ذلك
عذاب آخر يفرضه الله لها ولبدنها من الاعمال التي اشتركت معها فيها وهذه هي المعيشة الضنك
في البرزخ والزيد الذي تزود به إليه .

الروح الزكية العلوية المحقة التي لا تحب الباطل ولا تألفه بضد ذلك كله تتم بتلك
الاعتقادات الصحيحة والعلوم والمعارف التي تلقها من مشكاة النبوة وتلك الارادات والهمم
الزكية وينشئ الله سبحانه لها من أعمالها نعيما ينعسها به في البرزخ فتصيرها روضة من رياض
الجنة والآن حفرة من حفرة النار .

فصل

أما قول من قال ارواح المؤمنين عند الله تعالى ولم يزد على ذلك فإنه تأدب مع لفظ
القرآن حيث يقول الله عز وجل (إن أحياء عند ربهم يرزقون) .

وقد احتج أرباب هذا القول بحجج (منها) ما رواه محمد بن اسحاق الصفاني حدثنا يحيى بن
بكر حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار
عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الميت إذا خرجت نفسه يعرج بها
إلى السماء حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل ، وإذا كان الرجل سوء يعرج بها
إلى السماء فإنه لا يفتح لها أبواب السماء وترسل من السماء فتصير إلى القبر .

وهذا إسناد لا تسأل عن صحته وهو في مسند أحمد وغيره .

وقال أبو داود الطيالسي حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن موسى
الاشعري قال تخرج روح المؤمن أطيب من ريح المسك فتطلق بها الملائكة مزدون السماء
فيقولون ما هذا ؟ فيقولون هذا فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت — لحسن عمله —
فيقولون مرحبا بكم وبه فيقبضونها منهم فيصعد بها من الباب الذي كان يصعد منه عمله فتشرق
في السموات ولها برهان كبرهان الشمس حتى ينتهي إلى العرش ، وأما الكافر فإذا قبض
انطلق بروحه فيقولون ما هذا ؟ فيقولون هذا فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت
— لمساوى عمله — فيقولون لا مرحبا لامرجه فيرد إلى أسفل الأرض إلى الثرى .

وقال الملكى بن إبراهيم عن داود بن يزيد الأودى قال أراه عن عامر الشعبي عن حذيفة ابن اليمان أنه قال الأرواح موقوفة عند الرحمن عز وجل تلتظر موعده حتى ينفخ فيها .

(وذكر) سفيان بن عيينة عن منصور بن صفية عن أمه أنه دخل ابن عمر المسجد بعد قتل ابن الزبير وهو مصلوب فأتى أسماء يعزبها فقال لها عليك بتقوى الله والصبر فان هذه الجثث ليست بشيء وإنما الأرواح عند الله فقالت وما يمنعنى من الصبر وقد أهدى رأس يحيى ابن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل .

(وذكر) جرير عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال كنا جلوساً إلى كعب والربيع بن خيثم وخالد بن عرعة في أناس فجاء ابن عباس فقال هذا ابن عم نبيكم قال فأوسع له مجلس فقال يا كعب كل ماى القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء فأخبرنى عنهن ما سبحن وما عليون وما سدرة المنتهى وما قول الله لإدريس (ورفعهناه مكاناً علياً) ؟ قال أما عليون فالسماة السابعة فيها أرواح المؤمنين ، وأما سبحن فالارض السابعة السفلى وأرواح الكفار تحت جسد إبليس ؛ وأما قول الله سبحانه لإدريس (ورفعهناه مكاناً علياً) فأوحى الله إليه أنى رافع لك كل يوم مثل أعمال بنى آدم زكلم صديقاً له من الملائكة أن يكلمه له مدت الموت فيؤخره حتى يزداد عملاً فحمله بن جناحيه فخرج به حتى إذا كان فى السماء الرابعة لقيه ملك الموت فكلمه فى حاجته فقال وأين هو قال هو ذا بين جناحن قال فاعجب أنى أمرت أن أقبض روحه فى السماء الرابعة فقبض روحه وأما سدرة المنتهى فإنها سدرة على رؤوس سدة العرش ينتهى إليها علم الخلائق ثم ليس لأحد وراها علم فلذلك سميت سدرة المنتهى .

(قال) ابن منده ورواه وهب بن جرير عن أبيه ورواه يعقوب القمى عن شمر ، ورواه خالد بن عبد الله عن العوام بن حوشب عن القاسم بن عوف عن الربيع بن خيثم قال كنا جلوساً عند كعب . فذكره .

وذكر يعلى بن عبيد عن الأجلح عن الضحاك قال إذا قبض روح العبد المؤمن عرج به إلى السماء الدنيا فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة حتى ينتهى به إلى سدرة المنتهى . قلت للضحاك لم سميت سدرة المنتهى إليها كل شيء من أمر الله عز وجل لا يعدهوها فيقول ربى ! عندك فلان ، وهو أعلم به منهم فيبعث الله إليه بصك محتوم يؤمنه من العذاب وذلك قوله تعالى (كلا إن كتاب الأبرار لى علىين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون) وهذا القول لا ينافى قول من قال

هم في الجنة فإن الجنة عند سدره المنتهى والجنة عند الله وكان قائله رأى أن هذه العبارة أسلم وأوفق وقد أخبر الله سبحانه أن أرواح الشهداء عنده وأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها تسرح في الجنة حيث شاءت .

فصل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين بالجابية ، وأرواح الكفار بحضرموت يبرهوت فقال أبو محمد بن حزم هذا من قول الرافضة ، وليس كما قال بل قد قاله جماعة من أهل السنة .

(قال) أبو عبد الله بن منده وروى عن جماعة من الصحابة والتابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية ثم قال أخبرنا محمد بن محمد بن يونس حدثنا أحمد بن عاصم حدثنا أبو داود سليمان ابن داود حدثنا همام حدثني قتادة حدثني رجل عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو أنه قال إن أرواح المؤمنين تجتمع بالجابية وإن أرواح الكفار تجتمع في سبخة بحضرموت يقال لها يبرهوت .

ثم ساق من طريق حماد بن سلمة عن عبد الجليل بن عطية عن شهر بن حوشب أن كعباً رأى عبد الله بن عمرو وقد تكلم الناس عليه يسألونه فقال لرجل سله أين أرواح المؤمنين وأرواح الكفار ؟ فسأله فقال : أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار يبرهوت .

(قال) ابن منده ورواه أبو داود وغيره عن عبد الجليل ، ثم ساق من حديث سفيان عن فرات القزاز عن أبي الطفيل عن علي قال خير بئر في الأرض زمزم وشر بئر في الأرض يبرهوت في حضرموت . وخير واد في الأرض وادي مكة والوادي الذي أهبط فيه آدم بالهند منه طبيكم ، وشر واد في الأرض الاحقاف وهو في حضرموت ترده أرواح الكفار .

(قال) ابن منده وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن علي أبيض بقعة في الأرض واد بحضرموت يقال له يبرهوت فيه أرواح الكفار وفيه بئر ماؤها بالنهار أسود كأنه قبح تأوى إليه الهوام .

ثم ساق من طريق إسماعيل بن إسحاق القاضي حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان حدثنا إبان بن تغلب قال قال رجل بت فيه . يعني وادي يبرهوت . فسكأتما حشرت فيه أصوات الناس وهم يقولون يادومة يادومة ! قال إبان فحدثنا رجل من أهل الكتاب أن دومة هو الملك الذي حل أرواح الكفار .

(وقال) سفيان وسألنا الحضرميين فقالوا لا يستطيع أحد أن يبیت فيه باللیل .
فهذا جملة ما علمته في هذا القول فإن أراد عبدالله بن عمرو بالجافية التمثيل والتشبيه وأنها
تجمع في مكان فسيح يشبه الجافية لسعته وطيب هوائه فهذا قريب وإن أراد نفس الجافية
دون سائر الأرض فهذا لا يعلم إلا بالتوقيت ولعله مما تلقاه عن بعض أهل الكتاب .

فصل

وأما قول من قال إنها تجتمع في الأرض التي قال الله فيها : (واقد كتبنا في الزبور من بعد
الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) فهذا إن كان قاله تفسير الآية فليس هو تفسيراً لها .
وقد اختلف الناس في الأرض المذكورة هنا فقال سعيد بن جبیر عن ابن عباس هي أرض
الجنة وهذا قول أكثر المفسرين . وعن ابن عباس قول آخر أنها الدنيا التي فتحتها الله على
أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا القول هو الصحيح ونظيره قوله تعالى في سورة النور
(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من
قبلهم) وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال زويت لي الأرض مشارقتها
ومغاربتها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها .

وقالت طائفة من المفسرين المراد بذلك أرض بيت المقدس .

وهي من الأرض التي أورثها الله عباده الصالحين وليست الآية مختصة بها .

فصل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة وأرواح الكفار في سجين
في الأرض السابعة فهذا قول قد قاله جماعة من السلف والخلف وبدل عليه قول النبي صلى الله
عليه وآله وسلم اللهم الرفيق الأعلى . وقد تقدم حديث أبي هريرة أن الميت إذا خرجت روحه
عرج بها إلى السماء حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة التي فيها الله عز وجل ، وتقدم قول أبي موسى
أنها تصعد حتى تنتهي إلى العرش وقول حذيفة أنها موقوفة عند الرحمن ، وقول عبدالله بن عمر
إن هذه الأرواح عند الله ، وتقدم قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن أرواح الشهداء
تأوى إلى قناديل تحت العرش ، وتقدم حديث البراء بن عازب أنها تصعد من السماء إلى السماء ويشيعها
من كل سماء مقربوها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، وفي لفظ إلى السماء التي فيها الله عز وجل .

ولكن هذا لا يدل على استقرارها هناك بل يصعد بها إلى هناك للمرض على ربها فيقضى
فيها أمره ويكتب كتابه من أهل عليين أو من أهل سجين ثم تعود إلى القبر للمسألة ثم ترجع
إلى مقرها التي أودعت فيه فأرواح المؤمنين في عليين بحسب منازلهم وأرواح الكفار في سجين
بحسب منازلهم .

فصل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين تجتمع بين زمزم فلا دليل على هذا القول من كتاب ولا سنة بحسب التسليم لها ولا قول صاحب بوثق به وليس بصحيح فإن تلك البئر لا تسع أرواح المؤمنين جميعهم وهو مخالف لما ثبتت به السنة الصريحة من أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة .

وأما قول من أبتل الأقوال وأفسدها وهو أفسد من قول من قال أنها بالجابية فإن ذلك مكان واسع ونظام بخلاف البئر الضيقة .

فصل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت فهذا مروى عن سيدنا العارفين والبرزخ هو الحاجز بين شيتين وكان سليمان أراد بها في أرض بين الدنيا والآخرة مسيرة هناك تذهب حيث شاءت وهذا قول قوى فإنها قد فارقت الدنيا ولم تلج الآخرة بل هي في برزخ بينهما ذر أرواح المؤمنين في برزخ واسع فيه الروح والريحان والنعيم وأرواح الكفار في برزخ ضيق فيه العذاب والعذاب قال تعالى : (ومن وراءهم برزخ إلى يوم يعثرون) فالبرزخ هنا ما بين الدنيا والآخرة وأصله الحاجز بين الشيتين .

فصل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن يساره فاعلموا الله لقد قال قولا يؤيده الحديث الصحيح وهو حديث الاسراء فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى كذا . ولكن لا يدل ذلك على تعادلهما في اليمين والشمال بل يكون هؤلاء عن يمينه في العلو والسعة وهؤلاء عن يساره في السفلى والسجن .

وقد قال أبو محمد بن حزم ان ذلك البرزخ الذي رآه فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسرى به عند سما الدنيا قال وذلك عند منقطع العناصر . قال وهذا يدل على أنها عنده تحت السماء حيث تنقطع العناصر وهي الماء والتراب والنار والهواء .

وهو دائماً يشنع على من قال قولا لا دليل عليه فأى دليل له على هذا القول من كتاب وسنة ؟ وسيأتى اشباع الكلام على قوله إذا اتهمنا إليه إن شاء الله تعالى .

فإن قيل فاذا كانت أرواح أهل السعادة عن يمين آدم وآدم في السماء الدنيا وقد ثبت أن

أرواح الشهداء في ظل العرش والعرش فوق السماء السابعة فكيف تكون عن يمينه وكيف يراها النبي صلى الله عليه وآله وسلم هناك في السماء الدنيا؟ فالجواب من وجوه .

(أحدها) أنه لا يمتنع كونها عن يمينه في جهة العلو كما كانت أرواح الأشقياء عن يساره في جهة السفلى .

(الثاني) أنه غير ممتنع أن تعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سماء الدنيا وإن كان مستقرها فوق ذلك .

(الثالث) أنه لم يخبر أنه رأى أرواح السعداء جميعاً هناك بل قال فاذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ومعلوم قطعاً أن روح إبراهيم وموسى فوق ذلك في السماء السادسة والسابعة وكذلك الرفيق الأعلى أرواحهم فوق ذلك وأرواح السعداء بعضها أعلى من بعض بحسب منازلهم كما أن أرواح الأشقياء بعضها أسفل من بعض بحسب منازلهم . والله أعلم .

فصل

وأما قول أبي محمد بن حزم أن مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها فهذا بناء منه على مذهبه الذي اختاره وهو أن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد وهذا فيه قولان للناس ، وحينئذ يفتى على أن الأرواح خلقت بعد الأجساد والذين قالوا أنها خلقت قبل الأجساد ليس معهم عن ذلك دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع إلا ما فهموه من نصوص لا تدل على ذلك أو أحاديث لا تصح كما احتج به أبو محمد بن حزم من قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) الآية ويقوله تعالى (واقصد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) قال فصح أن الله خلق الأرواح جملة وهي الأنفس ، وكذلك أخبر عليه السلام أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، قال وأخذ عز وجل عهداً وشهادتها وهي مخلوقة بصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم وقبل أن يدخلها في الأجساد والأجساد يومئذ تراب . وقال لأن الله تعالى خلق ذلك بلفظة ثم التي توجب التعقيب والمهلة ثم أقرها سبحانه وتعالى حيث شاء وهو البرزخ الذي ترجع إليه عند الموت .

وسندكر ما في هذا الاستدلال عند جواب سؤال السائل عن الأرواح هي مخلوقة مع الأبدان أم قبلها؟ إذ الغرض هنا الكلام على مستقر الأرواح بعد الموت ، وقوله أنها تستقر في البرزخ الذي كانت فيه قبل خلق الأجساد مبنى على هذا الاعتقاد الذي اعتقده ،

يقوله أن أرواح السعداء عن يمين آدم وأرواح الكفار الأشقياء عن يساره حق كما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقوله إن ذلك عند منقطع العناصر لادليل عليه من كتاب ولاسنة ولايشبه أقوال أهل الإسلام والاحاديث الصحيحة تدل على أن الأرواح فوق العناصر في الجنة عند الله وأدلة القرآن تدل على ذلك وقد وافق أبو محمد على أن أرواح الشهداء في الجنة ومعلوم أن الصديقين أفضل منهم فكيف تكون روح أبي بكر الصديق وعبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة بن اليمان وأشباهم رضى الله عنهم عند منقطع العناصر وذلك تحت هذا الملك الأدنى وتحت السماء الدنيا وتكون أرواح شهداء زماننا وغيرهم فوق العناصر وفوق السموات .

وأما قوله قد ذكر محمد بن نصر المروزي عن إسحاق بن راهويه أنه ذكر هذا الذي قلنا بعينه قال وعلى هذا جميع أهل العلم وهو قول جميع أهل الإسلام .

قلت محمد بن نصر المروزي ذكر في كتاب الرد على ابن قتيبة في تفسير قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم) الآثار التي ذكرها السلف من استخراج ذرية آدم من صلبه ثم أخذ الميثاق عليهم وردد في صلبه وأنه أخرجهم مثل الذر وأنه سبحانه قسمهم إذ ذاك إلى شقي وسعيد وكتب آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وما يصيبهم من خير وشر ثم قال : قال إسحاق أجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد استنطقهم (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل) هذا نص كلامه وهو كما ترى لا يدل على أن مستقر الأرواح ما ذكر أبو محمد حيث تنقطع العناصر بوجه من الوجوه بل ولا يدل على أن الأرواح كائنة قبل خلق الأجساد بل إنما يدل على أنه سبحانه أخرجها حيث نطقها ثم ردها إلى صلب آدم وهذا القول وإن كان قد قاله جماعة من السلف والخلف فالقول الصحيح غيره كما ستقف عليه إن شاء الله إذ ليس الغرض في جواب هذه المسألة الكلام في الأرواح هل هي مخلوقة قبل الأجساد أم لا حتى لو سلم لأبي محمد هذا كله لم يكن فيه دليل على أن مستقرها حيث تنقطع العناصر ولا أن ذلك الموضع كان مستقرها أولا .

فصل

وأما قول من قال مستقرها الدم المحض فهذا قول من قال إنها عرض من أعراض البدن وهو الحياة وهذا قول ابن الباقلاني ومن تبعه . وكذلك قال أبو الهذيل العلاف للنفس عرض من الأعراض ولم يعينه بأنه الحياة كما عينه ابن الباقلاني ثم قال هي عرض كمائر أعراض الجسم .

وهؤلاء عندهم أن الجسم إذا مات عدمت روحه كما تقدم وسائر أعراضه المشروطة بالحياة ومن يقول منهم أن العرض لا يبقى زمانين كما يقوله أكثر الأشعرية فمن قولهم إن روح الإنسان الآن هي غير روحه قبل وهو لا ينفك يحدث له روح ثم تغير ثم روح ثم تغير هكذا ابدا فيبدل له ألف روح فأكثر في مقدار ساعة من الزمان فما دونها فإذا مات فلا روح تصعد إلى السماء وتعود إلى القبر وتقبضها الملائكة ويستفتحون لها أبواب السموات ولا تنعم ولا تعذب وإنما ينعم ويعذب الجسد إذا شاء الله تعميمه أو تعذيبه رد إليه الحياة في وقت يريد نعيمه أو عذابه وإلا فلا أرواح هناك قائمة بنفسها البتة .

وقال بعض أرباب هذا القول ترد الحياة إلى عجب الذنب فهو الذي يعذب وينعم وحسب .

وهذا قول يرده الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقول واللفظ والفطرة وهو قول من لم يعرف روحه فضلا عن روح غيره وقد خاطب الله سبحانه النفس بالرجوع والاندخول والخروج ودلت النصوص الصحيحة للصريحة على أنها تصعد وتنزل وتقبض وتمسك وترسل وتستفتح لها أبواب السماء وتسجد وتتكلم وأنها تخرج تسيل كما تسيل القطرة وتكفن وتحنط في أكفان الجنة والنار وأن ملك الموت يأخذها بيده ثم تناولها الملائكة من يده ويشم لها كأطيب نفحة مسك أو أنتن جيفة وتشيع من سماء إلى سماء ثم تعاد إلى الأرض مع الملائكة وأنها إذا خرجت تبعها البصر بحيث يراها وهي خارجة ، ودل القرآن على أنها تنتقل من مكان إلى مكان حتى تبلغ الحلقوم في حركتها ، وجميع ما ذكرنا من جمع الأدلة الدالة على تلاقى الأرواح وتعارفها وأنها اجناد مجتدة إلى غير ذلك تبطل هذا القول ، وقد شاهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأرواح ليلة الإسراء عن يمين آدم وشماله وأخبر النبي صلى الله عليه وآله وآله وسلم أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة ، وأن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ، وأخبر تعالى عن أرواح آل فرعون أنها تعرض على النار غدوا وعشيا .

ولما أورد ذلك على ابن الباقلاني ليج في الجواب وقال يخرج على هذا أحد وجهين إما بأن يوضع عرض من الحياة في أول جزء من أجزاء الجسم وإما أن يخلق لتلك الحياة والنعم والعذاب جسد آخر .

وهذا قول في غاية الفساد من وجوه كثيرة ، أي قول أفسد من قول من يجعل روح الإنسان عرضا من الأعراض يتبدل كل ساعة الوفا من المرات فإذا فارقه هذا العرض لم يكن بعد المفارقة روح تنعم ولا تعذب ولا تصعد ولا تنزل ولا تمسك ولا ترسل فهذا قول

مخالف للعقل ونصوص الكتاب والسنة والفطرة وهو قول من لم يعرف نفسه وسيأتي ذكر الوجوه الدالة على بطلان هذا القول في موضعه من هذا الجواب إن شاء الله . وهو قول لم يقل به أحد من سلف الأمة ولا من الصحابة والتابعين ولا أئمة الإسلام .

فصل

وأما قول من قال إن مستقرها بعد الموت أبدان آخر غير هذه الأبدان فهذا القول فيه حق وباطل .

فأما الحق فما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم عن أرواح الشهداء أنها في حواصل طير خضر تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش هي لها كالأوكار للطائر ، وقد صرح بذلك في قوله : جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر .

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة يحتمل أن يكون هذا الطائر مركباً للروح كالبدن لها ويكون ذلك لبعض المؤمنين والشهداء ، ويحتمل أن يكون الروح في صورة طائر وهذا اختيار أبي محمد بن حزم وأبي عمر بن عبد البر ، وقد تقدم كلام أبي عمر والكلام عليه ، وأما ابن حزم فإنه قال معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم نسمة المؤمن طائر يعلق ، هو على ظاهره لا على ظن أهل الجهل وإنما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم أن نسمة المؤمن طائر يعلق بمعنى أنها تطير في الجنة لا أنها تمسخ في صورة الطير . قال فإن قيل إن النسمة مؤنثة . قلنا قد صح عن عربي فصيح أنه قال أتتك كنان فاستخففت بها فقيل له أتوتك الكتاب ؟ قال أوليس صحيفة وكذلك النسمة تذكر كذلك ، قال وأما الزيادة التي فيها أنها في حواصل طير خضر فإنها صفة تلك القناديل التي تأوى إليها والحديثان معاً حديث واحد . وهذا الذي قاله في غاية الفساد لفظاً ومعنى فإن حديث نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة غير حديث أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ، والذي ذكره محتمل في الحديث الأول وأما الحديث الثاني فلا يحتمله بوجه فإنه صلى الله عليه وآله وسلم أخبر أن أرواحهم في حواصل طير ، وفي لفظ في أجواف طير خضر ، وفي لفظ بيض ، وإن تلك الطير تروح في الجنة فتأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش هي لها كالأوكار للطائر ، وقوله أن حواصل تلك الطير هي صفة القناديل التي تأوى إليها خطأ قطعاً بل تلك القناديل مأوى لتلك الطير فهانئ ثلاثة أمور صرح بها الحديث ، أرواح ، وطير هي في أجوافها ، وقناديل هي مأوى لتلك الطير . والقناديل مستقرة تحت العرش لا تروح والطير تروح وتذهب وتجيء والأرواح في أجوافها .

فإن قيل يحتمل أن تجعل نفسها في صورة طير لأنها تتركب في بدن طير كما قال تعالى (في أي صورة ما شاء ركبك) ويدل عليه قوله في اللفظ الآخر أرواحهم كطير خضر كذلك رواه ابن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبيد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله .

قال أبو عمر والذي يشبه عندي والله أعلم أن يكون القول قول من قال كطير أو صورة طير لمطابقتها لحديثنا المذكور . يعني حديث كعب بن مالك في نسمة المؤمن .

فالجواب أن هذا الحديث قد روى بهذين اللفظين والذي رواه مسلم في الصحيح من حديث الأعمش عن مسروق (١) فلم يختلف حديثها أنها في أجواف طير خضر .

(وأما حديث ابن عباس) فقال عثمان بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن ادريس عن محمد بن اسحاق عن اسماعيل بن أمية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أصيب اخوانكم يعني يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة في ظل العرش فلما وجدوا طيب ما كلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ اخواننا عنا انا أحياء في الجنة نرزق لتلاينكلوا عن الحرب ولا يزهدهوا في الجهاد؟ فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) .

(وأما حديث كعب بن مالك) فهو في السنن الأربعة ومسنده أحمد ولفظه للترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة . قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ولا يجوز في هذا ولا يبطل قاعدة من قواعد الشرع ولا يخالف نصاً من كتاب ولا سنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل هذا من تمام إكرام الله للشهداء أن أعاضهم من أبدانهم التي مزقها الله أبداناً خيراً أمنها تكون مركباً لأرواحهم ليحصل بها كمال نعمتهم فإذا كان يوم القيامة رد أرواحهم إلى تلك الأبدان التي كانت فيها في الدنيا .

(١) تأمل ، والذي في صحيح مسلم عن يحيى بن يحيى وأبي بكر بن أبي شيبة عن أبي معاوية وعن ابن نمير عن أسباط وأبي معاوية . وعن اسحاق عن جرير وعيسى بن يونس ، كهم عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق ولفظه في جوف طير خضر ، لكن قال مسلم بعد ذكر ابن نمير ، واللفظ له .

فان قيل فهذا هو القول بالتناسخ وحلول الارواح في ابدان غير ابدانها التي كانت فيها .

قيل هذا المعنى الذي دلت عليه السنة الصريحة حق يجب اعتقاده ولا يبطله تسمية التسمية له تناسخاً كما ان اثبات ما دل عليه العقل والنقل من صفات الله عز وجل وحقائق أسمائه الحسنى حق لا يبطله تسمية المعطلين لها تركيباً وتجبساً وكذلك ما دل عليه العقل والنقل من اثبات أفعاله وكلامه بمشيئته ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ومجيئه يوم القيامة للفصل بين عباده حق لا يبطله تسمية المعطلين له حلول حوادث كما أن ما دل عليه العقل والنقل من علو الله على خلقه ومباينته لهم واستوائه على عرشه وعروج الملائكة والروح اليه ونزولها من عنده وصعود الكلم الطيب إليه وعروج رسوله اليه ودنوه منه حتى صار قاب قوسين أو أدنى وغير ذلك من الأدلة حق لا يبطله تسمية الجهمية له حيزاً ووجهة وتجبساً .

قال الإمام أحمد ، لانزيل عن الله صفة من صفاته لاجل شناعة المشنعين ، فان هذا شأن أهل الدرع يلقون أهل السنة وأقوالها بالألقاب التي ينفرون منها الجمال ويسموننا حشواً وتركيباً وتجبساً ويسمون عرش الرب تبارك وتعالى حيزاً ووجهة ليتوصلوا بذلك إلى نفي علوه على خلقه واستوائه على عرشه كما تسمى الراضنة موالاة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم ومحبتهم والدعاء لهم نصاً وكما تسمى القدرية المجوسية اثبات القدر جبراً فليس الشأن في الألقاب وإنما الشأن في الحقائق والمقصود أن (تسمية⁽¹⁾) ما دلت عليه الصريحة من جعل أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تناسخاً لا يبطل هذا المعنى ، وإنما التناسخ الباطل ما نقوله أعداء الرسل من الملاحدة وغيرهم الذين ينكرون المعاد أن الأرواح تصير بعد مفارقة الأبدان إلى أجناس الحيوان والحشرات والطيور التي تناسبها وتساكلها فاذا فارقت هذه الأبدان انتقلت إلى أبدان تلك الحيوانات فتتعلم فيها أو تعذب ثم تفارقها وتحل في أبدان آخر تناسب أعمالها وأخلاقها وهكذا أبدأ فهذا معادها عندهم ونعيمها وعذابها لامعاد لها عندهم غير ذلك فهذا هو التناسخ الباطل المخالف لما اتفقت عليه الرسل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم وهو كفر بالله واليوم الآخر وهذه الطائفة يقولون أن مستقر الأرواح بعد المفارقة أبدان الحيوانات التي تناسبها . وهو أبطل قول وأخبره ، ويليه قول من قال إن الأرواح تعلم جملة بالموت ولا تبقى هناك روح تعلم ولا تعذب بل النعيم والعذاب يقع على أجزاء الجسد أو جزء منه أما عجب أو غيره فيخلق الله فيه الألم واللذة أما بواسطة رد الحياة

(1) زدنا هذه الكلمة إذ لا بد منها .

إليه كما قاله بعض أرباب هذا القول أوبدون رد الحياة كما قاله آخرون منهم ، فهؤلاء عندهم لا عذاب في البرزخ إلا على الأجساد ، ومقابلهم من يقول أن الروح لا تعود إلى الجسد بوجه ولا تتصل به والعذاب والنعم على الروح فقط ، والسنة الصريحة المتواترة ترد قول هؤلاء وهؤلاء وتبين أن العذاب على الروح والجسد مجتمعين ومنفردين .

فإن قيل فقد ذكرتم أقوال الناس في مستقر الأرواح وما أخذهم فما هو الراجح من هذه الأقوال حتى نعتقه ؟

قيل الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت (فإنها) أرواح في أعلى عليين في الملا الأعلى وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء .

(ومنها) أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء لا جميعهم بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله مالي إن قتلت في سبيل الله ؟ قال الجنة فلما ولي قال إلا الذي سارني به جبريل آنفاً .

(ومنها) من يكون محبوساً على باب الجنة كما في الحديث الآخر رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة .

(ومنها) من يكون محبوساً في قبره كحديث صاحب الشملة التي غلها ثم استشهد فقال الناس هنيئاً له الجنة فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم والذي نفسي بيده إن الشملة التي غلها لتشتعل عليه ناراً في قبره .

(ومنها) من يكون مقره باب الجنة كما في حديث ابن عباس : الشهداء على بارق نهر باب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية . رواه أحمد . وهذا بخلاف جعفر بن أبي طالب حيث أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء .

(ومنها) من يكون محبوساً في الأرض لم لعل روحه إلى الملا الأعلى فإنها كانت روحاً سفلية أرضية فان الأنفس الأرضية لا تنجم الأنفس السماوية كما لا تنجمها في الدنيا والنفس التي لم تكتسب في الدنيا معرفة ربها ومحبه وذكره والانس به والتقرب إليه بل هي أرضية سفلية ، لا تكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك كما أن النفس العلوية التي كانت في الدنيا عاكفة

على محبة الله وذكره والتقرب اليه والانس به تكون بعد المفارقة مع الارواح العلوية للناس لها فالمرء مع من أحب في البرزخ ويوم القيامة والله تعالى يزوج النفوس بعضها ببعض في البرزخ ويوم المعاد كما تقدم في الحديث ويجعل روحه يعنى المؤمن مع النسم الطيب أى الارواح الطيبة المشاكلة فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأخواتها وأصحاب عملها فتكون معهم هناك .

(ومنها) ارواح تكون في ترر الزناة والزواني (وأرواح) في نير الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة ، فليس للارواح سمبدها وشقيها مستقر واحد بل روح في أعلى عليين ، وروح أرضية سفلية لا تصعد عن الأرض .

وانت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب وكان لك بها فضل اعتناء عرفت حجة ذلك ولا تظن أن بين الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضاً فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً ، لكن الشأن في فهمها ومعرفة النفس وأحكامها وان لها شأناً غير شأن البدن وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً وأنها تنقسم إلى مرسله ومحبوسة وعلوية وسفلية ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم وألم أعظم ما كان لها حال اتصالها بالبدن بكبير ، فهناك الحبس والالم والعذاب والمرض والحسرة ، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والاطلاق وما أشبه حالها في هذا البدن بحال ولد في بطن أمه وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار .

فلهذه الانفس أربع دور كل دار أعظم من التي قبلها :

(الدار الأولى) في بطن الأم وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث .

(والدار الثانية) هي الدار التي نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة .

(والدار الثالثة) دار البرزخ وهي أوسع من هذه الدار وأعظم بل نسبتها اليه كنسبة هذه الدار إلى الأولى .

(والدار الرابعة) دار القرار وهي الجنة أو النار فلا دار بعدها وانه ينقلها في هذه الدور طبقاً بمد طبق حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها ولا يليق بها سواها وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لها اليها ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى فتبارك الله فاطرها ومنشئها ومبنيها ومحبيها ومسعدوها ومشقيها الذي فأت بينها في درجات سعادتها وشقاوتها كما فأت بينها في مراتب علومها وأعمالها وقوامها وأخلاقها . فن

عرفها كما ينبغي شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك كله وله الحمد كله وييده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله وله القوة كلها والقدرة كلها والعز كله والحكمة كلها والسكال المطلق من جميع الوجوه وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله وأن الذي جاءوا به هو الحق الذي تشهد به العقول وتقر به الفطر وما خالفه هو الباطل وبالله التوفيق .

المسألة السادسة عشرة

وهي هل تنتفع أرواح الموتي بشيء من سعي الأحياء أم لا ؟

(فالجواب) أنها تنتفع من سعي الأحياء بأمرين : بجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير .

(أحدهما) ما تسبب إليه الميت في حياته .

(والثاني) دعاء المسلمين له واستغفارهم له والصدقة والحج على نزع ما الذي يصل من ثوابه هل ثواب الإنفاق أو ثواب العمل ؟ فعند الجمهور يصل ثواب العمل نفسه وعند بعض الحنفية إنما يصل ثواب الإنفاق .

واختلفوا في العبادة البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر فذهب الإمام أحمد وجمهور السلف وصولها وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة نص على هذا الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيى الكحال قال قيل لابي عبد الله الرجل يعمل الشيء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك فيجعل نصفه لآبيه أو لأمه ؟ قال أرجو أو قال الميت يصل إليه كل شيء من صدقة أو غيرها وقال أيضاً اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات وقل هو الله أحد وقل اللهم إن فضله لأهل المقابر .

والمشهور من مذهب الشافعي ومالك أن ذلك لا يصل .

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام أنه لا يصل إلى الميت شيء البتة لادعاء ولا غيره .

فالدليل على انتفاعه بما تسبب إليه في حياته ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية . أو علم ينتفع به . أو ولد صالح يدعو له . فاستثناء هذه الثلاث من عمله يدل على أنها منه فإنه هو الذي تسبب إليها .

(وفي سنن ابن ماجه) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما عليه ونشره أو ولدأ صالحاً تركه أو مصحفاً ورثه أو مسجداً بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أكرهه أو صدقة أخرجهما من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته .

(وفي صحيح مسلم) أيضاً من حديث جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ؛ ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء . وهذا المعنى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من عدة وجوه صحاح وحسان .

(وفي المسند) عن حذيفة قال سألت رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمسك القوم ثم أن رجلاً أعطاه فأعطى القوم فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من سن خيراً فاستن به كان له أجره ومن أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئاً ومن سن شراً فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً .

وقد دل على هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلم لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل فاذا كان هذا في العذاب والعقاب ففي الفضل والثواب أولى وأحرى .

فصل

والدليل هل انتفاءه بغير ما تسبب فيه القرآن والسنة والإجماع وقواعد الشرع .
(أما القرآن) فقوله تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) فأثنى الله سبحانه عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء .

وقد يمكن أن يقال إنما انتفعوا باستغفارهم لأنهم سئوا لهم الإيمان بسببهم إليه فلما اتبعوهم فيه كانوا كالمستنين في حصوله لهم . لكن قد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنائز .

(وفي السنن) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صليت على الميت فأخلصوا له الدعاء .

(وفي صحيح مسلم) مد حديث عوف بن مالك قال صلى الله عليه وآله وسلم على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول اللهم اغفر له وارحمه وطاقه واعف عنه وأكرم نزله وأوسع

مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار .

(وفي السنن) عن وائلة بن الأسقع قال صلى الله عليه وآله وسلم على رجل من المسلمين فسمعتة يقول اللهم ان فلانا ابن فلان في ذمتك وحبل جوارك فقه من فتنه القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحق فاغفر له وارحمه إنك الغفور الرحيم .

وهذا كثير في الأحاديث بل هو المقصود بالصلاة على الميت وكذلك الدعاء له بعد الدفن .
(وفي السنن) من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل .

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم (كما في صحيح مسلم) من حديث بريدة بن الحميم قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية .

(وفي صحيح مسلم) أن عائشة رضى الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف نقول إذا استغفرت لأهل القبور ؟ قال قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون .

(وفي صحيحه) عنها أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج في ليلتها من آخر الليل إلى البقيع فقال السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأناكم ما توعدون غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد .

ودعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم للآسموات فملا وتعلمها ودعاء الصحابة والتابعين والمسلمين عصرأ بعد عصر أكثر من أن يذكر وأشهر من أن ينكر وقد جاء ان الله يرفع درجة العبد في الجنة فيقول أنى لي هذا فيقال بدعاء ولدك لك .

فصل

وأما وصول ثواب الصدقة (في الصحيحين) عن عائشة رضى الله عنها أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله ان أمي اقلتت نفسها ولم ترص وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال نعم .

(وفي صحيح البخارى) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله ان أمى توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال نعم قال فأتى أشهدك أن حائطى الخراف صدقة عنها .

(وفي صحيح مسلم) عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ان أبى مات وترك مالا ولم يوص فهل يكفى عنه أن أتصدق عنه؟ قال نعم .

(وفي السنن ومسنده أحمد) عن سعد بن عبادة أنه قال يا رسول الله ان أم سعد ماتت فأى الصدقة أفضل؟ قال الماء لحفر بئراً وقال هذه لام سعد .

(وعن) عبد الله بن عمرو أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة وأن هشام بن العاص نحر خمسة وخمسين وأن عمر أسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال أما أبوك فلو أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك . رواه الإمام أحمد .

فصل

وأما وصول ثواب الصوم (فى الصحيحين) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال من مات وعليه صيام صام عنه وليه .

(وفي الصحيحين) أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله أى ماتت وعليها صوم شهر أفأقضيه عنها؟ قال نعم فدين الله أحق أن يقضى .

(وفي رواية) جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا رسول الله ان أمى ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال أفرايت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها؟ قالت نعم قال فصومي عن أمك . وهذا اللفظ للبخارى وحده تعليقاً .

(وعن بريدة رضى الله عنه) قال بينا أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذاتته امرأة فقالت إنى تصدقت على أمى بجزيرة وأنها ماتت فقال وجب أجرك ورضا عليك الميراث فقالت يا رسول الله انه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال صومي عنها ، قالت انها لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال حجى عنها . رواه مسلم . وفي لفظ صوم شهرين .

(وعن ابن عباس رضى الله عنهما) أن امرأة ركبت البحر فنذرت إن الله نجاها أن تصوم شهراً فنجأها الله فلم تصم حتى ماتت فجاءت بنتها أو أختها إلى رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم فأمرها أن تصوم عنها . رواه أهل السنن والإمام أحمد . وكذلك روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم وصول ثواب بدل الصوم وهو الاطعام .

(ففي السنن) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه لكل يوم مسكين . رواه الترمذى وابن ماجه . قال الترمذى ولا تعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه والصحيح عن ابن عمر من قوله موقوفاً .

(وفي سنن أبي داود) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال إذا مرض الرجل في رمضان ولم يصم أطعم عنه ولم يكن عنه قضاء وإن نذر قضى عنه وليه .

فصل

وأما وصول ثواب الحج ففي صحيح البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت ان أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال حجى عنها أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ قال نعم والله فأنت أحق بالقضاء .

وقد تقدم حديث بريدة وفيه أن أمى لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال حجى عنها .

(وعن ابن عباس رضي الله عنهما) قال ان امرأة سنان بن سلمة الجهنى سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أمها ماتت ولم تحج أفيجزىء أن تحج عنها؟ قال نعم لو كان على أمها دين فقضته عنها ألم يكن يجزىء عنها . رواه النسائى .

(وروى) أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ابنتها ماتت ولم يحج قال حجى عن ابنتك .

(وروى) أيضاً عنه قال : قال رجل يا نبي الله ان أبى مات ولم يحج أفأحج عنه؟ قال أرأيت لو كان على أبىك دين أكنت قاضيه؟ قال نعم ، قال فدين الله أحق . وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمته ولو كان من أجنبي أو من غير تركته . وقد دل عليه حديث أبى قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت فلما قضاها قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم الآن بردت عليه جلده .

وأجمعوا على أن الحى إذا كان له في ذمة الميت حق من الحقوق فأحل له منه أنه ينفعه ويبرأ منه كما يسقط من ذمة الحى .

فإذا سقط من ذمة الحى بالنص والاجماع مع إمكان أدائه له بنفسه ولو لم يرض به بل

ردد فسقوطه من ذمة الميت بالابراء حيث لا يتمكن من أدائه أولى وأحرى ، وإذا انتفع بالإبراء والاسقاط فكذلك ينتفع بالهبة والإهداء . ولا فرق بينهما فإن ثواب العمل حق المهدي الواهب فإذا جمعه الميت انتقل إليه ، كما أن ما على الميت من الحقوق من الدين وغيره هو محض حق الحي فإذا أبرأه وصل الإبراء إليه وسقط من ذمته فكلاهما حق للحي فأى نص أو قياس أو قاعدة من قواعد الشرع يوجب وصول أحدهما ويمنع وصول الآخر .

عنه العصور من مظاهره على وصول ثواب الأعمال إلى الميت إذا فعلها الحي عنه وهذا محض القياس فإن الثواب حق للمعامل فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك كما لم يمنع من هبة ماله في حياته وإبرائه له من بعد موته .

• ودان به النبي صلى الله عليه وآله وسلم بوصول ثواب الصوم الذي هو مجرد ترك ونية تقوم بالقلب لا يطلع عليه إلا الله وليس بعمل الجوارح على وصول ثواب القراءة التي هي عمل بالذات تسمعه الأذن وتراه العين بطريق الأولى .

ويوضحه أن الصوم نية محضة وكف النفس عن المفطرات وقد أوصل الله ثوابه إلى الميت فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية بل لا تقتصر إلى النية فوصول ثواب الصوم إلى الميت فيه تفضيحه على وصول سائر الأعمال .

والعبادات قسبان : مالية ، وبدنية . وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصدقة قال على وصول ثواب سائر العبادات المالية ، ونبه بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب سائر للعبادات البدنية ، وأخبر بوصول ثواب الحج المركب من المالية والبدنية ، فالأنواع الثلاثة ثابتة بالنص والاعتبار وبالله التوفيق .

قال المازنون من الوصول قال الله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وقال (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) وقال (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية عليه ، أو ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعد . فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب إليه في الحياة وما لم يكن قد تسبب إليه فهو منقطع عنه .

وأيضاً لحديث أبي هريرة رضي الله عنه المتقدم وهو قوله إن ما يلحق الميت من عمله وحسناته بعد موته علماً نشره . الحديث يدل على أنه إنما ينتفع بما كان قد تسبب فيه .

وكذلك حديث أنس يرفعه سبع يجرى على العبد أجرهن وهو في قبره بعد موته من علم

علماً ، أو أكرى نهراً أو حفر بئراً ، أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً ، أو ورث مصحفاً ، أو ترك ولداً صالحاً يستغفر له بعد موته .

وهذا يدل على أن ما عدا ذلك لا يحصل له منه ثواب وإلا لم يكن للحصر معنى .

قالوا والاهداء خوالة والحوالة إنما تكون بحق لازم والأعمال لا توجب الثواب وإنما هو مجرد تفضل الله وإحسانه فكيف يحيل العبد على مجرد الفضل الذي لا يجب على الله بل إن شاء آتاه وإن لم يشأ لم يؤته وهو نظير حوالة الفقير على من يرجو أن يتصدق عليه ، ومثل هذا لا يصح إهداؤه وهبته كصلة ترجى من ملك لا لتحقق حصولها .

(قالوا) وأيضاً فالإيثار بأسباب الثواب مكروه وهو الإيثار بالقرب فكيف الإيثار بنفس الثواب الذي هو غاية فإذا كره الإيثار بالوسيلة فالغاية أولى وأحرى .

وكذلك كره الإمام أحمد التأخر عن الصف الأول وإيثار للغير به لما فيه من الرغبة عن سبب الثواب ، قال أحمد في رواية حنبل وقد سئل عن الرجل يتأخر عن الصف الأول ويقدم أباه في موضعه قال ما يعجبني هو يقدر أن يبر أباه بغير هذا .

(قالوا) أيضاً لوساخ الإهداء إلى الميت لساخ نقل الثواب والاهداء إلى الحي .

وأيضاً لو ساغ ذلك لساخ لهذا نصف الثواب وربعه وقيراط منه .

وأيضاً لو ساغ ذلك لساخ إهداؤه بعد أن يعمله لنفسه وقد قلتم أنه لا بد أن ينوى حال الفعل إهداءه إلى الميت وإلا لم يصل إليه فإذا ساغ له نقل الثواب ، فأى فرق بين أن ينوى قبل الفعل أو بعده .

وأيضاً لو ساغ الإهداء لساخ إهداء ثواب الواجبات على الحي كما يسوغ إهداء ثواب التطوعات التي يتطوع بها .

(قالوا) وإن التكاليف امتحان وإبتلاء لا تقبل البدل فإن المقصود منها عين المكلف العامل بالمأمور المنهى فلا يبدل المكلف الممتحن بغيره ولا ينوب غيره عنه في ذلك أن المقصود طاعته هو نفسه وعبوديته ولو كان ينفع بإهداء غيره له من غير عمل منه لكان أكرم الأكرمين أولى بذلك وقد حكم سبحانه أنه لا ينفع إلا بسميه وهذه سنته تعالى في خلقه وقضاؤه كما هي سنته في أمره وشرعه فإن المريض لا ينوب عنه غيره في شرب الدواء والجماع والظمان والعارى لا ينوب عنه غيره في الأكل والشرب واللباس . قالوا ولو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه .

(قالوا) ولهذا لا يقبل الله إسلام أحد ولا صلاته عن صلاته فإذا كان رأس العبادات لا يصح إهداء ثوابه فكيف فروعهما .

قالوا وأما الدعاء فهو سؤال ورغبة إلى الله أن يتفضل على الميت ويسأحه ويعفو عنه وهذا إهداء ثواب عمل الحي إليه .

(قال) المقتصرون على وصول العبادات التي تدخلها النيابة كالصدقة والحج والعبادات نوعان : نوع لا تدخله النيابة بحال كالإسلام والصلاة وقراءة القرآن والصيام فهذا النوع يختص ثوابه بفاعله لا يتمدها ولا ينقل عنه كما أنه في الحياة لا يفعله أحد عن أحد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره .

ونوع تدخله النيابة كرد الودائع وأداء الديون وإخراج الصدقة والحج فهذا يصل ثوابه إلى الميت لأنه يقبل النيابة ويفعله العبد عن غيره في حياته فبعد موته بالطريق الأولى والأخرى .
والأولى وأما حديث من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، لجوابه من وجوه :

(أحدها) ما قاله مالك في موطنه قال لا يصوم أحد عن أحد . قال وهو أمر يجمع عليه عندنا لاختلاف فيه .

(الثاني) أن ابن عباس رضي الله عنهما هو الذي روى حديث الصوم عن الميت وقد روى عنه النسائي (أخبرنا) محمد بن عبد الأعلى حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حجاج الأحول حدثنا أيوب بن موسى عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لا يصلي أحد عن أحد .

(الثالث) أنه حديث اختلف في إسناده هكذا قال صاحب المفهم في شرح مسلم .

(الرابع) أنه معارض بنص القرآن كما تقدم من قوله تعالى : (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) .

(الخامس) أنه معارض بما رواه النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لا يصلي أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من خنطة .

(السادس) أنه معارض بحديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه .

(السابع) أنه معارض بالقياس الجلي على الصلاة والإسلام والتوبة فإن أحداً لا يفعلها عن أحد . قال الشافعي فيما تسكلم به على خبر ابن عباس لم يسم ابن عباس ما كان نذر أم سعد فاحتمل أن يكون نذر حج أو عمرة أو صدقة فأمره بقضائه عنها فأما من نذر صلاة أو صياماً ثم مات فإنه يكفر عنه في الصوم ولا يصام عنه ولا يصلى عنه ولا يكفر عنه في الصلاة ثم قال فإن قيل أفاروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر أحد أن يصوم عن أحد ؟ قيل نعم روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فإن قيل فلم لا تأخذ به ؟ قيل حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نذراً ولم يسمه مع حفظ الزهري وطول مجالسة عبيد الله لابن عباس فلما جاء غيره عن رجل عن ابن عباس بنغير ما في حديث عبيد الله أشبه أن لا يكون محفوظاً . فإن قيل فتعرف الرجل الذي جاء بهذا الحديث يغلط عن ابن عباس ؟ قيل نعم روى أصحاب ابن عباس عن ابن عباس أنه قال لابن الزبير أن الزبير حل . من متعة الحج فروى هذا عن ابن عباس أنها متعة النساء وهذا غلط فاحش .

فهذا الجواب عن فعل الصوم . وأما فعل الحج فإنما يصل منه ثواب الاتفاق وأما أعمال المناسك فهي كأفعال الصلاة إنما تقع عن قاعلمها .

(قال) أصحاب الوصول ليس في شيء مما ذكرتم ما يعارض أدلة الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ومقتضى قواعد الشرع ونحن نجيب عن كل ما ذكرتموه بالعدل والإنصاف .
أما قوله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فقد اختلفت طرق الناس في التوراة والآية . فقالت طائفة المراد بالإنسان هاهنا الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له بالأدلة التي ذكرناها . قالوا وغاية ما في هذا التخصيص وهو جائز إذا دل عليه الدليل .

وهذا الجواب ضعيف جداً ومثل هذا العام لا يراد به الكافر وحده بل هو للمسلم والكافر وهو كالعام الذي قبله وهو قوله تعالى (أن لا تزوروا زورا) .

والسياق كله من أوله إلى آخره كالصريح في إرادة العموم لقوله تعالى (وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) وهذا يعم الشر والخير قطعاً ويتناول البر والفاجر والمؤمن والكافر كقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وكقوله له في الحديث الإلهي : يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيا لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وهو كقوله تعالى (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقه) ولا تنفس بقود كثير من المفسرين في لفظ الإنسان في

القرآن الانسان هاهنا أبوجهل والإنسان هاهنا عقبه ابن أبي معيط والانسان هاهنا الوليد ابن المغيرة فالقرآن أجل من ذلك بل الإنسان هو الانسان من حيث هو من غير اختصاص بواحد بعينه كقوله تعالى (إن الانسان لفي خسر) و (إن الانسان لربه لكنود) و (إن الانسان خلق هلوعا) و (إن الانسان ليطغى ان رآه استغنى) و (إن الانسان لظلوم كفار) و (وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا) فهذا شأن الإنسان من حيث ذاته ونفسه وخروجه عن هذه الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنته عليه لا من ذاته فليس له من ذاته إلا هذه الصفات وما به من نعمة فمن الله وحده فهو الذي حجب إلى عبده الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، وهو الذي كتب في قلبه الإيمان . وهو الذي ثبت أنبياءه ورسله وأوليائه على دينه وهو الذي يصرف عنهم السوء والفحشاء . وكان يرتجز بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

والله لو لا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

وقد قال تعالى (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله) وقال تعالى (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) ، (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) فهو رب جميع العالم ربوبية شاملة لجميع مافي العالم من ذوات وأفعال وأحوال .

(وقالت) طائفة الآية اخبار بشرع من قبلنا وقد دل شرعنا على أنه له ماسعى وماسعى له . وهذا أيضاً أضعف من الأول أو من جنسه فان الله سبحانه أخبر بذلك اخبار مقرر له محتج به لا اخبار مبطل له ولهذا قال (أم لم يذبا بما في صحف موسى) فلو كان هذا باطلا في هذه الشريعة لم يخبر به اخبار مقرر له محتج به .

(وقالت) طائفة اللام بمعنى على أى وليس على الإنسان إلا ماسعى . وهذا أبطل من القولين الأولين فإنه قول موضوع الكلام إلى ضد معناه المفهوم منه ولا يسوغ مثل هذا ولا تحتمله اللغة . وأما نحو (ولهم اللعنة) فهي على بابها أى نصيبهم وحظهم وأما أن العرب تعرف في لغاتها لى درهم بمعنى على درهم فكلا .

(وقالت) طائفة في الكلام حذف تقديره (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) أو سعى له وهذا أيضاً من النمط الأول فإنه حذف ما لا يدل السياق عليه بوجه وقول على الله وكتابه بلا علم .

(وقالت) طائفة أخرى الآية منسوخة بقوله تعالى (والذين آمنوا وأتبعتم ذريتهم بإيمان الحقنا بهم ذريتهم) وهذا منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما وهذا ضعيف أيضاً

ولا يرفع حكم الآية بمجرد قول ابن عباس رضى الله عنها ولا غيره أنها منسوخة والجمع بين الآيتين غير متعذر ولا ممتنع فإن الابناء تبعوا الآباء فى الآخرة كما كانوا تعاملهم فى الدنيا وهذه التبعية هى من كرامة الآباء وثوابهم الذى نالوه بسعيهم وأما كون الابناء لحقوا بهم فى الدرجة بلا سعى منهم فهذا ليس هو لهم وإنما هو الآباء أقر الله أعيانهم بالحق ذريتهم بهم فى الجنة وتفضل على الابناء بشيء لم يكن لهم كما تفضل بذلك على الولدان والحرور العين والخلق الذين ينشئهم للجنة بغير أعمال والقوم الذين يدخلون الجنة بالخير قدموه ولا عمل عملوه فتموله تعالى : (أن لاتزر وازرة وزر أخرى) وقوله : (وان ليس للانسان الا ما سعى) آيتان محكمتان يقتضيهما عدل الرب تعالى وحكمته وكاله المقدس ، والعقل والفطرة شاهدان بها فالاول تقتضى أنه لا يعاقب بجرم غيره والثانية تقتضى أنه لا يفلح إلا بعمله وسعيه فالأولى تؤمن العبد من أخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا والثانية تقطع طمعه من نجاته بعمل آباءه وسلفه ومشايخه كما عليه أصحاب الطمع الكاذب فتأمل حسن اجتماع هاتين الآيتين .

ونظيره قوله تعالى : (من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) - (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) لحكم سبحانه لأعدائه بأربعة أحكام هى غاية العدل والحكمة .

(أحدها) ان هدى العباد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا غيره .

(الثانى) أن ضلاله بفوات ذلك وتحلفه عنه على نفسه لأعلى غيره .

(الثالث) أن أحداً لا يؤخذ بجريرة غيره .

(الرابع) أنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه رسوله فتأمل ما فى ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله وفضله ، والرد على أهل الفرور والاطماع الكاذبة وعلى أهل الجمل بالله وأسمائه وصفاته .

وقالت طائفة أخرى المراد بالإنسان هاهنا الحى دون الميت وهذا أيضاً من النقط الأولى فى الفساد .

وهذا كله من سوء التصرف فى اللفظ للعام وصاحب هذا التصرف لا ينفذ تصرفه فى دلالات الألفاظ وحملها على خلاف موضوعها وما يتبادر إلى الذهن منها وهو تصرف فاسد قطعاً يبطله السياق والاعتبار وقواعد الشرع وأدلتها وعرفه وسبب هذا التصرف السيء أن صاحبه يعتقد قولاً ثم يرد كلما دل على خلافه بأى طريق اتفقت له فالأدلة المخالفة لما

اعتقده عنده من باب الصائل لا يبالي بأى شيء دفعه وأدلة الحق لا تتعارض ولا تتناقض بل يصدق بعضها بعضاً .

(وقالت) طائفة أخرى وهو جواب أبي الوفاء بن عقيل ، قال الجواب الجيد عندي أن يقال الإنسان بسميه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء وأولاد الأولاد ونكح الأزواج وأسدى الخير وتودد إلى الناس فترحموا عليه وأهدوا له العبادات وكان ذلك أثر سعيه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه . ويدل عليه قوله في الحديث الآخر إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : هلم ينتفع به من بعده وصدقة جارية عليه أو ولد صالح يدعو له . ومن هنا قول الشافعي إذا بذل له ولده طاعة الحج كان ذلك سبباً لوجوب الحج عليه حتى كأنه في ماله زاد وراحلة بخلاف بذل الأجنبي .

هذا جواب متوسط يحتاج إلى تمام فإن العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعى في انتفاعه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله كما ينتفع بعملهم في الحياة مع عمله فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض في الأعمال التي يشتركون فيها كالصلاة في جماعة فإن كل واحد منهم تضاف صلاته إلى سبعة وعشرين ضعفاً لمشاركة غيره له في الصلاة فعمل غيره كان سبباً لزيادة أجره كما أن عمله سبب لزيادة أجر الآخر بل قد قيل إن الصلاة يضاعف ثوابها بعدد المصلين وكذلك اشتراكهم في الجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه ومعلوم أن هذا بأمور الدين أولى منه بأمور الدنيا ، فدخول المسلم مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه في حياته وبعد مماته ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم . وقد أخبر الله سبحانه عن حملة العرش ومن حوله أنهم يستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم . وأخبر عن دعاء رسله واستغفارهم للمؤمنين كدعوى إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فالعبد بإيمانه قد تسبب إلى وصول هذا الدعاء إليه فكأنه من سعيه . يوضحه أن الله سبحانه جعل الإيمان سبباً لانتفاع صاحبه بدعائه إخوانه من المؤمنين وسميهم فإذا أتى به فقد سعى في السبب الذي يوصل إليه وقد دل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمر بن العاص إن أباك لو كان أقر بالتوحيد نفعه ذلك يعني العتق الذي فعله بعد موته فلو أتى بالسبب لكان قد سعى في عمل يوصل إليه ثواب العتق . وهذه طريقة لطيفة حسنة جداً .

وقالت طائفة أخرى القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره وإنما نفي ملكه لغير سعيه

وبين الامرين من الفرق ما لا يخفى فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه وأما سعي غيره فهو ملك لساعيه فان شاء أن يبذله لغيره ، وإن شاء أن يبقيه لنفسه وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجحها .

فصل

وكذلك قوله تعالى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وقوله (ولا تجزون الا ما كنتم تعملون) على أن هذه الآية أصرح في الدلالة على أن سياقها وإنما ينفي عقوبة العبد بعمل غيره وأخذه بجزيرته فان الله سبحانه قال (فالיום لا نظل نفس شيئا ولا تجزون الا ما كنتم تعملون) فنفي أن يظلم بأن يزداد عليه في سيئاته أو ينقص من حسناته أو يعاقب بعمل غيره ولم ينف أن ينتفع بعمل غيره لأعلى وجه الجزاء فان انتفاعه بما يهدى إليه ليس جزاء على عمله وإنما هو صدقة تصدق الله بها عليه وتفضل بها عليه من غير سعي منه بل وهبه ذلك على يد بعض عباده لأعلى وجه الجزاء .

فصل

وأما استدلالكم بقوله صلى الله عليه وآله وسلم إذا مات العبد انقطع عمله فاستدلال ساقط فانه صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل انقطع انتفاعه وإنما أخبر عن انقطاع عمله وأما عمل غيره فهو لعامله فان وهبه له وصل إليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو فالانقطاع شيء والواصل إليه شيء آخر وكذلك الحديث الآخر وهو قوله ان مما يلحق الميت من حسناته وعمله فلا ينفي أن يلحقه غير ذلك من عمل غيره وحسناته .

فصل

و قولكم الإهداء حوالة والحوالة إنما تكون بحق لازم ، فهذه حوالة المخلوق على المخلوق . وأما حوالة المخلوق على الخالق فأمر آخر لا يسع قياسها على حوالة العبيد بعضهم على بعض وهل هذا الا من بطل القياس وأفسده والذي يبطله اجماع الامة على انتفاعه بأداء دينه وما عليه من الحقوق وبراء المستحق لذمته والصدقة والحج عنه بالنص الذي لا سبيل الى رده ودفعه وكذلك الصوم وهذه الاقيسة الفاسدة لاتعارض نصوص الشرع وقواعده .

فصل

وأما قولكم الايثار بسبب الثواب مكروه وهو مسألة الايثار بالقرب فكيف الايثار الثواب بنفس الذي هو الغاية فقد أجيب عنه بأجوبة .

(الجواب الاول) أن حال الحياة حال لا يوثق فيها بسلامة العاقبة لجواز أن يرتد الحي فيكون قد آثر بالقربة غير أهلها وهذا قد أمن بالموت . فان قيل والمهدى اليه أيضا قد لا يكون مات على الاسلام باطنا فلا ينتفع بما يهدى اليه وهذا سؤال في غاية البطلان فان الاهداء له من جنس الصلاة عليه والاستغفار له والدعاء له فان كان أهلا وإلا انتفع به الداعي وحده .

(الجواب الثاني) أن الايثار بالقرب يدل على قلة الرغبة فيها والتأخر عن فعلها فلوساغ الايثار بها لا يفضى إلى التقاعد والتكاسل والتأخر ، بخلاف إبداء ثوابها فان العامل يحرص عليها لأجل ثوابها لينتفع به أو ينفع به أخاه المسلم فيبينما فرق ظاهر .

(الجواب الثالث) أن الله سبحانه وتعالى يحب المبادرة أو المسارعة إلى خدمته والتنافس فيها فان ذلك أبلغ في العبودية فان الملوك تحب المسارعة والمنافسة في طاعتها وخدمتها فالايثار بذلك مناف لمقصود العبودية فان الله سبحانه أمر عبده بهذه القربة إما إيجابا وإما استحبابا فاذا أثربها ترك أمره وولاه غيره بخلاف ما إذا فعل ما أمر به طاعة وقربة ثم أرسل ثوابه إلى أخيه المسلم وقد قال تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) وقال (فاستبقوا الخيرات) ومعلوم أن الإيثار بها يتنافى الاستباق اليها والمسارعة .

وقد كان الصحابة يسابق بعضهم بعضا بالقرب ولا يؤثر الرجل منهم غيره بها ، قال عمر والله ما سابقتني أبو بكر إلى خير إلا سبقني إليه - حتى قال والله لا أسابقك إلى خير أبدا .

وقد قال تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) يقال نافست في الشيء منافسة ونفاسا إذا رغبت فيه على وجه المباراة ، ومن هذا قولهم شيء نفيس أي هو أهل أن يتنافس فيه ويرغى فيه وهذا أنفس مالى أي أحبه إلى وأنفسي فلان في كذا أي أرغبني فيه ، وهذا كله ضد الإيثار به والرغبة عنه .

فصل

وأما قولكم لوساغ الاهداء إلى الميت لساغ إلى الحي لجوابه من وجهين :

(أحدهما) أنه قد ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم قال القاضي وكلام أحمد لا يقتضى التخصيص بالميت فانه قال يفعل الخير ويجعل نصفه لأبيه وأمه ولم يفرق . واعترض عليه أبو الوفاء بن عقيل وقال هذا فيه بعد وهو تلاعب بالشرع وتصرف في أمانة الله واجمال على الله سبحانه بثواب على عمل يفعله إلى غيره وبعد الموت قد جعل لنا طريقاً إلى إيصال النفع كالاستغفار والصلاة على الميت .

ثم أورد على نفسه سؤالاً وهو فان قيل أليس قضاء الدين وتحمل الكل حال الحياة كقضائه بعد الموت فقد استوى ضمان الحياة و ضمان الموت في أنها يزيلان المطالبة عنه فاذا وصل قضاء الديون بعد الموت وحال الحياة فاجعلوا ثواب الاهداء واصلا حال الحياة وبعد الموت .

وأجاب عنه بأنه لو صح هذا وجب أن تكون الذنوب تكفر عن الحي بتوبة غيره عنه ويندفع عنه ما آثم الآخرة بعمل غيره واستغفاره .

قلت وهذا لا يلزم بل طرد ذلك انتفاع الحي بدعاء غيره له واستغفاره له وتصدقه عنه وقضاء ديونه وهذا حق وقد أذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أداء فريضة الحج عن الحي المعضوب والعاجز وهما حيان .

وقد أجاب غيره من الأصحاب بأن حال الحياة لا تنق بسلامة العاقبة خوفاً أن يرتد المهدي له فلا ينتفع بما يهدى إليه .

قال ابن عقيل وهذا عذر باطل باهداء الحي فإنه لا يؤمن أن يرتد ويموت فيحبط عمله ومن جملته ثواب ما أهدى إلى الميت .

قلت هذا لا يلزمهم وموارد النص والإجماع تبطله وترده فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أذن في الحج والصوم عن الميت وأجمع الناس على براءة ذمته من الدين إذا قضاء به الحي مع وجود ما ذكر من الاحتمال .

والجواب أن يقال ما أهداه من أعمال البر إلى الميت فقد صار ملكاً له فلا يبطل برده فاعله بعد خروجه عن ملكه كتصرفاته التي تصرفها قبل الردة من عتق وكفارة بل لو حج عن معضوب ثم ارتد بعد ذلك لم يلزم المعضوب أن يقيم غيره يحج عنه فإنه لا يؤمن في الثاني والثالث ذلك .

على أن الفرق بين الحي والميت أن الحي ليس بحاجة الميت اذ يمكنه أن يباشر ذلك العمل أو نظيره فعليه اكتساب الثواب بنفسه وسعيه بخلاف الميت .

وأيضاً فإنه يفيض إلى اتكال بعض الأحياء على بعض وهذه مفسدة كبيرة فان أرباب الأموال إذا فهموا ذلك واستشعروه استأجروا من يفعل ذلك عنهم فتصير الطاعات معاوضات وذلك يفيض إلى اسقاط العبادات والنوافل ويصير ما يتقرب به إلى الله يتقرب به إلى الآدميين فيخرج عن الإخلاص فلا يحصل الثواب لواحد منهما .

ونحن نمنع من أخذ الاجرة على كل قربة ونحبط بأخذ الاجر عليها كالقضاء والفنیا وتعليم للعلم والصلاة وقراءة القرآن وغيرها فلا يثيب الله عليها إلا المخلص اخلص العسل لوجهه فإذا فعله للاجرة لم يثب عليه الفاعل ولا المستأجر ، فلا يليق بمحاسن الشرع أن يجعل العبادات الخالصة له معاملات تفصد بها المعاوضات والاكساب الدنيوية . وفارق قضاء الديون وضمائنها فإنها حقوق الآدميين ينوب بعضهم فيها عن بعض فلذلك في الحياة وبعد الموت .

س

وأما قولكم لو ساغ ذلك لساغ اهداء نصف الثواب وربعه إلى الميت فالجواب من وجهين : (أحدهما) منع الملازمة فإنكم لم تذكروا عليها دليلاً إلا مجرد الدعوى .

(الثاني) التزام ذلك والقول به نص عليه الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيى الكحال ووجه هذا أن الثواب ملك له فله أن يهديه جميعه وله أن يهدي بعضه . يوضحه أنه لو أهداه إلى أربعة مثلاً يحصل لكل منهم ربهه فإذا أهدى الربع وأبقى لنفسه الباقي جاز كما لو أهداه إلى غيره .

فصل

وأما قولكم لو ساغ ذلك لساغ اهداؤه بعد أن يعمله لنفسه وقد قلتم انه لا بد أن ينوي حال الفعل اهداؤه إلى الميت وإلا لم يصل .

فالجواب ان هذه المسألة غير منصوطة عن أحد ولا هذا الشرط في كلام المتقدمين من أصحابه وإنما ذكره المتأخرون كالقاضي . أتباعه .

قال ابن عقيل اذا فعل طاعة من صلاة وصيام وقراءة قرآن وأهداها بأن جعل ثوابها للميت المسلم فإنه يصل إليه ذلك وينفعه بشرط أن يتقدم نية الهدية على الطاعة أو تارة .

(وقال) أبو عبدالله بن حمدان في رعايته ومن تطوع بقربة من صدقة وصلاة وصيام وحج وعمرة وقراءة وعتق وغير ذلك من عبادة بدنية تدخلها النيابة وعبادة مالية وجعل جميع ثوابها أو بعضه لميت مسلم حتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودعا له أو استغفر له أو قضى ما عليه من حق شرعي أو واجب تدخله النيابة نفعه ذلك ووصل إليه أجره وقيل إن نه حال فعله أو قبله وصل إليه وإلا فلا .

وسر المسألة أن أوان شرط حصول الثواب أن يقع لمن أهدى له أولاً ويجوز أن يقع للعامل ثم ينتقل عنه إلى غيره ، فن شرط أن ينوي قبل الفعل أو الفراغ منه وصوله قال

لو لم ينوه وقع للثواب للعامل فلا يقبل انتقاله عنه إلى غيره فإن الثواب يترتب على العمل ترتب الأثر على مؤثره . ولهذا لو أعتق عبداً عن نفسه كان ولاؤه له فلو نقل ولاؤه إلى غيره بعد العتق لم ينتقل بخلاف ما لو أعتقه عن الغير فإن ولاؤه يكون للمعتق عنه ، وكذلك لو أدى ديناً عن نفسه ثم أراد بعد الأداء أن يجعله عن غيره لم يكن له ذلك ، وكذلك لو حج أو صام أو صلى لنفسه ثم بعد ذلك أراد أن يجعل ذلك عن غيره لم يملك ذلك ويؤيد هذا أن الذين سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك لم يسألوه عن إهداء ثواب العمل بعده وإنما سألوه عما يفعلونه عن الميت كما قال سعد أينفعها أن أتصدق عنها ؟ ولم يقل أن أهدى لها ثواب ما تصدقت به عن نفسي . وكذلك قول المرأة الأخرى أفأحج عنها ؟ وقول الرجل الآخر أفأحج عن أبي ؟ فأجابهم بالاذن في الفعل عن الميت لا بإهداء ثواب ما عملوه لأنفسهم إلى موتاهم فهذا لا يعرف أنه صلى الله عليه وآله وسلم مثل عنه قط ، ولا يعرف عن أحد من الصحابة أنه فعله وقال اللهم اجعل لفلان ثواب عملي المتقدم أو ثواب ما عملته لنفسي .
فهذا سر الاشتراط وهو أفقه ، ومن لم يشترط ذلك يقول الثواب للعامل فإذا تبرع به وأهداه إلى غيره كان بمنزلة ما يهديه إليه من ماله .

فصل

وأما قولكم لو ساع الإهداء لساع إهداء ثواب الواجبات التي تجب على الحي فالجواب أن هذا الإلزام محال على أصل من شرط في الوصول نية الفعل عن الميت فإن الواجب لا يصح أن يفعله عن الغير فإن هذا واجب على الفاعل يجب عليه أن ينوي به القربة إلى الله .
وأما من لم يشترط نية الفعل عن الغير فهل يسوغ عنده أن يجعل للميت ثواب فرض من فروضه ؟ فيه وجهان : قال أبو عبدالله بن حمدان وقيل إن جعل له ثواب فرض من الصلاة أو صوم أو غيرها جاز وأجزأ فاعله .
قلت وقد نقل عن جماعة أنهم جعلوا ثواب أعمالهم من فرض ونفل للمسلمين وقالوا نلتق الله بالفقر والإفلاس المجرد والشريعة لا تمنع من ذلك ، فالأجر ملك العامل فإن شاء أن يجعله لغيره فلا حرج عليه في ذلك . والله أعلم .

فصل

وأما قولكم إن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البدن إذ المقصود منها عين المكلف العامل إلى آخره .

فالجواب عنه أن ذلك لا يمنع إذن الشارع للمسلم أن ينفع أحاه بشيء من عمله . بل هذا من تمام إحسان الرب ورحمته لعباده ومن كمال هذه الشريعة التي شرعها لهم التي مبناها على العدل والإحسان والتعارف ، والرب تعالى أقام ملائكته وحمله عرشه يدعون لعباده المؤمنين ويستغفرون لهم ويسألونه لهم أن يقيمهم السيئات وأمر خاتم رساله أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وبقيمه يوم القيامة مقاما محموداً ليشفع في العصاة من أتباعه وأهل سنته ، وقد أمره تعالى أن يعلى على أصحابه في حياتهم وبعد مماتهم ، وكان يقوم على قبورهم فيدعو لهم . وقد استقرت الشريعة على أن المأثم الذي على الجميع بترك فروض للكفايات يسقط إذا فعله من يحصل المقصود بفعله ولو واحد ، وأسقط سبحانه الارتهان وحرارة الجلود في القبر بضمان الحق دين الميت وأدائه عنه وإن كان ذلك الوجوب امتحاناً في حق المكلف وأذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحج والصيام عن الميت وإن كان الوجوب امتحاناً في حقه ، وأسقط عن المأموم سجود السهو بصحة صلاة الإمام وخلوها من السهو وقراءة الفاتحة بتحمل الإمام لها فهو يتحمل عن المأموم سهوه وقراءته وسوترته لقراءة الإمام وسوترته قراءة لمن خلفه وسوترته له ، وهل الإحسان إلى المكلف باهداء الثواب إليه إلا تأس بإحسان الرب تعالى والله يحب المحسنين .

والخلق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعِياله ، وإذا كان سبحانه يحب من ينفع عياله بشربة ماء ومذاقة لبن وكسرة خبز فكيف من ينفعهم في حال ضعفهم وفقيرهم وانقطاع أعمالهم وحاجتهم إلى شيء يهدى إليهم أحوج ما كانوا إليه فأحب الخلق إلى الله من ينفع عياله في هذه الحال .

ولهذا جاء أثر عن بعض السلف أنه من قال كل يوم سبعين مرة رب اغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات حصل له من الأجر بعدد كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، ولا تستبدد هذا فإنه إذا استغفر لآخوانه فقد أحسن إليهم والله لا يضيع أجر المحسنين .

فصل

وأما قولكم أنه لو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه وإسلامه عنه .

فهذه الشبهة تورد على صورتين :

(صورة تلازم) يدعى فيها اللزوم بين الأمرين ثم بين انتفاء اللازم فينتفى ملزومه وصورتها هكذا لو نفعه عمل الغير عنه لنفعه إسلامه وتوبته عنه لكن لا ينفعه ذلك فلا ينفعه عمل الغير .

(والصورة الثانية) أن يقال لا ينتفع بإسلام الغير وتوبته عنه فلا ينتفع بصلاته وصيامه وقرائه عنه .

ومعلوم أن هذا التلازم والاقتران باطل قطعاً .

(أما أولاً) فلأنه قياس مصادم لما تظاهرت به النصوص واجتمعت عليه الأمة .

(وأما ثانياً) فلأنه جمع بين ما فرق الله بينه فإن الله سبحانه فرق بين إسلام المرء عن غيره وبين صدقته وحجه وعتقه عنه فالقياس المسوى بينهما من جنس قياس الذين قالوا سوا الميتة على المذكي والزبا على البيع .

(وأما ثالثاً) فإن الله سبحانه جعل الإسلام سبباً لنفع المسلمين بعضهم بعضاً في الحياة وبعد الموت فإذا لم يأت بسبب انتفاعه بعمل المسلمين لم يحصل له ذلك النفع كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمر و إن أباك لو كان أقر بالتوحيد فصمت أو تصدقت عنه نفعه ذلك . وهذا كما جعل سبحانه الإسلام سبباً لانتفاع العبد مما عمل من خير فإذا فاتته هذا السبب لم ينفعه خير عمله ولم يقبل منه كما جعل الإخلاص والمتابعة سبباً لقبول الأعمال فإذا فقد لم تقبل الأعمال ، وكما جعل الوضوء وسائر شروط الصلاة سبباً لصحتها فإذا فقدت الصحة وهذا شأن سائر الأسباب مع مسبباتها الشرعية والعقلية والحسية فمن سوى بين حالين وجود السبب وعدمه فهو مبطل .

ونظير هذا الهوس أن يقال لو قبلت الشفاعة في العصاة لقبلت في المشركين . ولو خرج أهل الكبار من الموحدين من النار لخرج الكفار منها ، وأمثال ذلك من الأقيسة التي هي من نجاسات معد أصحابها ورجيع أفواههم .

وبالجملة فالأولى بأهل العلم الاعراض عن الاشتغال بدفع هذه الهدايات لولا أنهم قد سودوا بها صحف الأعمال والصحف التي بين الناس .

فصل

وأما قواعدهم العبادات نوعان :

(نوع) تدخله النيابة فيصل ثواب إهدائه إلى الميت .

(ونوع) لا تدخله فلا يصل ثوابه .

فهذا هو نفس المذهب والدعوى فكيف تحتجون به ومن أين لكم هذا الذي فأن كتاب أم أي سنقام أي اعتبار دل عليه حتى يجب المصير إليه .

وقد شرع النبي صلى الله عليه وآله وسلم للصوم عن الميت مع أن الصوم لا تدخله النيابة وشرع للأمة أن ينوب بعضهم عن بعض في أداء فرض الكفاية فإذا فعله واحد ناب عن الباقيين في فعله وسقط عنهم المأثم وشرع لقيم الطفل الذي لا يعقل أن ينوب عنه في الإحرام وأفعال المناسك وحكم له بالأجر بفعل نائبه .

وقد قال أبو حنيفة رحمه الله يحرم الرفقة عن المعنى عليه فجعلوا إحرام رفقة بمنزلة إحرامه . وجعل الشارع إسلام الأبوين بمنزلة إسلام أطفالهما وكذلك إسلام السابى والمالك على القول المنصوص فقد رأيت كيف عدت هذه الشريعة الكاملة أفعال البر من فاعلها إلى غيرهم فكيف يليق بها أن تحجر على العبد أن ينفع والديه ورحمه وإخوانه من المسلمين في أعظم أوقات حاجاتهم بشيء من الخير والبر يفعله ويجعل ثوابه لهم ، وكيف يتحجر العبد أو اسماً أو يحجر على من لم يحجر عليه الشارع في ثواب عمله أن يصرف منه ما شاء إلى من شاء من المسلمين ، والذي أوصل ثواب الحج والصدقة والعق هو بعينه الذي يوصل ثواب الصيام والصلاة والقراءة والاعتكاف ، وهو إسلام المهدي إليه وتبرع المهدي وإحسانه وعدم حجر الشارع عليه في الإحسان بل ندبه إلى الإحسان بكل طريق ، وقد تواترت رؤيا المؤمنين وتواترت أعظم تواتر على أخبار الأموات لهم بوصول ما يهدونه إليهم من قراءة وصلاة وصدقة وحج وغيره ولو ذكرنا ما حكى لنا من أهل عصرنا وما بلغنا عن قبلنا من ذلك لطال جداً وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرى رؤياكم قد تواترت على أنها في العشر الاواخر فاعتبر صلى الله عليه وآله وسلم تواتر رؤيا المؤمنين وهذا كما يعتبر تواتر روايتهم لما شاهدوه فهم لا يكذبون في روايتهم ولا في رؤياهم إذا تواترت .

فصل

وأما رد حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو قوله : من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، بتلك الوجوه التي ذكرتموها فنحن ننتصر لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونبين موافقته للصحيح من تلك الوجوه وأما الباطل فيكفينا بطلانه من معارضته للحديث الصحيح الصريح الذي لا تغزقناته ولا سبيل إلى مقابله إلا بالسمع والطاعة والاذعان والقبول وليس لنا بعده الخيرة بل الخيرة وكل الخيرة في التسليم له والقول به ولو خالفه من بين المشرق والمغرب .

فأما قولكم نرده بقول مالك في موطنه : لا يصوم أحد عن أحد . فننازعوكم بقولون بل نرد قول مالك هذا بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأى الفريقين أحق بالصواب وأحسن رداً .

وأما قوله : هو أمر مجمع عليه عندنا لا خلاف فيه . فمالك رحمه الله لم يحك إجماع الأمة من شرق الأرض وغربها . قول أهل المدينة فيما بلغه ولم يبلغه خلاف بينهم وعدم اطلاعه رحمه الله على الخلاف في ذلك لا يكون مسقطا لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بل لو أجمع عليه أهل المدينة كلهم لكان الأخذ بحديث المعصوم أولى من الأخذ بقول أهل المدينة الذين لم تضمن لنا العصمة في قولهم دون الأمة ولم يجعل الله ورسوله أقوالهم حجة يجب الرد عند التنازع إليها بل قال الله تعالى : (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .

وإن كان مالك وأهل المدينة قد قالوا لا يصوم أحد عن أحد فقد روى الحكم بن عتيبة وسلي بن كهيل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه أفتى في قضاء رمضان يطعم عنه وفي النذر يصام عنه .

وهذا مذهب الإمام أحمد وكثير من أهل الحديث وقول أبي عبيد وقال أبو ثور يصام عنه النذر وغيره وقال الحسن بن صالح في النذر يصوم عنه وليه .

فصل

أما قولكم ابن عباس هو رارى حديث الصوم عن الميت وقد قال لا يصوم أحد عن أحد . فغاية هذا أن يكون الصحابي قد أفتى بخلاف ما رواه وهذا لا يقدر في روايته فإن روايته معصومة وفتواه غير معصومة ويجوز أن يكون نسي الحديث أو تأوله أو اعتقده معارضا راجحا في ظنه أو لغير ذلك من الأسباب على أن فتوى ابن عباس غير معارضة للحديث فإنه أفتى في رمضان أنه لا يصوم أحد عن أحد وأفتى في النذر أنه يصام عنه وليس هذا بمخالف لروايته بل حمل الحديث على النذر .

ثم إن حديث من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، هو ثابت من رواية عائشة رضي الله عنها فبأن ابن عباس خالفه فكان ماذا فخلاف ابن عباس لا يقدر في رواية أم المؤمنين بل رد قول ابن عباس برواية عائشة رضي الله عنها أولى من رد روايتها بقوله .

وأياضا فإن ابن عباس رضي الله عنهما قد اختلف عنه في ذلك وعنه روايتان فليس إسقاط الحديث للرواية المخالفة له عنه أولى من إسقاطها بالرواية الأخرى بالحديث .

فصل

وأما قولكم أنه حديث اختلف في إسناده فكلام مجازف لا يقبل قوله إنا الحديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبنا الصحيح ولم يختلف في إسناده .

قال ابن عبد البر ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، وصححه الإمام احمد وذهب إليه وعلق الشافعي القول به على صحته فقال وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الصوم عن الميت شيء فإن كان ثابتاً صام عنه كما يحج عنه . وقد ثبت بلا شك فهو مذهب الشافعي ، كذلك قال غير واحد من أئمة أصحابه ، قال البيهقي بعد حكايته هذا اللفظ عن الشافعي قد ثبت جواز القضاء عن الميت برواية سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعن عكرمة عن ابن عباس وفي رواية أكثرهم ان امرأة سألت فأشبهه أن تكون غير قصة أم سعد وفي رواية بعضهم صومي عن أمك وسيأتي تقرير ذلك عند الجواب عن كلامه رحمه الله .

وقولكم انه معارض بنص القرآن وهو قوله (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) إساءة أدب في اللفظ وخطأ عظيم في المعنى وقد أعاد الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن تعارض نياته لمصوص القرآن بل تعاضدها وتأييدها ويأنيه ما يصنع التعصب ونصرة التقليد ، وقد تقدم من الكلام على الآية ما فيه كفاية وبيننا أنها لا تعارض بينها وبين سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بوجه وإنما يظن التعارض من سوء الفهم وهذه طريقة وخيمة ذميمة وهي رد السنن الثابتة بما يفهم من ظاهر القرآن ، والعلم كل العلم تنزيل السنن على القرآن فإنها مشتقة منه وماخوذة عن جاء به وهي بيان له لا أنها مناقضة له .

وقولكم أنه معارض بما رواه النسائي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : لا يصلي أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه كل يوم مد من خنطة . خطأ قبيح فإن النسائي رواه هكذا (أخبرنا) محمد بن عبد الأعلى حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حجاج الأحول حدثنا أيوب بن موسى عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنها قال لا يصلي أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مد من خنطة . هكذا رواه قول ابن عباس لا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف يعارض قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقول ابن عباس ثم يقدم عليه مع ثبوت الخلاف عن ابن عباس رضي الله عنها ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل هذا الكلام قط وكيف يقوله وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال من مات وعليه صيام صام عنه وليه . وكيف يقوله وقد قال في حديث بريدة الذي رواه مسلم في صحيحه أن امرأة قالت له إن أمي ماتت وعليها صوم شهر؟ قال صومي عن أمك .

وأما قولكم انه معارض بحديث ابن عمر رضي الله عنهما ، من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه . فن هذا النمط فإنه حديث باطل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

(قال) البيهقي حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه . لا يصح ومحمد بن عبد الرحمن كثير الوهم وإنما رواه أصحاب نافع عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنها من قوله .

وأما قولكم أنه معارض بالقياس الجلي على الصلاة والإسلام والتوبة فإن أحدا لا يفعلها عن أحد .

فلعمري الله أنه لقياس جلي البطلان والفساد لرد سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصحيحة الصريحة له وشهادتها ببطلانه ، وقد أوضحنا الفرق بين قبول الإسلام عن الكافر بعد موته وبين انتفاع المسلم بما يهديه إليه أخوه المسلم من ثواب صيام أو صدقة أو صلاة ، ولعمري الله أن الفرق بينهما أوضح من أن يخفى وهل في القياس أفسد من قياس انتفاع المسلم بعد موته بما يهديه إليه أخوه المسلم من ثواب عمله على قبول الإسلام عن الكافر بعد موته أو قبول التوبة عن المجرم بعد موته .

فصل

(وأما كلام الشافعي) رحمه الله في تغليط راوي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن نذر أم سعد كان صوما . فقد أجاب عنه أنصر الناس له هو البيهقي ونحن نذكر كلامه بلفظه قال في (كتاب المعرفة) بعد أن حكى كلامه . قد ثبت جواز القضاء عن الميت برواية سعيد ابن جبير ومجاهد وعطاء وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما وفي رواية أكثرهم أن امرأة سألت فأشبهه أن تكون غير قصة أم سعد وفي رواية بعضهم صومي عن أمك ، قال وتشهدله بالصحة رواية عبد الله بن عطاء المدني قال حدثني عبد الله بن بريدة الأسلمي عن أبيه قال كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأتته امرأة فقالت يا رسول الله إني كنت تصدقت بوليدة على أمي فانت وبقيت الوليدة قال قد وجب أجرك ورجعت إليك في الميراث ، قالت فانها ماتت وعليها صوم شهر ؟ قال صومي عن أمك ، قالت وإنما ماتت ولم تحج ؟ قال فحجى عن أمك . رواه مسلم في صحيحه من أوجه عن عبد الله بن عطاء انتهى .

(قلت) وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صيام شهر أفأقضيه عنها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لو كان عليا دين أكنت قاضيه عنها ؟ قال نعم . قال فدين الله أحق أن يقضى .

ورواه أبو خيثمة حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن الأعمش . فذكره .

ورواه النسائي عن قتيبة بن سعيد حدثنا عبثر عن الأعمش . فذكره .

فهذا غير حديث أم سعد إسنادا ومقتنا ؛ فان قصة أم سعد رواها مالك عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سعد بن عبادَةَ استفتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال إن أمي ماتت وعليها نذر ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم اقتنه عنها . هكذا أخرجاه في الصحيحين .

فمب أن هذا هو المحفوظ في هذا الحديث أنه نذر مطلق لم يسم فهل يكون هذا في حديث الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير على أن ترك استفصال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لسعد في النذر هل كان صلاة أو صدقة أو صياما مع أن الناذر قد ينذر هذا وهذا يدل على أنه لا فرق بين قضاء نذر الصيام والصلاة وإلا لقال له ما هو النذر فان النذر إذا انقسم إلى قسمين نذر يقبل القضاء عن الميت ونذر لا يقبله ، لم يكن من الاستفصال .

فصل

ونحن نذكر أقوال أهل العلم في الصوم عن الميت لثلاثين يوما في المسألة إجماعا بخلافه .

(قال) عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يصام عنه في النذر ويطعم عنه في قضاء رمضان وهذا مذهب الإمام أحمد .

(وقال) أبو ثور يصام عنه النذر والفرض ، وكذلك قال داود بن علي وأصحابه يصام عنه نذرا كان أو فرضاً .

(وقال) الأوزاعي يجعل وليه مكان الصوم صدقة فان لم يجد صام عنه وهذا قول سفيان الثوري في إحدى الروايتين عنه .

(وقال) أبو عبيد القاسم بن سلام يصام عنه النذر ويطعم عنه في الفرض .

(وقال) الحسن إذا كان عليه صيام شهر فصام عنه ثلاثون رجلا يوما واحدا جاز .

فصل

وأما قولكم أنه يصل إليه في الحج ثواب النفقة دون أفعال المناسك فدعوى مجردة بلا برهان والسنة تردّها فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال حج عن أبيك ، وقال للمرأة حجى عن أمك ، فأخبر أن الحج نفسه عن الميت ولم يقل ان الانفاق هو الذي يقع عنه .

والذي سمعه يلبي عن شبرمة : حج عن نفسك ، ثم حج عن شبرمة .
ولما سألت المرأة عن الطفل الذي معها فقالت لهذا حج ؟ قال نعم ، ولم يقل إنما له ثواب
الاتفاق بل أخبر أن له حجاً مع أنه لم يفعل شيئاً بل وليه ينوب عنه في أفعال المناسك .
ثم إن النائب عن الميت قد لا ينفق شيئاً في حجته غير نفقة مقامه فما الذي يجعل نفقة
ثواب نفقة مقامه للمحجوج عنه وهو لم ينفقها على الحج بل تلك نفقته أقام أم سافر ، فهذا
القول ترده السنة والقياس . والله أعلم .

فصل

فإن قيل فهل تشترطون في وصول الثواب أن يهديه بلفظه أم يكفي في وصوله مجردنية
العامل أن يهديها إلى الغير ؟

قيل السنة لم تشترط للتلفظ بالاهداء في حديث واحد بل أطلق صلى الله عليه وآله
وسلم الفعل عن الغير كالصوم والحج والصدقة ولم يقل لفاعل ذلك وقل اللهم هذا عن فلان
ابن فلان والله سبحانه يعلم نية العبد وقصده بعمله فان ذكره جاز وإن ترك ذكره واكتفى
بالنية والقصد وصل إليه ولا يحتاج أن يقول اللهم إني صائم غدا عن فلان ابن فلان ،
ولهذا أعلم اشترط من اشترط نية الفعل عن الغير قبله ليكون واقفاً بالقصد عن الميت
فأما إذا فعله لنفسه ثم نوى أن يجعل ثوابه للغير لم يصر للغير بمجرد النية كالونوى أن يهب
أو يعتق أو يتصدق لم يحصل ذلك بمجرد النية .

وبما يوضح ذلك أنه لو بنى مكاناً بنية أن يجعله مسجداً أو مدرسة أو ساقية ونحو ذلك
صار وفقاً بفعله مع النية ولم يحتاج إلى تلفظ .

وكذلك لو أعطى الفقير مالا بنية الزكاة سقطت عنه الزكاة وإن لم يتلفظ بها .
وكذلك لو أدى عن غيره ديناً حياً كان أو ميتاً سقط من ذمته وإن لم يقل هذا عن فلان .
فإن قيل فهل يتعين عليه تعليق الإهداء بأن يقول : اللهم إن كنت قبلة هذا العمل
وأثبتني عليه فاجعل ثوابه لفلان أم لا ؟

قيل لا يتعين ذلك لفظاً ولا قصداً بل لافائدة في هذا الشرط فإن الله سبحانه إنما يفعل هذا ،
سواء شرطه أو لم يشرطه . فلو كان سبحانه يفعل غير هذا بدون الشرط كان في الشرط فائدة .
(وأما قوله) : اللهم ان كنت اثبتني على هذا فاجعل ثوابه لفلان ، فهو بناء على أن
الثواب يقع للعامل ثم ينتقل منه إلى من أهدى له ، وليس كذلك ، بل إذا نوى حال الفعل

انه عن فلان وقع الثواب أولا عن المعمول له كما لو اعتق عبده من غيره لا نقول ان الولا يقع للمعتق ثم ينتقل عنه إلى المعتق عنه فهكذا هذا . وباقه التوفيق .

فإن قيل فما الأفضل انه يهدى إلى الميت ؟ قيل الأفضل ما كان أنفع في نفسه فالمعتق عنه والصدقة أفضل من الصيام عنه ، وأفضل الصدقة ما صادفت حاجة من التصدق عليه وكانت دائمة مستمرة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الصدقة سقى الماء وهذا في موضع يقل فيه الماء ويكثر فيه العطر وإلا فسقى الماء على الأنهار والفقير لا يكون أفضل من إطعام الطعام عند الحاجة وكذلك الدعاء والاستغفار له إذا كان بصدق من الداعي وإخلاص وتضرع فهو في موضعه أفضل من الصدقة عنه كالصلاة على الجنائز والوقوف للدعاء على قبره .

وبالجمله فأفضل ما يهدى إلى الميت المعتق والصدقة والاستغفار له والدعاء له والحج عنه . وأما قراءة القرآن واهدائها له تطوعا بغير أجره فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج .

فإن قيل فهذا لم يكن معروفاً في السلف ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير ولا أرشدهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم اليه وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدتهم اليه ولكانوا يفعلونه .

فالجواب أن مورد هذا للسؤال ان كان معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار .

قيل له ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال وهل هذا إلا تفریق بين المتماثلات ، وان لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع .

وأما السبب الذي لأجله لم يظهر ذلك في السلف فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ ويهدى إلى الموتى ولا كانوا يعرفون ذلك البتة ولا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده^(١) كما يفعل الناس اليوم ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت بل ولا ثواب هذه الصدقة والصوم .

^(١) قلت : قد مر في أول هذا الكتاب عن الشعبي قال كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرءون القرآن .

ثم يقال لهذا القائل لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال اللهم ثواب هذا الصوم لفلان لعجزت ، فإن القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر فلم يكونوا ليشهدوا على الله بإيصال ثوابها إلى أمواتهم .

فإن قيل فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرشدهم إلى الصوم والصدقة والحج دون القراءة .

قيل هو صلى الله عليه وآله وسلم لم يبتدئهم بذلك بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم فهذا سأله عن الحج عن ميتة فاذن له ، وهذا سأله عن الصيام عنه فاذن له ، وهذا سأله عن الصدقة فاذن له ، ولم يمنعهم مما سوى ذلك .

وأى فرق بين وصول ثواب الصوم الذى هو مجرد نية وإمساك بين وصول ثواب القراءة والذكر .

والقائل أن أحداً من السلف لم يفعل ذلك قائل ما لا علم له به فإن هذه شهادة على نبي ما لم يعلمه فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك ولا يشهدون من حضرهم عليه ، بل يكفى اطلاع علام الغيوب على نياتهم ومقاصدهم لاسيما والتلفظ بنية الإهداء لا يشترط كما تقدم .

وسر المسألة أن الثواب ملك للعامل فإذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أو صله الله إليه ، فما الذى خص من هذا ثواب قراءة القرآن وحجر على العبد أن يوصله إلى أخيه ، وهذا عن سائر الناس حتى المنكرين فى سائر الأعمار والأمصار من غير تكبير من العلماء .

فإن قيل فما تقولون فى الإهداء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قيل من الفقهاء المتأخرين من استجبه ومنهم من لم يستجبه ورآه بدعة فإن الصحابة لم يكونوا يفعلونه ، إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم له أجر كل من عمل خيراً من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء لأنه هو الذى دل أمته على كل خير وأرشدهم ودعاهم إليه ، ومن دعا إلى هدى فله من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، وكل هدى وعلم فإنما ناله أمته على يده فله مثل أجر من اتبعه أهداه إليه أو لم يهده . والله أعلم .

المسألة السابعة عشرة

وهي هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة ؟

وإذا كانت محدثة مخلوقة وهي من أمر الله فكيف يكون أمر الله محدثاً مخلوقاً؟ وقد سبحانه أنه نفع في آدم من روحه فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا؟ وما حقيقة الإضافة؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة .

فهذه مسألة زل فيها عالم ، وضل فيها طوائف من بني آدم . وهدى الله اتباع رسوله فيها للبعث المبين والصواب المستقيم ، فأجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربية مدبرة . هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، أما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث ، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق ، وبأن الله تعالى أضافها إليه كما أضاف إليه خلقه وقدرته وسمعه وبصره ويده وتوقف آخرون فقالوا لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة

وسئل عن ذلك حافظ أصبهان أبو عبد الله بن منده قال أما بعد فإن سائلاً سألني عن الروح التي جعلها الله سبحانه قوام نفس الخلق وأبدانهم وذكر أن أقواماً تكلموا في الروح وزعموا أنها غير مخلوقة وخص بعضهم منها أرواح القدس وأنها من ذات الله ، قال وأنا أذكر اختلاف أقاويل متقدميهم وأبين ما يخالف أقاويلهم من الكتاب والآثر وأقاويل الصحابة والتابعين وأهل العلم ، وأذكر بعد ذلك وجوه الروح من الكتاب والآثر وأوضح خطأ المتكلم في الروح بغير علم وأن كلامهم يوافق قول جهم وأصحابه . فنقول وبالله التوفيق أن الناس اختلفوا في معرفة الأرواح ومحلها من النفس .

(فقال) بعضهم الأرواح كلها مخلوقة ، وهذا مذهب أهل الجماعة والآثر واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة .

(وقال) بعضهم الأرواح من أمر الله أخفى الله حقيقتها وعلها عن الخلق واحتجوا بقول الله تعالى (قل الروح من أمر ربي) .

(وقال) بعضهم الأرواح نور من أنوار الله تعالى وحياة من حياته واحتجت بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره . ثم ذكر الخلاف في الأرواح هل تموت أم لا ؟ وهل تعذب مع الأجساد في البرزخ وفي مستقرها بعد الموت ؟ وهل هي النفس أو غيرها .

(وقال) محمد بن نصر المروزي في كتابه تأويل صنف من الزنادقة وصنف من الروافض في روح آدم ما تأولته النصارى في روح عيسى وما تأوله قوم من أن الروح انفصل من ذات الله فصار في المؤمن فبعد صنف من النصارى عيسى ومريم جميعاً لأن عيسى عندهم روح من الله صار في مريم فهو غير مخلوق عندهم .

وقال صنف من الزنادقة وصنف من الروافض أن روح آدم مثل ذلك أنه غير مخلوق وتأولوا قوله تعالى (ونفخت فيه من روحي) وقوله تعالى (ثم سواه ونفخ فيه من روحي) فزعموا أن روح آدم ليس بمخلوق كما تأول من قال إن النور من الرب غير مخلوق ، قالوا ثم صاروا بعد آدم في الوصي بعده ثم هو في كل نبي ووصى إلى أن صار في علي ثم في الحسن والحسين ثم في كل وصى وإمام فيه يعلم الإمام كل شيء ولا يحتاج أن يتعلم من أحد .

ولاخلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنديه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واختبرها ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه قال تعالى (وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية روح الأدمى مخلوقة مددعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد ابن نصر المروزي الإمام المشهور الذي هو من أعلم أهل زمانه بالإجماع ولا اختلاف وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال في (كتاب اللفظ) لما تكلم على الروح قال النسم الأرواح . قال وأجمع الناس على أن الله تعالى هو فالق الحبة وباريء النسم أي خالق الروح . وقال أبو اسحاق ابن شاقلا فيما أجاب به في هذه المسألة سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة هي أو غير مخلوقة ؟ قال وهذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب أن الروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ وردوا على من يزعّم أنها غير مخلوقة ، وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده في ذلك كتاباً كبيراً ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره والشيخ أبو سعيد الخزاز وأبو يعقوب النهـرجوري والقاضي أبو يعلى وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد تكبيرهم على من يقول ذلك في روح عيسى ابن مريم فكيف بروح

غيره كما ذكره الإمام أحمد فيما كتبه في مجلته في الرد على الزنادقة والجهمية ، ثم أن الجهمي ادعى أمراً فقال أنا أجد آية في كتاب الله مما يدل على أن القرآن مخلوق قول الله تعالى (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه) وعيسى مخلوق ، قلنا إن الله تعالى منعك الفهم للقرآن ان عيسى تجرى عليه ألقاها لا تجرى على القرآن لانا نسميه مولوداً وطفلاً وصيباً وغلماً يأكل ويشرب وهو مخاطب بالامر والنهي يجرى عليه الخطاب والوعد والوعيد ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم فلا يحل لنا أن نقول في القرآن ما نقول في عيسى فهل سمعتم الله يقول في القرآن ما قال في عيسى ؟ ولكن المعنى في قوله تعالى (إن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه) فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له كن ، فكان عيسى يكن وليس عيسى هو كن ولكن كان يكن . فكان من الله قول وليس كن مخلوقاً وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى وذلك أن الجهمية قالوا روح الله وكلته إلا أن كلمته مخلوقة . وقالت النصارى عيسى روح الله وكلمته من ذاته كما يقال هذه الحرقه من هذا الثوب قلنا نحن أن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة وإنما الكلمة قول الله تعالى كن وقوله (وروح منه) يقول من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) يقول من أمره وتفسير روح الله إنما معناها بكلمة الله خلقها كما يقال عبد الله وسماه الله وأرض الله فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة فكيف بسائر الأرواح وقد أضاف الله إليه الروح الذي أرسله إلى مريم وهو عبده ورسوله ولم يدل على ذلك أنه قديم غير مخلوق فقال تعالى (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً) فهذا الروح هو روح الله وهو عبده ورسوله .

وسندكر إن شاء الله تعالى أقسام المضاف إلى الله وأنى يكون المضاف صفة له قديمة وانى يكون مخلوقاً وماضابط ذلك .

فصل

والذى يدل على خلقها وجوه :

(الوجه الاول) قول الله تعالى (الله خالق كل شئ) فهذا اللفظ عام لا تخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل في ذلك صفاته فانها داخله في مسمى باسمه فانه سبحانه هو الإله الموصوف بصفات الكمال فإله وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته داخل في مسمى اسمه ليس داخل في الأشياء المخلوقة كما لم تدخل ذاته فيها فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق .

ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هي الله ولا صفة من صفاته وإنما هي مصنوع من مصنوعاته فوقوع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس .

(الوجه الثاني) قوله تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) وهذا الخطاب لروحه وبدنه ليس لبدنه فقط فإن البدن وحده لا يفهم ولا يخاطب ولا يعقل وإنما الذي يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح .

(الوجه الثالث) قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) .

(الوجه الرابع) قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) وهذا الخبر إنما يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقوله الجمهور وأما أن يكون واقعا على الأرواح قبل خلق الأجساد كما يقوله من يزعم ذلك ، وعلى التقدير فهو صريح في خلق الأرواح .

(الوجه الخامس) النصوص الدالة على أنه سبحانه ربنا ورب آباءنا الأولين ورب كل شيء وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا فالأرواح مربية له مملوكة كما أن الأجسام كذلك وكل مربوب مملوك فهو مخلوق .

(الوجه السادس) أول سورة في القرآن وهي الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه . أحدها قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) والأرواح من جملة العالم فهو ربها . (الثاني) قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) فالأرواح عابدة له مستعينة وإن كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعاناً بها .

(الثالث) أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم .

(الرابع) أنها منعم عليها مرحومة ومغضوب عليها وضالة شقية وهذا شأن المربوب والمملوك لا شأن القديم غير المخلوق .

(الوجه السابع) النصوص الدالة على أن الإنسان عبد بجملة وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه بل عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع كما أنه تبع لها في الأحكام وهي التي تحركه وتستعمله وهو تبع لها في العبودية .

(الوجه الثامن) قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئاً مذكوراً فإنه إنما هو إنسان بروحه لا ببدنه فقط كما قيل :

يا عادم الجسم كم تفنى بخدمته فأنف بالروح لا بالجسم إنسان

(الوجه التاسع) النصوص الدالة على أن الله سبحانه كان ولم يكن شيء غيره كما ثبت في صحيح البخارى من حديث همران بن حصين أن أهل اليمن قالوا يارسول الله جئناك لنفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر ، فقال كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوى وجودها وجوده تعالى الله عن ذلك هلوأ كبيراً بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره في أوليته بوجه .

(الوجه العاشر) النصوص الدالة على خلق الملائكة وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها وهم مخلوقون قبل خلق الانسان وروحه فإذا كان الملك الذى يحدث الروح في جسد ابن آدم بنفخته مخلوقاً فكيف تكون الروح الحادثة بنفخه قديمة؟ وهؤلاء الفاطرون يظنون ان الملك يرسل إلى الجنين بروح قديمة أزلية بنفخها فيه كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه وهذا ضلال وخطأ وإنما يرسل الله سبحانه إليه الملك فينفخ فيه نفخة تحدث له الروح بواسطة تلك النفخة فتكون النفخة هي سبب حصول الروح وحدوثها له كما كان الوطء والانزال سبب تكوين جسمه ، والغذاء سبب نموه ، فمادة الروح من نفخة الملك ومادة الجسم من صب الماء في الرحم ، فهذه مادة سماوية وهذه مادة أرضية فمن الناس من تغلب عليه المادة السمائية فتصير روحه عالية شريفة تناسب الملائكة ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية ترابية مهينة تناسب الارواح السفلية فالملك أبو لروحه والتراب أب لبده وجسمه .

(الوجه الحادى عشر) حديث أبى هريرة رضى الله عنه الذى في صحيح البخارى وغيره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأرواح جنود مجنودة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف والجنود المجنودة لا تكون إلا مخلوقة ، وهذا الحديث رواه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين وسلمان الفارسي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو وعلى بن أبى طالب وعمرو بن عبسة رضى الله عنهم .

(الوجه الثانى عشر) أن الروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب قال الله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) والأنفس هاهنا هي الأرواح قطعاً . وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى قتادة الأنصارى عن أبىه قال سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفر ذات ليلة فقلنا يارسول الله لو عرست بنا ، فقال إني أخاف أن تاموا فن يوقظنا للصلاة؟ فقال بلال أنا يارسول الله فمرس بالقوم فاضطجعوا واستند بلال إلى راحته فغلبته عيناه فاستيقظ

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد طلع جانب الشمس فقال يا بلال أين ما قلت لنا ؟ فقال والذي بعثك بالحق ما القيت على نومة مثلاً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله قبض أرواحكم حين شاء ورددتها حين شاء فهذه الروح المقبوضة هي النفس التي يتوفاها الله حين موتها وفي منامها التي يتوفاها ملك الموت ، وهي التي تتوفاها رسل الله سبحانه وهي التي يجاس الملك عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرها ويكفنها بكفن من الجنة أو النار ويصعد بها إلى السماء فتصلى عليها الملائكة أو تلعنها وتوقف بين يدي ربها فيقضى فيها أمره ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه فيسأل ويمتحن ويعاقب وينعم ، وهي التي تجعل في أجواف الطير الحضر تأكل وتشرب من الجنة ، وهي التي تعرض على النار غدواً وعشيا ، وهي التي تؤمن وتكفر وتطيع وتمسى ، وهي الأمانة بالسوء وهي اللوامة وهي المظمنة إلى ربها وأمره وذكره ، وهي التي تعذب وتعم وتسعد وتشقى وتحبس وترسل وتصح وتسقم وتلد وتالم وتخاف وتحزن وما ذلك إلا سمات مخلوق مبدع ، وصفات منشأ مخترع ، وأحكام مربوب مدبر مصرف تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول عند نومه : اللهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها ، لك بماتها ومحياها فإن أمسكتها فارحمتها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ، وهو تعالى باري النفوس كما هو باري الأجساد قال تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) قيل من قبل أن نبرأ المصيبة وقيل من قبل أن نبرأ الأرض ، وقيل من قبل أن نبرأ الأنفس وهو أولى لأنه أقرب مذكور إلى الضمير ، ولو قيل يرجع إلى الثلاثة أي من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجه .

وكيف تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها وشواهد الفقر والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوبة مصنوعة وأن وجود ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربها وفاطرها ليس لها من نفسها إلا العدم ، فهي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، لا تستطيع أن تأخذ من الخير إلا ما أعطها وتتق من الشر إلا ما وناها ولا تهتدي إلى شيء من صالح دنياها وأخرها إلا بهداه ، وتصلح إلا بتوفيقه لها وإصلاحه إياها ، ولا تعلم إلا ما علمها ، ولا تعدى ما أهدىها ، فهو الذي خلقها فسواها وأهدىها لغيرها وتقواها ، فأخبر سبحانه أنه خالقها ومبدعها وخالق أفعالها من الفجور والتقوى خلافاً لمن يقول أنها ليست مخلوقة ولمن يقول أنها وإن كانت مخلوقة فليس خالقاً لأفعالها بل هي التي تخلق أفعالها وهما قولان لأهل الضلال والغي .

ومعلوم انها لو كانت قديمة غير مخلوقة لكانت مستغنية بنفسها في وجودها وصفاتها وكالها وهذا من ابطال الباطل . فإن فقرها اليه سبحانه في وجودها وكالها وصلاحتها هو من لوازم ذاتها ليس معللاً بعلته فإنه أمر ذاتي لها كما أن غنى ربها وفاطرها ومبدعها من لوازم ذاته ليس معللاً بعلته فهو سبحانه الغنى بالذات وهي الفقيرة اليه بالذات فلا يشاركه سبحانه في غناه مشارك كما لا يشاركه في قدمه وربوبيته ومملكته التام . وكاله المقدس مشارك ، فشواهد الخلق والحدوث على الأرواح كشواهد على الأبدان .

قال تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد) وهذا الخطاب بالفقر اليه للأرواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط ، وهذا الغنى التام لله وحده لا يشاركه فيه غيره وقد أرشد الله سبحانه عباده إلى أوضح دليل على ذلك بقوله (فلولا إذا بلغت الخلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلولا ان كنتم غير مدينين نرجمونها إن كنتم صادقين) أي فلولا ان كنتم غير مملوكين ومقهورين ومربوبين ومجازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الأبدان إذا وصلت إلى هذا الموضع أو لاتعدون بذلك أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجزية بعملها .

ركلما تقدم ذكره في هذا الجواب من أحكام الروح وشأنها ومستقرها بعد الموت فهو دلائل على أنها مخلوقة مربوبة مدبرة ليست بقديمة .

وهذا الأمر أوضح من أن تساق الأدلة عليه ولولا ضلال من المتصوفة وأهل البدع ومن قصر فهمه في كتاب الله وسنة رسوله فأتى من سوء الفهم لامن النص تكلموا في أنفسهم وأرواحهم بما دل على أنهم من أجهل الناس بها ، وكيف يمكن من له أدنى مسكة من عقل أن ينكر أمراً تشهد عليه به نفسه وصفاته وأفعاله وجوارحه وأعضاؤه بل تشهد به السموات والأرض والخليقة لله سبحانه في كل ماسواه آية بل آيات تدل على أنه مخلوق مربوب وأنه خالقه وربّه وبارؤه ومليكه ولو جحد ذلك فعه شاهد عليه .

فصل

وأما ما احتجت به هذه الطائفة فأما ما أتوا به من اتباع مثابه القرآن وا حدود عن محكمه فهذا شأن كل ضلال ومبتدع .

فحكم القرآن من أوله إلى آخره يدل على أن الله تعالى خالق الأرواح ومبدعها .

وأما قوله تعالى (قل الروح من أمر ربي) فمعلوم قطعاً أنه ليس المراد هاهنا بالامر للطلب الذي هو أحد أنواع الكلام فيكون المراد أن الروح كلامه الذي يأمر به ، وإنما المراد

بالامر هاهنا المأمور وهو عرف مستعمل في لغة العرب وفي القرآن منه كثير كقوله تعالى (أنى أمر الله) أى مأموره الذى قدره وقضاه وقال له كن فيكون ، وكذلك قوله تعالى (فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك) أى مأموره الذى أمر به من اهلاكم ، وكذلك قوله تعالى (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر) وكذلك الخلق يستعمل بمعنى المخلوق كقوله تعالى للجنة أنت رحمتى فليس فى قوله تعالى (قل الروح من أمر ربي) ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما ، وقد قال بعض السلف فى تفسيرها جرى بأمر الله فى أجساد الخلق وبقدرته استقر .

وهذا بناء على أن المراد بالروح فى الآية روح الإنسان وفى ذلك خلاف بين السلف والخلف وأكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها فى الآية ليست أرواح بنى آدم بل هو الروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم ، وقد ثبت فى الصحيح من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينا أنا أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى حرة المدينة وهو متكئ على عسيب فررنا على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح ، وقال بعضهم لا تسألوه عسى أن يخبر فيه بشىء تكرهونه وقال بعضهم نسأله فقام رجل فقال يا أبا القاسم ما الروح ؟ فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ففعلت أنه يوحى إليه فقمت فلما تجلى عنه قال (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحى وذلك هو الروح الذى عند الله لا يعلمها الناس .

وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة .

(فإن قيل) فقد قال أبو الشيخ حدثنا الحسين بن محمد بن إبراهيم أنبأنا إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن السدى عن أنى مالك عن ابن عباس قال بعثت قريش عقبة بن أبى معيط وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا لهم انه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبي وليس على ديننا ولا على دينكم ، قالوا فمن تبعه ؟ قالوا سفلتنا والضعفاء والمبيد ومن لاخير فيه وأما أشراف قومه فلم يتبعوه ، فقالوا انه قد أظل زمان نبي يخرج وهو على ما تصفون من أمر هذا الرجل فأتوه فاسألوه عن ثلاث خصال تأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي صادق ، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب ، سلوه عن الروح التى نفع الله تعالى فى آدم فان قال لكم هى من الله فقولوا كيف يعذب الله فى النار شيئا هو

منه ؟ فسأل جبريل عنها فأنزل الله عز وجل (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) يقول : هو خلق من خلق الله ليس هو من الله . ثم ذكر باقي الحديث .

قيل مثل هذا الاسناد لا يحتج به فانه من تفسير السدي عن أبي مالك وفيه أشياء منكورة وسياق هذه القصة في السؤال من الصحاح والمسائيد كلها تخالف سياق السدي ، وقد رواها الأعمش والمغيرة بن مقسم عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ملا من اليهود وأنا أمشي معه فسألوه عن الروح قال فسكت فظننت أنه يوحى إليه فنزلت (ويسألونك عن الروح) يعني اليهود (قل الروح من أمر ربي وما أوتوا^(١) من العلم إلا قليلا) . وكذلك هي في قراءة عبد الله فقالوا كذلك نجد مثله في التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل . رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة .

(وروى) يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنها قال أتت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه عن الروح فلم يجبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشيء فأنزل الله عز وجل (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

فهذا يدل على ضعف حديث السدي وأن السؤال كان بمكة فان هذا الحديث وحديث ابن مسعود صحيح في أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من اعلام الله له وما أنزله عليه .

وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب فاما أن تكون من قبل الرواة أو تكون أقواله قد اضطربت فيها ونحن نذكر ذلك فقد ذكرنا رواية السدي عن أبي مالك عنه ، ورواية داود بن أبي هند عن عكرمة عنه تخالفها ، وفي رواية داود بن أبي هند هذه اضطراب فقال مسروق بن المرزبان وإبراهيم بن أبي طالب عن يحيى بن زكريا عنه أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم . الحديث .

(وقال) محمد بن نصر المروزي حدثنا اسحاق أنبأنا يحيى بن زكريا عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال قالت قريش لليهود أعطونا شيئا لسأل عنه هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح فنزلت (ويسألونك عن الروح) الآية .

^(١) هكذا قرأها عبد الله كما في كتب التفسير . وكان في الاصل : وما أوتيتم . على القراءة المشهورة .

وهذا يخالف الرواية الأخرى عنه وحديث ابن مسعود .

وعن ابن عباس رواية ثالثة قال هشيم حدثنا أبو بشر عن مجاهد عن ابن عباس قل الروح أمر من أمر الله عز وجل وخلق من خلق الله وصور مثل صور بني آدم وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح . وهذا يدل على أنها غير الروح التي في ابن آدم .

وعنه رواية رابعة قال ابن منده زوى عبد السلام بن حرب عن خصيف عن مجاهد عن ابن عباس (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) قد نزل من القرآن بمنزلة كن نقول كما قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) ثم ساق من طريق خصيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان لا يفسر أربعة أشياء الرقيم والغساق والروح .
وقوله تعالى (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) .

وعنه رواية خامسة رواها جوير عن الضحاك عنه أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الروح فقال قال الله تعالى (قل الروح من أمر ربي) يعنى خلقاً من خلقى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) يعنى لو سئلتهم عن خلق أنفسكم وعن مدخل الطعام والشراب ومخرجهما ما وصفتهم ذلك حق صفته وما اهتديتم لصفتهما .

وعنه رواية سادسة روى عبد الغنى بن سعيد حدثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى (ويسألونك عن الروح) وذلك أن قريشاً اجتمعت فقال بعضهم لبعض والله ما كان محمد يكذب ولا قد نشأ فينا بالصدق والأمانة فأرسلوا جماعة إلى اليهود فاسألوهم عنه وكانوا مستبشرين به ويكثرون ذكره ويدعون نبوته ويرجون نصرته موقنين بأنه سيهاجر إليهم ويكونون له أنصاراً فاسألوهم عنه فقالت لهم اليهود سلوه عن ثلاث ، سلوه عن الروح وذلك أنه ليس في التوراة قصته ولا تفسيره إلا ذكر اسم الروح فأنزل الله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) يريد من خلق ربي عز وجل .

والروح في القرآن على عدة أوجه :

(أحدها) الوحي كقوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) وقوله تعالى (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) وسمى الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

(الثاني) القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيديهم بروح منه) .

(الثالث) جبريل كقوله تعالى (نزل به الروح الامين على قلبك) وقال تعالى (من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله) وهو روح القدس قال تعالى (قل نزله روح القدس) .

(الرابع) الروح التي سأل عنها اليهود فاجيبوا بانها من امر الله وقد قيل انها الروح المذكورة في قوله تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون) وانها الروح المذكور في قوله (تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم) .

(الخامس) المسيح ابن مريم قال تعالى (انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه) واما ارواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن الا بالنفس قال تعالى (يا ايها النفس المطمئنة) وقال تعالى (ولا أقسم بالنفس اللوامة) وقال تعالى (ان النفس لامارة بالسوء) وقال تعالى (اخرجوا انفسكم) وقال تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) وقال تعالى (كل نفس ذائقة الموت) واما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح . والمقصود ان كونها من امر الله لا يدل على قدمها وانها غير مخلوقة .

فصل

واما استدلالهم باضافتها اليه سبحانه بقوله تعالى (ونفخت فيه من روحي) فينبغي ان يعلم ان المضاف الى الله سبحانه نوعان ، صفات لا تقوم بانفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر ، فهذه اضافة صفة الى الموصوف بها فعله وكلامه وإرادته وقدرته وحياته وصفات له غير مخلوقة وكذلك وجهه ويده سبحانه .

(والثاني) اضافة اعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح ، فهذه اضافة مخلوق الى خالقه ومصنوع الى صانعه لكنها اضافة تقتضي تخصيصا وتشريفا يتميز به المضاف عن غيره كبيت الله وإن كانت البيوت كلها ملكا له وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكه وخلقه لكن هذه اضافة الى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة الى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده ، فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد والخاصة تقتضي الاختيار والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) واطافة الروح اليه من هذه الإضافة الخاصة لامن للعامة ولامن باب إضافة الصفات فتأمل هذا الموضوع فإنه بخلصك من صلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس فان قيل فما تقولون في قوله تعالى (ونفخت فيه من روحي) فأضاف النفخ الى نفسه وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى كما في قوله (خلقت يدي) ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله صلى

الله عليه وآله وسلم فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلّمك أسماء كل شيء . فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك وقد قال الله تعالى : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي) فهو الذي سواه بيده وهو الذي نفخ فيه من روحه ؟ .

قيل هذا الموضع الذي أوجب لهذه الطائفة أن قالت بقدوم الروح ، وتوقف فيها آخرون . ولم يفهموا مراد القرآن . فأما الروح المضافة إلى الرب فهي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا . وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم (التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها وكان النفخ ، مضافاً إلى الله أمراً وإذناً وإلى الرسول مباشرة .

يبقى هنا أمران :

(أحدهما) أن يقال فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر فما وجه تسمية المسيح روح الله ؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فما خاصية المسيح ؟ .

(الثاني) أن يقال فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح هو الذي نفخها فيه باذن الله كما نفخها في مريم أم الرب تعالى هو الذي نفخها بنفسه كما خلقه بيده ؟ قيل لعمر الله انهما سؤالان مهان ! فأما الأول فالجواب عنه أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الله الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه وهو روح خاص من بين سائر الأرواح وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار فإن الله سبحانه وكل بالرحم ملكا ينفخ الروح في الجنين فيكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته .

وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع فإن نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن يكون هناك وطء . وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلق المسيح من أم ولا كخلق سائر النوع من أب وأم . ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده ، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء خلق الله له بيده ونفخ فيه من روحه ، وأسجد ملائكته له ، وتعليمه أسماء كل شيء فنفخه فيه من روحه يستلزم نافعاً ونفخاً ومنفوخاً منه فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله فمنها سرت النفخة في طينة آدم والله تعالى هو الذي نفخ في طينته من

نلك الروح هذا هو الذي دل عليه النص . وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده أو أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم عليها السلام فهذا يحتاج إلى دليل . والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه أن اليد غير مخلوقة والروح مخلوقة والخلق فعل من أفعال الرب . أما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه ؟ . هذا ما لا يحتاج إلى دليل ، وهذا بخلاف النفخ في فرج مريم فإنه مفعول من مفعولاته وأضافه إليه لأنه باذنه وأمره فنفخه في آدم هل هو فعل له أو مفعول وعلى كل تقدير فالروح التي هي منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة وهي مادة روح آدم فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد .

المسألة الثامنة عشرة

وهي تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها

ففي المسألة ثلثان فيها قولان معروفان حكاهما شيخ الإسلام وغيره . وعن ذهب إلى تقدم خلقها محمد بن نصر المروزي وأبو محمد بن حزم وحكاه ابن حزم إجماعاً . ونحن نذكر حجج الفريقين وما هو الأولى منها بالصواب .

قال من ذهب إلى تقدم خلقها على خلق البدن قال الله تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا لللائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) قالوا ثم للترتيب والمهلة فقد تضمنت الآية أن خلقها مقدم على أمر الله لللائكة بالسجود لآدم ومن المعلوم قطعاً أن أبداننا حادثة بعد ذلك فعلم أنها الأرواح . قالوا ويدل عليه قوله سبحانه (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) قالوا وهذا الاستنطاق والاشهاد إنما كان لأرواحنا إذ لم تكن الأبدان حينئذ موجودة . ففي الموطأ (حدثنا) مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عنها فقال خلق الله آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون ، وخلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون فقال رجل يا رسول الله فقيم العمل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار . قال الحناكم هذا حديث على شرط مسلم

وروى الحاكم أيضاً من طريق هشام بن سعد ^(۱) عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة امثال الذر ، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور . ثم عرصهم على آدم فقال من هؤلاء يارب ؟ قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلاً منهم أعجمي وبيص ما بين عينيهِ فقال يارب من هذا ؟ فقال هذا ابنك داود يكون في آخر الأمم قال كم جعلت له من العمر ؟ قال ستين سنة قال يارب زده من عمري أربعين سنة ، فقال الله تعالى إذا يكتب ويختتم فلا يدل فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت قال أو لم يبق من عمري أربعون سنة ؟ فقال أو لم تجعلها لابنك داود ؟ قال فجحدت ذريته ونسى فذسيت ذريته وخطى بخطت ذريته — قال هذا على شرط مسلم . ورواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح . ورواه الامام أحمد من حديث ابن عباس قال لما نزلت آية الدين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان أول من جحد آدم وزاد محمد بن سعد ثم أكمل الله لآدم الف سنة ولد داود مائة سنة .

وفي صحيح الحاكم أيضاً من حديث أبي جعفر الرازي حدثنا الربيع بن أنس عن أبي العافية عن أبي بن كعب في قوله تعالى : (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم الآية) قال جمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن إلى يوم القيامة فجعلهم أرواحاً ثم صورهم واستطابهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) قال فاني أشهد عليكم السموات السبع والأرض والنسج وأشهد عليكم أباكم آدم (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) فلا تشاركوا بي شيئاً فاني أرسل اليكم رسلي يذكر ونسكم عهدي وميثاقى وأنزل عليكم كتبي ، فقولوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ، ورفع لهم أبوم آدم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة وغير ذلك ، فقال رب لو سويت بين عبادك ، فقال انى أحب أن أشكر ، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج وخصوا بميثاق آخر بالرسالة والنبوة فذلك قوله (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) وهو قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطراً لله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وهو قوله تعالى (هذا نذير من النذر الأولى) وفوقه تعالى (وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) وكان روح عيسى من تلك الأرواح التي أخذ عليها الميثاق فأرسل ذلك الروح إلى مريم حين اتلذت من أهلها مكاناً شرقياً فدخل من فيها وهذا اسناد صحيح .

(۱) في الاصل : زيد . خطأ والحديث في المستدرک - ج ۲ ص ۲۲۵

(فقال) اسحاق بن راهويه حدثنا بغية بن الوليد قال أخبرني الريدي محمد بن الوليد عن راشد بن سعد عن عبد الرحمن بن قتادة البصرى عن أبيه عن هشام بن حكيم بن حزام أن رجلا قال يا رسول الله أتبتدأ الاعمال أم قد مضى القضاء ؟ فقال ان الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه فقال هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، فأهل الجنة يسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار يسرون لعمل أهل النار .

(قال) اسحاق وأبانا النضر حدثنا أبو معشر عن سعيد المقبرى ونافع مولى الزبير عن أبي هريرة قال لما أراد الله أن يخلق آدم - فذكر خلق آدم - فقال له يا آدم أي يدي أحب إليك أن أريك ذريتك فيها ؟ فقال يمين ربى وكلتا يدي ربى يمين فبسط يمينه فاذا فيها ذريته كلهم ما هو خالق إلى يوم القيامة الصحيح على هيئته والمبتلى على هيئته والانبيا على هيئتهم فقال ألا أعفيتهم كلهم ، فقال انى أحب ان أشكر . وذكر الحديث .

(وقال) محمد بن نصر حدثنا محمد بن يحيى حدثنا سعيد بن أبي مرثمة أخبرنا الليث بن سعد حدثني ابن عجلان عن سعد بن أبي سعيد المقبرى عن أبيه عن عبدالله بن سلام قال خلق الله آدم ثم قال بيديه فقبضهما فقال اختر يا آدم فقال اخترت يمين ربى وكلتا يديه يمين ، فبسطها فاذا فيها ذريته ، فقال من هؤلاء يارب ؟ قال من قضيت أن اخلق من ذريتك من أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة .

(قال) واخبرنا اسحاق حدثنا جعفر بن عون أبانا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة .

وحدثنا اسحاق وعمرو بن زرارة أخبرنا اسماعيل عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس فى قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية قال مسح ربك ظهر آدم فخرجت منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة بنعمان هذا الذى رواه عرفة فأخذ ميثاقهم (الست بربكم قالوا بلى شهدنا) .

ورواه أبو جرة الضمى ومجاهد وحبيب بن أبى ثابت وأبو صالح وغيرهم عن ابن عباس . وقال اسحاق أخبرنا جرير عن منصور عن مجاهد عن عبدالله بن عمرو فى هذه الآية قال أخذهم كما يؤخذ المشط بالرأس .

(وحدثنا) حجاج بن ابن جريج عن الزبير بن موسى عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن الله ضرب منكبه الأيمن فخرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء نقية فقال هؤلاء أهل الجنة ثم ضرب منكبه الأيسر فخرجت كل نفس مخلوقة للنار سوداء فقال

هؤلاء أهل النار ، ثم أخذ عهده على الإيمان به والمعرفة له ولأمره والتصديق به وبأمره من بنى آدم كلهم وأشهدهم على أنفسهم فأمنوا وصدقوا وعرفوا وأقروا .

(وذكر) محمد بن نصر من تفسير السدى عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود عن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) الآية لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ وكهيئة الذر فقال لهم ادخلوا الجنة برحمتي ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال ادخلوا النار ولا أبالي ، فذلك حيث يقول (وأصحاب اليمين) (وأصحاب الشمال) ثم أخذ منهم الميثاق فقال (ألسنت بربكم قالوا بلى) فأعطاء طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية فقال هو والملائكة (شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف أن الله ربه ، ولا مشرك إلا وهو يقول إنا وجدنا آباءنا على أمة فذلك قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) وقوله تعالى (وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها) وقوله تعالى (فته الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) قال يعني يوم أخذ عليهم الميثاق .

(قال اسحاق) وأخبرنا روح بن عبادة حدثنا موسى بن عبيدة الربذي قال سمعت محمد بن كعب القرظي يقول في هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) الآية أقروا له بالإيمان والمعرفة الأرواح قبل أن يخلق أجسادها .

(قال) وحدثنا الفضل بن موسى عن عبد الملك عن عطاء في هذه الآية قال اخرجوا من صلب آدم حين أخذ منهم الميثاق ثم ردوا في صلبه .

(قال) اسحاق وأخبرنا علي بن الأجلح عن الضحاك قال ان الله أخرج من ظهر آدم يوم خلقه ما يكون إلى أن تقوم الساعة فأخرجهم مثل الذر فقال (ألسنت بربكم قالوا بلى) قالت الملائكة (شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) ثم قبض قبضة يمينه فقال هؤلاء في الجنة ، وقبض أخرى فقال هؤلاء في النار .

(قال) اسحاق وأخبرنا أبو عامر العقدي وأبو نعيم الملائني قال حدثنا هشام بن سعد عن يحيى بن سعيد قال قال قتادة لابن المسيب ما تقول في العزل ؟ قال إن شئت حدثتك حديثا هو حق إن الله سبحانه لما خلق آدم أراه كرامة لم يرها أحدا من خلق الله ، أراه كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة فمن حدثك أن يزيد فيهم شيئا أو ينقص منهم فقد كذب ولو كان لي سبعون ما باليت .

وفي تفسير ابن عيينة عن الربيع بن أنس عن أبي العالية (وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً) قال يوم أخذ الميثاق .

(قال اسحاق) فقد كانوا في ذلك الوقت مقرين وذلك أن الله عز وجل أخبر أنه قال (ألسنت بر بكم قالوا بلى) والله تعالى لا يخاطب إلا من يفهم عنه المخاطبة ولا يجيب إلا من فهم السؤال ، فاجابهم إياه بقولهم دليل على أنهم قد فهموا عن الله وعقلوا عنه استشاده إياهم (ألسنت بر بكم) فأجابوه من بعد عقل منهم للمخاطبة وفهم لها بأن (قالوا بلى) فأقروا له بالربوبية .

فصل

واحتجوا أيضاً بما رواه أبو عبد الله بن منده أخبرنا محمد بن صابر البخاري حدثنا محمد بن المنذر بن سعد الحروري حدثنا جعفر بن محمد بن هارون المصيصي حدثنا عتبة بن السكن حدثنا أرطاة بن المنذر حدثنا عطاء بن عجلان عن يونس بن حابس عن عمرو بن عبسة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول إن الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفي عام فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . فهذا بعض ما احتج به هؤلاء .

قال الآخرون الكلام معكم في مقامين : أحدهما ذكر الدليل على الأرواح أنها خلقت بعد خلق الأبدان ، الثاني الجواب عما استدلتتم به .

فأما المقام الأول فقد قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكروا نثى) وهذا خطاب للإنسان الذي هو روح وبدن فدل على أن جملة مخلوقة بعد خلق الأيوين وأصرح منه قوله (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله) الآية وهذا صريح في أن خلق جملة النوع الإنساني بعد خلق أصله .

فإن قيل فهذا لا ينفى تقدم خلق الأرواح على أجسادها وإن خلقت بعد خلق أبي البشر كادلت عليه الآثار المتقدمة .

قيل سنبين إن شاء الله تعالى أن الآثار المذكورة لا تدل على سبق الأرواح الأجساد سبقاً مستقراً ثابتاً . وغايتها أن تدل بعد صحتها وثبوتها على أن بارئها وفاطرها سبحانه صور النسم وقدر خلقها وأجلها وأعمالها واستخرج تلك الصور من مادتها ثم أعادها إليها ، وقدر خروج كل فرد من أفرادها في وقته المقدر له ، ولا تدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً ثم استمرت موجودة حية عالمة ناطقة كلها في موضع واحد ثم ترسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة كما قاله

أبو محمد بن حزم ، فهل تحمل الآثار مالا طاقة لنا به ؟ نعم الرب سبحانه يخلق منها جملة بعد جملة على الوجه الذي سبق به التقدير أولافيجي ، الخلق الخارجى مطابقاً للتقدير السابق كشأنه تعالى في جميع مخلوقاته فإنه قدر لها أقداراً وآجالاً وصفات وهيات ثم أبرزها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير الذي قدره لها لا تزيد عليه ولا تنقص منه .

فالآثار المذكورة إنما تدل على إثبات القدر السابق وبعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة ، وأما مخاطبتهم واستنطاقهم وإقرارهم له بالربوبية وشهادتهم على أنفسهم بالعبودية فمن قاله من السلف فإنما هو بناء منه على فهم الآية والآية لم تدل على هذا بل دلت على خلافه .

وأما حديث مالك فقال أبو عمر هو حديث منقطع ، مسلم بن يسار لم يلق عمر بن الخطاب وبينهما في هذا الحديث نعيم بن ربيعة وهو أيضاً مع هذا الإسناد لا يقوم به حجة ، ومسلم ابن يسار هذا مجهول قيل أنه مدني وليس بمسلم بن يسار البصرى قال ابن أبي خيثمة قرأت على يحيى بن معين حديث مالك هذا عن زيد بن أبي أنيسة فكذب بيده على مسلم بن يسار ولا يعرف .

ثم ساقه أبو عمر من طريق النسائي (أخبرنا) محمد بن وهب حدثنا محمد بن سلمة قال حدثني أبو عبد الرحيم قال حدثني زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة .

ثم ساقه من طريق سخيرة (حدثنا) أحمد بن عبد الملك بن واقد حدثنا محمد بن سلمة عن أبي عبد الرحيم عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد عن مسلم عن نعيم قال أبو عمرو زيادة من زاد في هذا الحديث نعيم بن ربيعة ليست حجة أن الذي لم يذكره احفظ وإنما الزيادة من الحافظ المتقن .

وجملة القول في هذا الحديث أنه حديث ليس إسناده بالقائم لأن مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعاً غير معروفين بحمل العلم ولكن مضمون هذا الحديث قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه كثيرة ثابت يطول ذكرها من حديث عمر بن الخطاب وغيره وجماعة يطول ذكرهم .

ومراد أبو عمر الأحاديث الدالة على القدر السابق فإنها هي التي ساقها بهد ذلك فذكر حديث عبد الله بن عمر في القدر وقال في آخره وسأله رجل من مزينة أوجهينة فقال يا رسول

الله ففهم العمل ؟ فقال ان أهل الجنة يبسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار يبسرون لعمل أهل النار .

قال ورؤي هذا المعنى في القدر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن علي بن أبي طالب وأبي بن كعب وعبدة الله بن عباس وابن عمر وأبو هريرة وأبو سعيد وأبو سريحة النخعي وعبدة الله بن مسعود وعبدة الله بن عمرو وعمران بن حصين وعائشة وأنس بن مالك وسراقة ابن جهم وأبو موسى الأشعري وعبادة بن الصامت ، وأكثر أحاديث هؤلاء لها طرق شتى ثم ساق كثيراً منها بإسناده .

وأما حديث أبي صالح عن أبي هريرة فائماً يدل على استخراج الذرية وتمثلهم في صور الذر وكان منهم حينئذ المشرق والمغرب وليس فيه أنه سبحانه خلق أرواحهم قبل الأجساد وأقرها بموضع واحد ثم يرسل كل روح من تلك الأرواح عند حدوث بدنها إليه ، نعم هو سبحانه يخص كل بدن بالروح التي قدر أن تكون له في ذلك الوقت ، وأما أنه خلق نفس ذلك البدن في ذلك الوقت وفرغ من خلقها وأودعها في مكان مهبطة عن بدنها حتى إذا أحدث بدنها أرسلها إليه من ذلك المكان فلا يدل شيء من الأحاديث على ذلك البتة لمن تأملها .

وأما حديث أبي بن كعب فليس هو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وغايته لو صح . ولم يصح . أن يكون من كلام أبي وهذا الإسناد يروى به أشياء منكورة جداً مرفوعة وموقوفة وأبو جعفر الرازي وثق وضعف ، وقال علي بن المديني كان ثقة وقال أيضاً كان يخلط وقال ابن معين هو ثقة وقال أيضاً يكتب حديثه إلا أنه يخطئ . وقال الامام أحمد ليس بقوي في الحديث وقال أيضاً صالح الحديث وقال الفلاس سيء الحفظ وقال أبو زرعة يهيم كثيراً وقال ابن حبان ينفرد بالناكيز عن المشاهير .

وما ينكر من هذا الحديث قوله فكان روح عيسى من تلك الأرواح التي أخذ عليها الميثاق وأرسل ذلك الروح إلى مريم حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فدخل في فيها ومعلوم ان الروح الذي أرسل إلى مريم ليس هو روح المسيح بل ذلك الروح نفخ فيها لحملت بالمسيح قال تعالى (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت انى أعوذ بالرحمن منك إن كنت نقياً ، قال إنما أنا رسول ربك لا هب لك غلاماً زكياً) فروح المسيح لا يخاطبها عن نفسه بهذه المخاطبة قطعاً وفي بعض طرق حديث أبي جعفر هذا أن روح المسيح هو الذي خاطبها وهو الذي أرسل إليها .

وما هنا أربع مقامات :

(أحدهما) أن الله سبحانه استخرج صورهم وأمثالهم فبشر شقيهم وسعيدهم ومعافاهم من مبتلاهم .

(الثاني) أن الله سبحانه أقام عليهم الحجج حينئذ وأشهدهم بربوبيته واستشهد عليهم ملائكته .

(الثالث) أن هذا هو تفسير قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) .

(الرابع) أنه أقر تلك الأرواح كلها بعد إخراجها بمكان وفرغ من خلقها وإنما يتجدد كل وقت لإرسال جملة منها بعد جملة إلى أبدانها .

فأما المقام الأول فالآثار متظاهرة به مرفوعة وموقوفة .

وأما المقام الثاني فإنما أخذ من أخذه من المفسرين من الآية وظنوا أنه تفسيرها وهذا قول جمهور المفسرين من أهل الآثار ، قال أبو إسحاق جازئ أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذر التي أخرجها فهما تعقل به كما قال (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير .

(وقال) ابن الأنباري مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم في صور الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون فاعترفوا بذلك وقبلوا وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبل عقلا حين خوطب وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دهيت .

(وقال) الجرجاني ليس بين قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية لذريته بعضهم من بعض وقوله تعالى (إن تقولوا للملائكة إننا كنا عن هذا غافلين) أي عن الميثاق المأخوذ عليهم فإذا قالوا ذلك كانت للملائكة شهوداً عليهم بأخذ الميثاق ، قال وفي هذا دليل على التفسير الذي جاءت به الرواية من أن الله تعالى قال للملائكة اشهدوا فقالوا شهدنا ، قال وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق إنما أخذ على الأرواح دون الأجساد ، إن الأرواح هي التي تعقل وتفهم ولها الثراب وعليها العقاب والأجساد أموات لا تعقل ولا تفهم ، قال وكان إسحاق بن راهويه يذهب إلى هذا المعنى وذكر أنه قول أبي هريرة قال إسحاق وأجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد

استنطقهم وأشهدهم ، قال الجرجاني واحتجوا بقوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء) والأجساد قد بليت وضلت في الأرض والأرواح ترزق وتفرح ، وهي إلى تلة وتأم وتفرح وتحزن وتعرف وتنكر وبيان ذلك في الأحلام موجود أن الإنسان يصبح وأثر لذة الفرح وألم الحزن باق في نفسه مما تلاقى الروح دون الجسد ، قال وحاصل الفائدة في هذا الفصل أنه سبحانه قد أثبت الحجة على كل النفوس من يبلغ ومن لم يبلغ بالميثاق الذي أخذه عليهم وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التي نصبها في نفسه وفي العالم وبالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين وبالمواعظ بالمثلات المنقولة إليهم أخبارها غير أنه عز وجل لا يطالب أحداً منهم من الطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحجة وركب فيهم من القدرة وآثارهم من الأدلة . وبين سبحانه ما هو عامل في البالغين الذين أدركوا الأمر والنهي ، وحجب عنا علم ما قدره في غير البالغين إلا أنا نعلم أنه عدل لا يجور في حكمه ، وحكيم لا تفاوت في صفة ، وقادر لا يسأل عما يفعل له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

فصل

ونازع هؤلاء غيرهم في كون هذا معنى الآية وقالوا معنى قوله (وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) أي أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نطفة في أصلاب الآباء إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود ، وأشهدهم على أنفسهم أنهم رجبهم بما أظهر لهم من آياته وبراهينه التي تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم فليس من أحد إلا وفيه من صنعة ربه ما يشهد على أنه بارئ وناقذ الحكم فيه ، فلما عرفوا ذلك ودعاهم كل ما يرون ويشاهدون إلى التصديق به كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته كما قال في غير هذا الموضع (شاهدين على أنفسهم بالكفر) يريدهم بمنزلة الشاهدين وإن لم يقولوا نحن كفره كما تقول كما شهدت جوارحي بقولك تريد قد عرفته فكأن جوارحي لو استشهدت وفي وسعها أن تنطق لشهدت ، ومن هذا اعلامه وتبينه أيضاً (شهد الله أن لا إله إلا هو) يريد اعلم وبين فاشه ذلك شهادة من شهد عند الحكم وغيرهم . هذا كلام ابن الأنباري .

وزاد الجرجاني بياناً لهذا القول فقال حاكماً عن أصحابه أن الله لما خلق الخلق ونفذ عليه فيهم بما هو كائن وما لم يكن بعد ما هو كائن كالكائن إذ عليه بكونه مانع من غير كونه . شائع في مجاز العربية أن يوضع ما هو منتظر بعد ما لم يقع بعد موقع الواقع لسبق عليه بوقوعه كما قال عز وجل في مواضع من القرآن كقوله تعالى (ونادى أصحاب النار) (ونادى أصحاب الجنة) (ونادى أصحاب الأعراف) قال فيكون تأويل قوله (وإذا أخذ ربك) وإذا يأخذ ربك ، وكذلك قوله

(وأشهدهم على أنفسهم) أى ويشهدهم بما ركب فيه من العقل الذى يكون به الفهم ويجب به الثواب والعقاب ، وكل من ولد وبلغ الحنث وعقل الضر والنفع وفهم الوعد والوعيد والثواب والعقاب صار كأن الله تعالى أخذ عليه الميثاق فى التوحيد بما ركب فيه من العقل وأراه من الآيات والدلائل على حدوده وأنه لا يجوز أن يكون قد خالق نفسه وإذا لم يحز ذلك فلا بد له من خالق هو غيره ليس كمثل . وليس من مخلوق يباغ هذا المبلغ ولم يقدح فيه مانع من فهم إلا إذا حز به أمر يفزع إلى الله عز وجل حين يرفع رأسه إلى السماء ويشير إليها بأصبعه علما منه بأن خالقه تعالى هو قوه وإذا كان العقل الذى منه الفهم والافهام يؤدى إلى معرفة ما ذكرنا ودالا عليه فكل من بلغ هذا المبلغ فقد أخذ عليه العهد والميثاق وجاز أن يقال له قد أقر وأذعن وأسلم كما قال الله عز وجل (والله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها) .

(قال) واحتجوا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم رفع القلم عن ثلاث عن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى يفتبه . وقوله عز وجل (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) ثم قال تعالى (وحملها الإنسان) الأمانة هاهنا عهد وميثاق فاستناع السموات والأرض والجبال من حمل الأمانة لأجل خلوها من العقل الذى يكون به الفهم والافهام وحمل الإنسان إياها لما كان العقل فيه ، قال ولعرب فيها ضروب نظم فمنها قوله :

ضمن القنان لفقعس بثباتها ان القنان لفقعس لا يأتلى

والقنان جبل فذكر أنه قد ضمن لفقعس وضمائه لها انهم كانوا اذا حز بهم أمر من هزيمة أو خوف لجأوا إليه فجعل ذلك كالضمان لهم ومنه قول النابغة :

كأجارف الجولان هلال ربه وجوران منها خاشع متضائل^(١)

وأجارف الجولان جبالها وجوران الأرض التى إلى جانبها ، وقال هذا القائل إن فى قوله تعالى (أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا

(١) كذا . والبيت كما فى الديوان واللسان والتاج ومعجم البلدان هكذا :

بكى حارث الجولان من فقد ربه وحوران منها خاشع متضائل

قال ياقوت : الحارث قرية من قرى حوران من نواحي دمشق يقال لها حارث الجولان ،

وقال الجوهري الجولان جبل بالشام وحارث قلة من قلة فى قول النابغة حيث قال . . .
وذكر البيت . وفى التاج ويروى من هلك ربه .

من قبل وكنا ذرية من بعدهم) دليلا على هذا التأويل لانه عز وجل أعلم أن هذا الاخذ للعهد عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين والغفلة هاهنا لا تخلو من أحد وجهين اما أن تكون عن يوم القيامة أو عن أخذ الميثاق ، فأما يوم القيامة فلم يذكر سبحانه في كتابه أنه أخذ عليهم عهدا وميثاقا بمعرفة البعث والحساب وإنما ذكر معرفته فقط ، وأما أخذ الميثاق فالاطفال والاسقاط ان كان هذا العهد مأخوذا عليهم كما قال المخالف فهم لم يبلغوا بعد أخذ هذا الميثاق عليهم مبلغا يكون منهم غفلة عنه فيجحدونه وينكرونه فتي تكون هذه الغفلة منهم وهو عز وجل لا يؤاخذهم بما لم يكن منهم ، وذكر ما لا يجوز ولا يكون محال . وقوله تعالى (أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فلا يخلو هذا الشرك الذي يؤاخذون به أن يكون منهم أنفسهم أو من آباؤهم فان كان منهم فلا يجوز أن يكون ذلك الا بعد البلوغ وثبوت الحججة عليهم اذ الطفل لا يكرن منه شرك ولا غيره وان كان من غيرهم فالامة بجمعة على أن (لا تزر وازرة وزر أخرى) كما قال عز وجل في الكتاب وليس هذا بمخالف لما روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الله مسح ظهر آدم وأخرج منه ذريته فأخذ عليهم العهد ، لانه صلى الله عليه وآله وسلم اقتصر قول الله عز وجل فجاء مثل نظمه فوضع الماضي من اللفظ موضع المستقبل . قال وهذا شبيه القصة بقصة قوله تعالى (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به) فجعل سبحانه ما أنزل على الانبياء من الكتاب والحكمة ميثاقا أخذه من أهمهم بعدهم بدل على ذلك قوله تعالى (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) ثم قال للامم (أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فجعل سبحانه بلوغ الامم كتابه المنزل على أنبيائهم حجة عليهم كأخذ الميثاق عليهم وجعل معرفتهم به اقرارا منهم .

قلت وشبيه به أيضا قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا) فهذا ميثاقه الذي أخذه عليهم بعد ارسال رسله اليهم بالإيمان به وتصديقه ، ونظيره قوله تعالى (والذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) وقوله تعالى (ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) فهذا عهده اليهم على السنة رسله ، ومثله قوله تعالى لى اسرائيل (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) ومثله (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) وقوله تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) فهذا ميثاق أخذه منهم بعد بعثهم كما أخذ من أهمهم بعد انذارهم

وهذا الميثاق الذي لعن سبحانه من نقضه وعاقبه بقوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم لعنناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) فانما عاقبهم بنقضهم الميثاق الذي أخذه عليهم على السنة رسله وقد صرح به في قوله تعالى (واذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلمكم تتقون) ولما كانت هذه الآية ونظيرها في سورة مدنية مخاطب بالتذكير بهذا الميثاق فيها أهل الكتاب فانه ميثاق أخذه عليهم بالإيمان به وبرسله ، ولما كانت هذه آية الأعراف في سورة مكية ذكر فيها الميثاق والاشهاد العام لجميع المكلفين من أفر برؤيته ووحدايته وبطلان الشرك وهو ميثاق وإشهاد تقوم به عليهم الحججة وينقطع به العذر وتحل به العقوبة ويستحق بمخالفته الإهلاك فلا بد أن يكونوا ذا كرين له عارفين به وذلك ما فطرهم عليه من الإقرار برؤيته وأنه ربهم وفاطرهم وانهم مخلوقون مرئوبون ثم أرسل اليهم رسله يذكرهم بما في فطرهم وعقولهم ويعرفونهم حقه عليهم وأمره ونهيه ووعده ووعيده .

ونظم الآية انما يدل على هذا من وجوه متعددة :

(أحدها) أنه قال (واذا أخذ ربك من بنى آدم) ولم يقل آدم ، وبنو آدم غير آدم .

(الثاني) أنه قال (من ظهورهم) ولم يقل ظهر وهذا يدل بدخ من كل أو يدل اشتغال وهو أحسن .

(الثالث) أنه قال (ذرياتهم) ولم يقل ذريته .

(الرابع) أنه قال (وأشهدهم على أنفسهم) أى جعلهم شاهدين على أنفسهم فلا بد أن يكون الشاهد ذا كرامات وهو انما يذكر شهادته بعد خروجه الى هذه الدار لا يذكر شهادة قلبها .

(الخامس) أنه سبحانه اخبر أن حكمة هذا الاشهاد اقامة الحججة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، والحججة انما قامت عليهم بالرسول والقطرة التي فطروا عليها كما قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) .

(السادس) تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة (انا كنا عن هذا غافلين) ومعلوم أنهم غافلون بالخراج لهم من صلب آدم كلهم واشهادهم جميعا ذلك الوقت فهذا لا يذكره أحد منهم .

(السابع) قوله تعالى (أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فذكر حكمتين في هذا التعريف والاشهاد ، احدهما ان لا يدعوا الغفلة ، والثانية ان لا يدعوا التقليد فالغافل لا شعور له والمقلد متبع في تقليده لغيره .

(الثامن) قوله تعالى (اقمناكنا بافعال المبطلون) أى لو عذبهم بمحودهم وشركهم

لقالوا ذلك وهو سبحانه انما يهلككم لمخافة رسوله وتكذيبهم فلو اهلككم بتقليد آياتهم في شركهم من غير اقامة الحجة عليهم بالرسول لاهلككم بما فعل المبطلون واهلككم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما كانوا عليه . وقد اخبر سبحانه انه لم يكن ليهلك القرى بظلم واهلها غافلون وانما يهلككم بعد الاعذار والانذار .

(التاسع) انه سبحانه اشهد كل واحد على نفسه انه ربه وخالقه واحتج عليهم بهذا الاشهاد في غير موضع من كتابه كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خالق السموات والارض ليقولن الله فأنى يؤفكون) اى فكيف يصرفون عن التوحيد بعد هذا الاقرار منهم ان الله ربهم وخالقهم ، وهذا كثير في القرآن فهذه هي الحجة التى أشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكرونها بهارسله بقوله تعالى (أفى الله شك فاطر السموات والارض) فانه تعالى انما ذكرهم على السنة رسله بهذا الاقرار والمعرفة ولم يذكرهم قط باقرار سابق على ايجادهم ولا أقام به عليهم حجة .

(العاشر) انه جعل هذا آية وهى الدلالة الواضحة اليدة المستلزمة للدلوها بحيث لا يتخلف عنها المدلول وهذا شأن آيات الرب تعالى فانها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به فقال تعالى (وكذلك نفصل الآيات) اى مثل هذا التفصيل والتبيين تفصل الآيات لعلمهم يرجعون من الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإيمان ، وهذه الآيات التى فسرها هى التى بينها فى كتابه من أنواع مخلوقاته وهى آيات أفقية وحسية آيات فى نفوسهم وذواتهم وخلقهم وآيات فى الاقطار والنواحي مما يحدثه الرب تبارك وتعالى مما يدل على وجوده ووحدانيته وصدق رسله وعلى المعاد والقيامة ومن أبينها ما أشهد به كل واحد على نفسه من انه ربه وخالقه ومبدعه وأنه مربيوب مخلوق مصنوع حادث بعد أن لم يكن ومحال أن يكون حدث بلاحدث أو يكون هو المحدث لنفسه فلا بد له من موجد أو جده ليس كمثل شئ . وهذا الإقرار والمشاهدة فطرة فطروا عليها ليست بمكتسبة وهذه الآية وهى قوله تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) مطابقة لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم كل مولود يولد على الفطرة ولقوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيين اليه) .

ومن المفسرين من لم يذكر الا هذا القول فقط كالزحشرى ، ومنهم من يذكر الا القول الاول فقط ومنهم من حكى القولين كابن الجوزى والواحدى والماوردى وغيرهم .

قال الحسن بن يحيى الجرجاني فان اعترض معترض فى هذا الفصل بحديث بروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال ان الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ثم ردهم فى ظهره وقال إن هذا مانع من جواز التأويل الذى ذهب اليه لامتناع ردهم فى الظهر

إن كان أخذ الميثاق عليهم بعد البلوغ وتام العقل ، قيل له ان معنى ثم ردهم في ظهره ثم ردهم في ظهره كما قلنا إن معنى أخذ ربك يأخذ ربك فيكون معناه ثم يردهم في ظهره بوقاتهم لأنهم إذا ماتوا ردوا إلا الأرض للدفن وآدم خلق منها ورد فيها فاذا ردوا فيها فقد ردوا في آدم ، وفي ظهره إذ كان آدم خلق منها وفيها رد وبعض الشيء من الشيء وفيما ذهبتم اليه من تأويل هذا الحديث على ظاهره تفاوت بينه وبين ما جاء به القرآن في هذا المعنى إلا أن يرد تأويله إلى ما ذكرنا لأنه عز وجل قال (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) ولم يذكر آدم في الفصحة إنما هو هنا مضاف إليه لتعريف ذريته أنهم أولاده ، وفي الحديث أنه مسح ظهر آدم فلا يمكن رد ما جاء في القرآن وما جاء في الحديث إلى الاتفاق إلا بالتأويل الذي ذكرناه .

قال الجرجاني وأنا أقول ونحن إلى ما روى في الآية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما ذهب إليه أهل العلم من السلف الصالح أمثل وله أقبل وبه أنس والله ولي التوفيق لما هو أولى وأهدى ، على أن بعض أصحابنا من أهل السنة قد ذكر في الرد على هذا القائل معنى يحتمل ويسوغ في النظم الجارى ومجاز العربية بسهولة وإمكان من غير تعسف ولا استكراه وهو أن يكون قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) مبتدأ خبر من الله عز وجل عما كان منه في أخذ العهد عليهم وإذ تقتضى جوابا يجعل جوابه قوله تعالى (قالوا بلى) وانقطع هذا الخبر بتمام قصته ثم ابتداء عز وجل خبراً آخر يذكر ما يقوله المشركون يوم القيامة فقالوا شهدنا يعني نشهد كما قال الخطيئة :

شهد الخطيئة حين يلتقى ربه أن الوليد أحق بالعدر

بمعنى يشهد الخطيئة يقول تعالى نشهد أنكم ستقولون يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أى عما هم فيه من الحساب والمناقشة والمواخذة بالكفر ثم أضاف إليه خبراً آخر فقال (أو تقولوا) بمعنى وأن تقولوا لأن أو بمعنى واو النسق مثل قوله تعالى (ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً) فتأويله ونشهد أن تقولوا يوم القيامة (إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) أى أنهم اشركوا وحملونا على مذهبهم في الشرك في صياننا فجزينا على مذاهبهم وافتدينا بهم فلا ذنب لنا إذ كنا مقتدين بهم والذنب في ذلك لهم قالوا (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) يدل على ذلك قولهم (أفتلمكنا بما فعل المبطلون) أى حملهم ايانا على الشرك ، فتكون القصة الأولى خيراً عن جميع المخلوقين بأخذ الميثاق عليهم ، والقصة الثانية خبر عما يقول المشركون يوم القيامة من الاعتذار .

وقال فيما ادعاه المخالف أنه تفاوت فيما بين الكتاب والخبر لاختلاف ألفاظهما فيما قولاً يجب قبوله بالنظر والعبر التي تأيدتها لمخالفته فقال ان الخبر عن رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم ان الله مسح ظهر آدم ، أفاد زيادة خبر كان في القصة التي ذكر الله تعالى في الكتاب بعضها ولم يذكر كما ولو أخبر صلى الله عليه وآله وسلم بسوى هذه الزيادة التي أخبر بها بماعسى أن يكون قد كان في ذلك الوقت الذي أخذ فيه العهد بمالم يضمنه الله كتابه لما كان في ذلك خلاف ولا تفاوت بل كان زيادة في الفائدة . وكذلك الالفاظ إذا اختلفت في ذاتها كان مرجعها إلى أمر واحد لم يوجب ذلك تناقضا كما قال عز وجل في كتابه في خلق آدم فذكر مرة أنه خلق من تراب ومرة أنه خلق من حمأ مسنون ، ومرة من طين لازب ، ومرة من صلصال كالفخار . فهذه الالفاظ مختلفة ومعانيها أيضاً في الأحوال مختلفة أن الصلصال غير الحماة والحماة غير التراب إلا أن مرجعها كلها في الأصل إلى جوهر واحد وهو التراب ومن التراب تدرجت هذه الأحوال .

فقوله سبحانه وتعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم أن الله مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذريته معنى واحد في الأصل إلا أن قوله صلى الله عليه وآله وسلم مسح ظهر آدم زيادة في الخبر عن الله عز وجل ومسحه عز وجل ظهر آدم واستخراج ذريته منه مسح لظهور ذريته واستخراج ذريتهم من ظهورهم كما ذكر تعالى لا ناقد علنا أن جميع ذرية آدم لم يكونوا من صلبه لكن لما كان الطبقة الأولى من صلبه ثم الثاني من صلب الأول ثم الثالث من صلب الثاني جاز أن ينسب ذلك كله إلى ظهر آدم لأنهم فرعاً وهو أصلهم .

وكما جاز أن يكون ما ذكر الله عز وجل أنه استخرجه من ظهور ذرية آدم من ظهر آدم جاز أن يكون ما ذكر صلى الله عليه وآله وسلم أنه استخرجه من ظهر آدم من ظهور ذريته إذ الأصل والفرع شيء واحد وفيه أيضاً أنه عز وجل لما أضاف الذرية إلى آدم في الخبر احتل أن يكون الخبر عن النرية وعن آدم كما قال عز وجل (فظلت أعناقهم لها خاضعين) والخبر في الظاهر عن الأعناق والنعمة للأسماء المكنية فيها وهو (١) مضاف إليها كما كان آدم مضافاً إليه هناك وليساً جميعاً بالمقصودين في الظاهر بالخبر ولا يحتمل أن يكون قوله خاضعين للأعناق لأن وجه جمعها خاضعات ومنه قول الشاعر :

وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

فصدر مذكر وقوله شرقت أنت لإضافة الصدر إلى القناة .

(١) أى النعمة .

فصل

فهذا بعض كلام السلف والخلف في هذه الآية وعلى كل تقدير فلا تدل على خلق الارواح قبل الاجساد خلقا مستقرا وانما غايتها أن تدل على اخراج صورهم وامثالهم في صور الذر واستنطاقهم ثم ردهم الى أصلهم ان صح الخبر بذلك والذي صح انما هو اثبات القدر السابق وتقسيمهم الى شقي وسعيد . وأما استدلال ابى محمد بن حزم بقوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فما أليق هذا الاستدلال بظاهره الترتيب الامر بالسجود لآدم على خلقنا وتصويرنا والخطاب للجيلة المركبة من البدن والروح وذلك متأخر عن خلق آدم ولهذا قال ابن عباس (ولقد خلقناكم) يعنى آدم (ثم صورناكم) لذريته . ومثال هذا ما قاله مجاهد (خلقناكم) يعنى آدم و (صورناكم) فى ظهر آدم وإنما قال (خلقناكم) بلفظ الجمع وهو يريد آدم كما تقول ضربناكم إنما ضربت سيدهم .

واختار أبو عبيد فى هذه الآية قول مجاهد لقوله تعالى بعد (ثم قلنا للملائكة اسجدوا) وكان قوله تعالى للملائكة اسجدوا قبل خلق ذرية آدم وتصويرهم فى الارحام وشمع توجب التراخي والترتيب فمن جعل الخلق والتصوير فى هذه الآية لأولاد آدم فى الارحام يكون قد راعى حكم ثم فى الترتيب إلا أن يأخذ بقول الاخفش فانه يقول ثم هاهنا فى معنى الواو . قال الزجاج وهذا خطأ لا يميزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعلمه . قال أبو عبيد وقد بينه مجاهد حين قال ان الله تعالى خلق ولد آدم وصورهم فى ظهره ثم أمر بعد ذلك بالسجود . قال وهذا بين فى الحديث وهو أنه أخرجهم من ظهره فى صور الذر .

قلت والقرآن يفسر بعضه بعضا ونظير هذه الآية قوله تعالى (ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) فواقع الخلق من تراب عصب وهو لايبهم آدم إذ هو أصلهم والله سبحانه يخاطب الموجودين والمراد آباؤهم كقوله تعالى (وإذ قلتم يا موسى لن تؤمن لك حتى ترى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) وقوله تعالى (وإذ قلتم يا موسى إن نصبر على طعام واحد) الآية وقوله تعالى (وإذ قلتم نفسا فادارتم فيها) وقوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور) وهو كثير فى القرآن يخاطبه والمراد به آباؤهم فهكذا قوله (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) .

وقد يستطرد سبحانه من ذكر الشخص إلى ذكر النوع كقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) فالخلق من سلالة من طين آدم وانما يقول نطفة فى قرار مكين ذريته .

وأما حديث خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام فلا يصح إسناده ففيه عتة بن السكن قال الدارقطني متروك ، وأرطاة بن المنذر قال ابن عدي بعض أحاديث غلط .

فصل

وأما الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها فن وجوه :

(أحدها) أن خلق أبي البشر وأصلهم كان هكذا فإن الله سبحانه أرسل جبريل فقبض قبضة من الأرض ثم خمرها حتى صارت طينا ثم صورته ثم نفخ فيه الروح بعد أن صورته فلما دخلت الروح فيه صار لحما ودما حيا ناطقا ، ففي تفسير أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما فرغ عز وجل من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس ملكا على سماء الدنيا وكان من الخزان قبله من الملائكة يقال لهم الجن وإنما سموا الجن لأنهم خزان أهل الجنة وكان إبليس مع ملائكة خازنا فوقع في صدره وقال ما أعطاني الله هذا إلا لمزيد لي وفي لفظ لمزية لي على الملائكة فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه فقال الله للملائكة (اني جاعل في الأرض خليفة) قالوا ربنا وما يكون حال الخليفة وما يصنعون في الأرض قال الله تكون له ذرية يدعون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا قالوا ربنا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) يعني من شأن إبليس فبعث جبريل إلى الأرض لياتيه بطين منها فقالت الأرض إني أعوذ بالله منك أن تقبض مني فرجع ولم يأخذ وقال رب إنها عاذت بك فأعذتها فبعث ميكائيل فعادت منه فأعادها فبعث ملك الموت . فعادت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخالط فلم يأخذ من مكان واحد فأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ولذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به قبل الرب عز وجل حتى عاد طينا لازبا واللازب هو الذي يلزق بعضه ببعض ثم قال للملائكة (اني خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) فخلق الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه ليقول له تتكبر عما عملت بيدي ولم أتكبر أنا عنه فخلقته بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الصغار تكون له صاعلة فذلك حين يقول (من صلصال كالفخار) ويقول لامر ما خلقت ! ودخل من فيه فخرج من دبره فقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فان ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكه فلما بلغ الحين الذي يريد الله جل ثناؤه أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة

إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله فقال الحمد لله فقال له الله يرحمك ربك ، فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام قبل أن يبلغ الروح رجليه فنهض عجلار إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول (خالق الإنسان من عجل) وذكر باقي الحديث .

(وقال) يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب حدثنا ابن زيد قال لما خلق الله النار ذمرت منها الملائكة ذعراً شديداً وقالوا ربنا لم خلقت هذه النار ؟ ولأى شيء خلقتها ؟ قال لمن عصاني من خلقي .

ولم يكن لله يومئذ خلق إلا الملائكة والأرض ليس فيها خلق إنما خلق آدم بعد ذلك وقرأ قوله تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) قال عمر بن الخطاب يارسول الله ليت ذلك الحين ، ثم قال وقالت الملائكة ويأتى علينا دهر نوصيك فيه ؟ لا يرون له خلقاً غيرهم قال لا ! إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفة وذكر الحديث قال ابن اسحاق فيقال والله أعلم خلق الله آدم ثم وضعه ينظر إليه أربعين عاماً قبل أن ينفخ فيه الروح حتى عاد صلصالاً كالنفخار ولم تمسه نار فيقال والله أعلم لما انتهى الروح إلى رأسه عطس فقال الحمد لله . وذكر الحديث .

والقرآن والحديث والآثار تدل على أنه سبحانه نفخ فيه من روحه بعد خلق جسده من تلك النفخة حدثت فيه الروح ولو كانت روحه مخلوقة قبل بدنه مع جملة أرواح ذريته لما عجزت الملائكة من خلقه ولما تعجبت من خلق النار وقالت لأى شيء خلقتها؟ وهي ترى أرواح بني آدم فيهم المؤمن والكافر والطيب والخبيث .

ولما كانت أرواح الكفار كلها تبعاً لإبليس بل كانت الأرواح الكافرة مخلوقة قبل كفره فان الله سبحانه إنما حكم عليه بالكفر بعد خلق بدن آدم وروحه ولم يكن قبل ذلك كافراً فكيف تكون الأرواح قبله كافرة ومؤمنة وهو لم يكن كافراً إذ ذاك؟ وهل حصل الكفر للأرواح إلا بتزيينه وإغوائه فالأرواح الكافرة إنما حدثت بعد كفره إلا أن يقال كانت كلها مؤمنة ثم ارتدت بسببه والذي احتجوا به على تقديم خلق الأرواح يخالف ذلك .

وفي حديث أبي هريرة في تخليق العالم الاخبار عن خلق أجناس العالم تأخر خلق آدم إلى يوم الجمعة ولو كانت الأرواح مخلوقة قبل الاجساد لكانت من جملة العالم المخلوق في ستة أيام فلما لم يخبر عن خلقها في هذه الأيام علم أن خلقها تابع لخلق الذرية وان خلق آدم وحده هو الذي وقع في تلك الأيام الستة وأما خلق ذريته فعلى الوجه المشاهد المعين .

ولو كان للروح وجود قبل البدن وهي حية عالمة ناطقة لكانت ذاكرة لذلك في هذا العالم شاعرة به ولو بوجه ما .

ومن الممتع أن تكون حية عالمة ناطقة عارفة بربها وهي بين ملا من الأرواح ثم تنتقل إلى هذا البدن ولا تشعر بحالها قبل ذلك بوجه ما .

وإذا كانت بعد المفارقة تشعر بحالها وهي في البدن على التفصيل وتعلم ما كانت عليه هاهنا مع أنها اكتسبت بالبدن أموراً عاقبتها عن كثير من كمالها فلان تشعر بحالها الأول وهي غير معروفة هناك بطريق الأولى ، إلا أن يقال تعلقها بالبدن واشتغالها بتدبيره منها من شعورها بحالها الأول ، فيقال هب أنه منها من شعورها به على التفصيل والكمال فهل يمنعها عن ادنى شعور بوجه ما بما كانت عليه قبل تعلقها بالبدن ، ومعلوم أن تعلقها بالبدن لم يمنعها عن الشعور بأول أحوالها وهي في البدن فكيف يمنعها من الشعور بما كان قبل ذلك .

وأيضاً فإنما لو كانت موجودة قبل البدن لكانت عالمة حية ناطقة عاقلة فلما تعلق بالبدن سلبت ذلك كله ثم حدث لها الشعور والعلم والعقل شيئاً فشيئاً وهذا لو كان لكان أعجب الأمور أن تكون الروح كاملة عاقلة ثم تعود ناقصة ضعيفة جاهلة ثم تعود بعد ذلك إلى عقلها وقوتها فأين في العقول والفكر والفطرة ما يدل على هذا ؟ وقد قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) فهذه الحال التي أخرجنا عنها هي حالنا الأصلية والعلم والعقل والمعرفة والقوة طارىء علينا حادث فينا بعد أن لم يكن ولم تكن نعلم قبل ذلك شيئاً البتة إذ لم يكن لنا وجود نعلم ونعقل به .

وأيضاً فلو كانت مخلوقة قبل الأجساد وهي على ما هي الآن من طيب وخبث وكفر وإيمان وخير وشر لكان ذلك ثابتاً لها قبل الأعمال وهي إنما اكتسبت هذه الصفات والهيئات من أعمالها التي سعت في طلبها واستعمات عليها بالبدن فلم تكن لتصف بتلك الهيئات والصفات قبل قيامها بالأبدان التي بها عملت تلك الأعمال .

وإن كان قدر لها قبل إيجادها ذلك ثم خرجت إلى هذه الدار على ما قدر لها فنحن لاتنكر الكتاب والقدر السابق لها من الله ، ولو دل دليل على أنها خلقت جملة ثم أودعت في مكان حية عالمة ناطقة ثم كل وقت تبرز إلى أبدانها شيئاً فشيئاً لكننا أول قائل به ، فانه سبحانه على كل شيء قدير ولكن لانخبر عنه خلقاً وأمراً إلا بما أخبر به عن نفسه على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يخبر عنه بذلك وإنما أخبر بما في الحديث الصحيح أن خلق ابن آدم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح فالملك وحده يرسل إليه

فينفخ فيه فاذا نفخ فيه كان ذلك سبب حدوث الروح فيه ولم يقل يرسل الملك إليه بالروح فيدخلها في بدنه وإنما أرسل إليه الملك فأحدث فيه الروح بنفخته فيه لا أن الله سبحانه أرسل إليه الروح التي كانت موجودة قبل ذلك بالزمان الطويل مع الملك ، ففرق بين أن يرسل إليه ملك ينفخ فيه الروح وبين أن يرسل إليه روح مخلوقة قائمة بنفسها مع الملك ، وتأمل ما دل عليه النص من هذين المعنيين ومالله التوفيق .

المسألة التاسعة عشرة

وهي ما حقيقة النفس هل هي جزء من أجزاء البدن أو عرض من أعراضه أو جسم مساكن له مودع فيه أو جوهر مجرد ؟ وهل هي الروح أو غيرها ؟ وهل الامارة والملازمة والمطمئنة نفس واحدة لها هذه الصفات أم هي ثلاث أنفس ؟ .

فالجواب أن هذه مسائل قد تكلم الناس فيها من سائر الطوائف واضطربت أقوالهم فيها وكثر فيها خطوهم وهدى الله أناس الرسول أهل سنته لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم فذكر أقوال الناس وما لهم وما عليهم في تلك الأقوال ونذكر المسواب بحمد الله وعونه .

قال أبو الحسن الأشعري في مقالاته ، اختلف الناس في الروح والنفس والحياة وهل الروح هي الحياة أو غيرها وهل الروح جسم أم لا ، ؟ فقال النظام الروح (هي - ^(١)) جسم وهي النفس وزعم أن الروح حي بنفسه وأنكر أن تكون الحياة والقوة معنى غير الحي للقوى . وقال آخرون الروح عرض .

وقال قائلون منهم جعفر بن حرب لا ندري الروح جوهر أو عرض (كذا قال - ^(٢)) واعتلوا في ذلك بقوله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) ولم يخبر عنها ما هي لأنها جوهر ولا عرض . قال : وأظن جعفر أثبت ^(٣) أن الحياة غير الروح أثبت ^(٣) أن الحياة عرضا .

وكان الجبائي يذهب إلى أن الروح جسم وأنها غير الحياة والحياة عرض ويعتل بقول أهل اللغة خرجت روح الإنسان وزعم أن الروح لا تجوز عليها الأعراض .

^(١) من مقالات الأشعري ومنه صححنا بعض الأغلط في هذه العبارة .

^(٢) هذا من كلام المؤلف ليس في المقالات .

^(٣) في المقالات . ثبت .

(وقال) قائلون ليس الروح شيئاً أكثر من اعتدال الطبائع الأربعة ولم يرجعوا من قولهم (اعتدال - ^(۱)) إلا إلى المعتدلين ولم يثبتوا في الدنيا شيئاً إلا الطبائع الأربعة التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .

(وقال) قائلون أن الروح معنى خامس غير الطبائع الأربعة وأنه ليس في الدنيا إلا الطبائع الأربعة ^(۲) والروح واختلفوا في (أعمال - ^(۱)) الروح فثبتها بعضهم طباعاً وثبتها بعضهم اختياراً . (وقال) قائلون الروح الدم الصافي الخالص من لكدر والعفونات وكذلك قالوا في القوة .

(وقال) قائلون الحياة هي الحرارة الغريزية وكل هؤلاء الذين حكينا أقوالهم ^(۳) في الروح من أصحاب الطبائع يثبتون أن الحياة هي الروح .

وكان الأصم لا يثبت للحياة والروح شيئاً غير الجسد ويقول ليس أعقل إلا الجسد "طويل" المريض العميق الذي أراه وأشاهده ، وكان يقول النفس هي هذا البدن بعينه لا غير ، وإنما جرى عليها هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد بحقيقة الشيء لا على أنها معنى غير البدن .

وذكر عن أرسططاليس أن النفس معنى مرتفع عن الوقوع تحت (التدبير والنشوء والبلبلي غير دائرة - ^(۴)) وأنها جوهر بسيط منبث في العالم كله من الحيوان على جهة الأعمال له والتدبير ، وأنه لا يجوز عليه صفة قلة ولا كثرة . قال وهي على ما وصفت من انبساطها في هذا العالم غير منقسمة الذات والبنية وأنها في كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير .

(وقال) آخرون بل النفس معنى موجود ذات حدود وأركان وطول وعرض وعمق وأنها غير مفارقة في هذا العالم لغيرها مما يجري عليه حكم الطول والعرض والعمق وكل واحد منهما يجمعهما صفة الحد والنهاية (وهذا قول طائفة من الثورية يقال لهم الثانية - ^(۵)) .

وقالت طائفة أن النفس موصوفة ^(۶) بما وصفها هؤلاء الذين قدمنا ذكرهم من معنى

(۱) من المقالات .

(۲) زاد في المقالات ، التي هي الحرارة والبرودة . والرطوبة واليبوسة ، .

(۳) في المقالات . قولهم .

(۴) من المقالات وكان في الأصل ، تحت النفس واللون .

(۵) من المقالات .

(۶) في المقالات . توصف .

الحدود والنهيات إلا أنها غير مفارقة لغيرها بما لا يجوز أن يكون موصوفاً بصفة الحيوان (وهؤلاء الديسانية - (۱)) وحكى الحريري عن جعفر بن مبشر أن النفس جوهر ليس هو هذا الجسم وليس يحسم لكنه معنى بابن (۲) الجوهر والجسم .

(وقال) آخرون النفس معنى غير الروح والروح غير الحياة والحياة عنده عرض وهو أبو الهذيل ، وزعم أنه قد يجوز أن يكون الإنسان في حال نومه مسلوب النفس والروح دون الحياة ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) .

(وقال) جعفر بن حرب النفس عرض من الأعراض يوجد في هذا الجسم وهو أحد الآلات التي يستعين بها الإنسان على الفعل كالصحة والسلامة وما أشبههما وأنها غير موصولة بشيء من صفات الجواهر والأجسام . هذا ما حكاه الأشعري .

وقالت طائفة النفس هي النسيم الداخل والخارج بالتنفس قالوا والروح عرض وهو الحياة فقط وهو غير النفس وهذا قول القاضي أبو بكر بن الباقلاني ومن اتبعه من الأشعرية .

وقالت طائفة ليست النفس جسماً ولا عرضاً وليست النفس في مكان ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ولا لون ولا بعض ولا هي في العالم ولا خارجة ولا بجانب له ولا مبانة . وهذا قول المشائين وهو الذي حكاه الأشعري عن أرسطاطاليس ، وزعموا أن تعلقها بالبدن لا بالحلول فيه ولا بالمجاورة ولا بالمساكنة ولا بالاتصاق ولا بالمقابلة وإنما هو التدبير له فقط واختار هذا المذهب البسنجي ومحمد بن النعمان الملقب بالمفيد ومعمربن عباد الغزالي وهو قول ابن سينا وأتباعه وهو أردى المذاهب وأبطلها وأبعدها من الصواب .

(قال) أبو محمد بن حزم وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقررة بالمعاد إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان جثة متحيزة مصرفة للجسد قال وبهذا نقول ، قال والنفس والروح اسمان مترادفان لمعنى واحد ومعناها واحد .

وقد ضبط أبو عبدالله بن الخطيب مذاهب الناس في النفس فقال : ما يشير إليه كل إنسان بقوله : إنا ما أن نكون جسماً أو عرضاً سارياً في الجسم أو لاجسماً ولا عرضاً سارياً فيه ، أما القسم الأول وهو أنه جسم فذلك الجسم إما أن يكون هذا البدن وإما أن يكون جسماً مشاركاً لهذا البدن وإما أن يكون خارجاً عنه ، وأما للقسم الثالث وهو أن نفس الإنسان

(۱) من المقالات .

(۲) في المقالات . بين .

عبارة عن جسم خارج عن هذا البدن فهذا لم يقله أحد ، وأما القسم الأول وهو أن الإنسان عبارة عن هذا البدن والهيكـل المخصوص فهو قول جمهور الخلق وهو المختار عند أكثر المتكلمين . .

(قلت) هو قول جمهور الخلق الذين عرف الرازي أقوالهم من أهل البدع وغيرهم من المضلين وأما أقوال الصحابة والتابعين وأهل الحديث فلم يكن له بها شعور البتة ولا أعتقد أن لهم في ذلك قولاً على عادته في حكاية المذاهب الباطلة في المسألة والمذهب الحق الذي دل عليه القرآن والسنة وأقوال الصحابة لم يعرفه ولم يذكره وهذا الذي نسب إلى جمهور الخلق من أن الإنسان هو هذا البدن المخصوص فقط وليس وراءه شيء هو من أبطال الأقوال في المسألة بل هو أبطـل من قول ابن سينا وأتباعه ، بل الذي عليه جمهور العقلاء أن الإنسان هو البدن والروح معاً وقد يطلق اسمه على أحدهما دون الآخر بقرينة .

فإناس لهم أربعة أقوال في مسمى الإنسان ، هل هو الروح فقط ، أو البدن فقط ، أو مجموعهما ، أو كل واحد منهما ، وهذه الأقوال الأربعة لهم في كلامه هل هو اللفظ فقط ، أو المعنى فقط ، أو مجموعهما ، أو كل واحد منهما ، فالخلاف بينهم في الناطق ونطقه .

(قال) الرازي وأما القسم الثاني وهو أن الإنسان عبارة عن جسم مخصوص موجود في داخل هذا البدن فالقائلون بهذا القول اختلفوا في تعيين ذلك الجسم على وجوه :

(الأول) أنه عبارة عن الأخلاط الأربعة التي منها يتولد هذا البدن .

(والثاني) أنه الدم .

(والثالث) أنه الروح اللطيف الذي يتولد في الجانب الأيسر من القلب وينفذ في الشريانات إلى سائر الأعضاء .

(والرابع) أنه الروح الذي يصعد في القلب إلى الدماغ ويتكيف بالكيفية الصالحة لقبول قوة الحفظ والفكرة والذكر .

(والخامس) أنه جزء لا يتجزأ في القلب .

(والسادس) أنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف حتى متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان المساء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم . فإدامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقى ذلك الجسم اللطيف مشابكاً لهذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية .

وإذا فسدت هذه الاعضاء بسبب استيلاء الاخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح .

وهذا القول هو الصواب في المسألة وهو الذي لا يصح غيره وكل الأقوال سواء باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ونحن نسوق الأدلة عليه على نسق واحد .

(الدليل الأول) قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) نفي الآية ثلاثة أدلة الإخبار بتوفيتها وإسماؤها وإرسالها .

(الرابع) قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون) إلى قرنه تعالى (ولقد جثتمونا فرائى كما خلقناكم أول مرة) .

وفيه أربعة أدلة :

(أحدها) بسط الملائكة أيديهم لتناولها .

(الثاني) وصفها بالإخراج والخروج .

(الثالث) الإخبار عن عذابها في ذلك اليوم .

(الرابع) الإخبار عن مجيئها إلى ربها . فهذه سبعة أدلة .

(الثامن) قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقتضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم) إلى قوله تعالى (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) وفيها ثلاثة أدلة :

(أحدها) الإخبار بتوفى الأنفس بالليل .

(الثاني) بعثها إلى أجسادها بالنهار .

(الثالث) توفى للملائكة له عند الموت فهذه عشرة أدلة .

(الحادى عشر) قوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنات) وفيها ثلاثة أدلة :

(أحدها) وصفها بالرجوع .

(الثاني) وصفها بالدخول .

(الثالث) وصفها بالرضا .

واختلف السلف هل يقال لها ذلك عند الموت أو عند البعث أو في الموضعين ؟ هل ثلاثة أقوال ، وقد روى في حديث مرفوع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لآبي بكر الصديق أما أن الملك سيقولها لك عند الموت . قال زيد بن أسلم بشرت بالجنة عند الموت ويوم الجمع وعند البعث . وقال أبو صالح (ارجمى إلى ربك راضية مرضية) هذا عند الموت (فادخل في عبادى وادخل جنتى) قال هذا يوم القيامة . فهذه أربعة عشر دليلا .

(الخامس عشر) قوله صلى الله عليه وآله وسلم إن الروح إذا قبض تبعه البصر . ففيه دليلان :

(أحدهما) وصفه بأنه يقبض .

(الثاني) أن البصر يراه .

(السابع عشر) ما رواه النسائي حدثنا أبو داود عن عفان عن حماد بن أنس عن جعفر بن عمارة بن خزيمية أن أباه قال رأيت في المنام كأنى أجد على جبهة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته بذلك فقال إن الروح ليلقى الروح فأقنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هكذا . قال عفان برأيه إلى حلقه . فوضع جبهته (على جبهة - ^(۱)) النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبر أن الأرواح تتلاقى في المنام وقد تقدم قول ابن عباس تلتقى أرواح الأحياء والأموات في المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى .

(الثامن عشر) قوله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث بلان إن الله قبض أرواحكم ووردها اليكم حين شاء . ففيه دليلان وصفها بالقبض ، والرد .

(العشرون) قوله صلى الله عليه وآله وسلم نساء المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة وفيه دليلان .

(أحدهما) كونها طائرا .

(الثاني) تعلقها في شجر الجنة وأكلها على اختلاف التفسيرين .

(الثاني والعشرون) قوله أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترحل في الجنة حيث

^(۱) سقط من الأصل وهو ثابت في الحديث .

شامت وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش فاطلع إليهم ربك اطلاعة فقال أى شيء تريدون ؟
الحديث وقد تقدم وفيه ستة أدلة :

- (أحدها) كونها مودعة في جوف طير .
- (الثانى) أنها تسرح في الجنة .
- (الثالث) أنها تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها .
- (الرابع) أنها تأوى إلى تلك القناديل أى تسكن إليها .
- (الخامس) أن الرب تعالى خاطبها واستنطقها فأجابته وخاطبته .
- (السادس) أنها طلبت الرجوع إلى الدنيا فعلم أنها بما يقبل الرجوع . (فإن قيل) هذا كله صفة الطير لا صفة الروح (قيل) بل الروح المودعة في الطير قصد ، وعلى الرواية التى رجحها أبو عمر ، وهى قوله « أرواح الشهداء كطير ، ينق السؤال بالكلية .
- (التاسع والعشرون) قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى حديث طلحة بن عبيد الله أردت مالى بالغابة فادركنى الليل فأويت إلى قبر عبد الله بن عمرو بن حزام فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذاك عبد الله ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم فلا تزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانها التى كانت . وفيه أربعة أدلة سوى ما تقدم :
- (أحدها) جعلها فى القناديل .
- (الثانى) انتقالها من حيز إلى حيز .
- (الثالث) تكلمها وقراءتها فى القبر .
- (الرابع) وصفها بأنها فى مكان .
- (الثالث والثلاثون) حديث البراء بن عازب وقد تقدم سياقه وفيه عشرون دايلا :
- (أحدها) قول ملك الموت لنفسه (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) وهذا الخطاب لمن يفهم ويعقل .
- (الثانى) قوله اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان .
- (الثالث) قوله فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السماء .

(الرابع) قوله فلا يدعونها في يده طرفة عين حتى يأخذوها منه .

(الخامس) قوله حتى يكفنها في ذلك الكفن ويحفظها بذلك الخنوط . فأخبر أنها تكفن وتمحط .

(السادس) قوله ثم يصعد بروحه إلى السماء .

(السابع) قوله ويوجد منها كأطيب نفحة منك وجدت .

(الثامن) قوله فتفتح له أبواب السماء .

(التاسع) قوله ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهي إلى الرب تعالى .

(العاشر) قوله فيقول تعالى ردوا عبي إلى الأرض .

(الحادي عشر) قوله فترد روحه في جسده .

(الثاني عشر) قوله في روح الكافر فتفرق في جسده فيجذبها فتقطع منها العروق والعصب .

(الثالث عشر) قوله ويوجد لروحه كأنه ريح وجدت على وجه الأرض .

(الرابع عشر) قوله فيقذف بروحه عن السماء وتطرح طرحا فتوى إلى الأرض .

(الخامس عشر) قوله فلا يمرون بها على ملا من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب؟ وما هذا الروح الخبيث؟

(السادس عشر) قوله فيجلسان ويقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فإن كان هذا للروح فظاهر، وإن كان للبدن فهو بعد رجوع الروح إليه من السماء .

(السابع عشر) قوله فإذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان .

(الثامن عشر) قوله أرجعوه فأروه ماذا أعددت له من الكرامة . فيرى مقعده من الجنة أو النار .

(التاسع عشر) قوله في الحديث إذا خرجت روح المؤمن صلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض، فالملائكة تصلي على روحه وبني آدم يصلون على جسده .

(العشرون) قوله فينظر إلى مقعده من الجنة أو النار حتى تقوم الساعة والبدن قد تمزق وتلاشى وإنما الذي يرى المقعدين الروح .

فصل

(الرابع والخمسون) حديث أبي موسى تخرج نفس المؤمن أطيب من ريح المسك فتنتطلق بها الملائكة الذين يتوفونه فتلقاهم ملائكة من دون السماء فيقولون هذا فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت . بمحاسن عمله . فيقولون مرحباً بكم وبه فيقبضونها منهم فيصعد به من الباب الذي كان يصعد منه عمله فيشرق في السموات وهو كبرهان الشمس حتى ينتهي بها إلى العرش ، وأما الكافر فإذا قبض انطلق بروحه فيقولون من هذا ؟ فيقولون فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت . لمساوى أعماله . فيقولون لا مرحباً لا مرحباً رده إلى أسفل الأرض إلى الثرى ففيه عشرة أدلة :

- (أحدها) خروج نفسه .
- (الثاني) طيب ريحها .
- (الثالث) انطلاق الملائكة بها .
- (الرابع) تحية الملائكة لها .
- (الخامس) قبضهم لها .
- (السادس) صعودهم بها .
- (السابع) إشراق السموات لضوئها .
- (الثامن) انتهاؤها إلى العرش .
- (التاسع) قول الملائكة من هذا ؟ وهذا سؤال عن عين وذات قائمة بنفسها .
- (العاشر) قوله رده إلى أسفل الأرضين .

فصل

(الرابع والستون) حديث أبي هريرة إذا خرجت روح المؤمن تلقاه ملكان فيصعدانه إلى السماء فيقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمريه وذكر المسك ثم يصعد به إلى ربه عز وجل فيقول رده إلى آخر الأجلين ففيه ستة أدلة :

- (أحدها) قوله تلقاه ملكان .
- (الثاني) قوله فيصعدانه إلى السماء .
- (الثالث) قول الملائكة روح طيبة جاءت من قبل الأرض .

(الرابع) صلاتهم عليها .

(الخامس) طيب ريحها .

(السادس) الصعود بها إلى الله عز وجل .

فصل

(الحادى والسبعون) حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن المؤمن تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج فيخرج بها حتى ينتهى بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقال فلان ابن فلان فيقال مرحباً بالنفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء قال اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث اخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا يزال يقال لها حتى تخرج فينتهى بها إلى السماء فيقال من هذا ؟ فيقال فلان ابن فلان فيقال لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء فترسل إلى الأرض ثم تصير إلى القبر . وهو حديث صحيح وفيه عشرة أدلة :

(أحدها) قوله كانت فى الجسد للطيب ، وكانت فى الجسد الخبيث . فهما حال ومحل .

(الثانى) قوله اخرجى حميدة .

(الثالث) قوله وأبشرى بروح وريحان ، فهذا بشارة بما تصير إليه بعد خروجها .

(الرابع) قوله فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء .

(الخامس) قوله فيستفتح لها .

(السادس) قوله ادخلى حميدة .

(السابع) قوله حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله تعالى .

(الثامن) قوله لنفس الفاجر ارجعى ذميمة .

(التاسع) فإنه لا تفتح لك أبواب السماء .

(العاشر) قوله فترسل إلى الأرض ثم تصير إلى القبر .

فصل

(الحادى والثمانون) قوله صلى الله عليه وآله وسلم الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . فوصفها بأنها جنود مجنّدة والجنود ذوات قائمة بنفسها ووصفها بالتعارف والتناكر ومحال أن تكون هذه الجنود أعراضاً أو تكون لداخل العالم ولا خارجه ولا بعض لها ولا كل .

(الثانى والثمانون) قوله فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه على الأرواح تتلاقى وتتشامم كما تشام الخيل . وقد تقدم .

(الثالث والثمانون) قوله فى حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنها أن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يومين وما رأى أحدهما صاحبه .

(الرابع والثمانون) الآثار التى ذكرناها فى خلق آدم وأن الروح لما دخل فى رأسه عطس فقال الحمد لله فلما وصل الروح إلى عينيّه نظر إلى ثمار الجنة فلما وصل إلى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجله وأنها دخلت كارهة وتخرج كارهة .

(الخامس والثمانون) الآثار التى فيها إخراج الرب تعالى الذم وتمييز شقيهم من سعيدهم وتفاوتهم حيثئذ فى الإشراق والظلمة وأرواح الأنبياء فيهم مثل السرح . وقد تقدم .

(السادس والثمانون) حديث تميم الدارى أن روح المؤمن إذا صعد بها إلى الله خر ساجداً بين يديه وأن الملائكة تلقى الروح بالبشرى وأن الله تعالى يقول لملك الموت انطلق بروح عبدي فضعه فى مكان كذا وكذا . وقد تقدم .

(السابع والثمانون) الآثار التى ذكرناها فى مستقر الأرواح بعد الموت واختلاف الناس فى ذلك وفى ضمن ذلك الاختلاف إجماع السلف على أن للروح مستقراً بعد الموت وإن اختلف فى تعيينه .

(الثامن والثمانون) ما قد علم بالضرورة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء به وأخبر به الأمة أنه تنبت أجسادهم فى القبور فإذا نفخ فى الصور رجعت كل روح إلى جسدها فدخلت فيه فانشقت الأرض عنه فقام من قبره .

وفى حديث الصور أن إسرافيل عليه السلام يدعو الأرواح فتأتيه جميعاً أرواح المسلمين نوراً والآخرى مظلمة فيجمعها جميعاً فيعلقها فى الصور ثم ينفخ فيه فيقول الرب جل جلاله وعزتى ليرجعن كل روح إلى جسده فتخرج الأرواح من الصور مثل النحل قد ملأت ما بين

السما والارض فيأتى كل روح إلى جسده فيدخل ويأمر الله الارض فتنشق عنهم فيخرجون سراعا إلى ربهم ينسلون مهطعين إلى الداعي يسمعون المنادى من مكان قريب فاذا هم قيام ينظرون .

وهذا معلوم بالضرورة ان الرسول أخبر به وان الله سبحانه لا ينشئ لهم ارواحا غير ارواحهم التي كانت في الدنيا بل هي الارواح التي اكتسبت الخير والشر انشأ ابدانها نشأة أخرى ثم ردها إليها .

(التاسع والثمانون) ان الروح والجسد يختصمان بين يدي الرب عز وجل يوم القيامة . قال علي بن عبد العزيز حدثنا أحمد بن يونس حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي سعد (۱) البقال عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ماتزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد فيقول الروح يارب إنما كنت روحاً منك جعلتني في هذا الجسد فلا ذنب لى . ويقول الجسد يارب كنت جسداً خلقتني ودخل في هذا الروح مثل النار فيه ، كنت أقوم وبه كنت أقعد وبه أذهب وبه أجيء لا ذنب لى . قال فيقال أنا أقضى بينكما أخبراني عن أعمى ومقعد دخلا حائطاً فقال المقعد للاعمى إني أرى ثمراً فلو كانت لى رجلان لتناول فقال الأعمى أنا أحملك على رقبتى فخذله فتناول من الثمر فأكلا جميعاً فعلى من الذنب ؟ قالاً عليهما جميعاً فقال قضيتما على أنفسكما .

(التسعون) الاحاديث والآثار المدالة على عذاب القبر ونعيمه إلى يوم البعث فعلوم أن الجسد تلاشى واضمححل وان العذاب والنعيم المستمرين إلى يوم القيامة إنما هو على الروح .

(الحادى والتسعون) أخبار الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح عن الشهداء انهم لما سئلوا ما تريدون ؟ قالوا نريد أن ترد ارواحنا في أجسادنا حتى نقتل فيك مرة أخرى فهذا سؤال وجواب من ذات حية عالمة ناطقة تقبل الرد إلى الدنيا والدخول في أجساد خرجت منها وهذه الارواح سئلت وهي تسرح في الجنة والأجساد قد مزقها البلى .

(الثانى والتسعون) ما ثبت عن سلمان الفارسي وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم أن ارواح المؤمنين في برزخ تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار في سجين . وقد تقدم .

(الثالث والتسعون) رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأرواح الناس عن يمين آدم ويساره ليلة الاسراء . فرآها متحيزة بمكان معين .

(۱) في الاصل : أبو سعيد . خطأ . وهو أبو سعد سعيد بن المرزبان . قال في التقريب . ضعيف مدلس .

(الرابع والتسعون) رؤيته أرواح الانبياء في السموات وسلامهم عليه وترحيبهم به كما أخبر به ، وأما أبدانهم ففي الأرض .

(الخامس والتسعون) رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم أرواح الأطفال حول إبراهيم الخليل عليه السلام .

(السادس والتسعون) رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم أرواح المعذبين في البرزخ بأنواع العذاب في حديث سمرة الذي رواه البخاري في صحيحه ، وقد تلاشت أجسادهم واضمحلت وإنما كان الذي رآه أرواحهم ونسبهم يفعل بها ذلك .

(السابع والتسعون) أخباره سبحانه عن الذين قتلوا في سبيله أنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم فرحون مستبشرون باخوانهم . وهذا الأرواح قطعاً لأن الأبدان في التراب تعظر عود أرواحها إليها يوم البعث .

(الثامن والتسعون) ما تقدم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، ونحن نسره لئتين كم فيه من دليل على بطلان قول الملاحدة وأهل البدع في الروح . وقد ذكرنا إسناده فيما تقدم ، قال بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم قاعداً تلا هذه الآية (ولولئى إذ الظالمون فى غمرات الموت) الآية ثم قال والذي نفس محمد بيده ما من نفس تترك أديانها حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار فإذا كان عند ذلك صفاه سماطان من الملائكة ينظران ما بين الخافقين كأن وجوههم الشمس فينظر إليهم ما يرى غيرهم وإن كنتم ترون أنه ينظر إليكم مع كل ملك منهم أكفان وحنوط فإن كان مؤمناً بشروه بالجنة وقالوا اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رضوان الله وجزته فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير لك من الدنيا وما فيها .

فلا يزالون يبشرونه فهم أطف به وأراف من الوالدة بولدها ثم يسألون روحه من حيث كل ظفر ومفصل يموت الأول فالأول ويبرد كل عضو الأول فالأول ويهون عليهم فلو كنتم ترونه شديداً حتى تبلغ ذنقه فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الوالد حين يخرج من الرحم فيبتدرونها كل ملك منهم أيهم يقبضها فيقول قبضها ملك ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) فيقبضها بأكفان بيض ثم يحتضنها إليه فاهو أشد لزوماً من المرأة لولدها ثم يروح منها ريح أطيب من المسك فيستشقون ريحاً طيباً ويتباشرون بها ويقولون مرحباً بالريح الطيبة والروح الطيبة اللهم صل عليه روحاً وصل على جسد خرجت منه ، قال فيصعدون بها فتفوح الموح ريح أطيب من المسك فيصلون عليها ويتباشرون بها وتفتح لهم أبواب السماء ويصلى عليها كل ملك من كل سماء تمر بهم حتى تنفخ بين يدي الجبار جل جلاله فيقول الجبار عز وجل مرحباً بالنفس

الطيبة ادخلوها الجنة وأروها مقعدها من الجنة وأعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعم ثم اذهبوا بها إلى الأرض فإني قضيت أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . فوالذي نفس محمد بيده لمي أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد وتقول أين تذهبون بي ؟ إلى ذلك الجسد الذي كنت فيه ؟ فيقولون إنا مأمورون بهذا فلا بد لك منه . فيميطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه فيدخلون ذلك الروح بين الجسد وأكفانه . فتأمل كم في الحديث من موضع يشهد بطلان قول المبطلين في الروح .

(التاسع والتسعون) ما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم عن عبد الرحمن بن الربيع عن عبد الله بن عمر ^(۱) رضي الله عنهم ما قال إذا توفي المؤمن بعث إليه ملكان بريحان من الجنة وخرقة تمض فيها فتخرج كأطيب رائحة وجدها أحد قط بأنفه حتى يوثق به الرحمن جل جلاله فتسجد الملائكة قبله ويسجد بعدهم ثم يدعى ميكائيل عليه السلام فيقال اذهب بهذه النفس فاجعلها مع أنفس المؤمنين حتى أسألك عنها يوم القيامة .

وقد أظاهرت الآثار عن الصحابة أن روح المؤمن تسجد بين يدي العرش في وفاة النوم ووفاة الموت ، وأما حين قدومها على الله فأحسن تحيتها أن تقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام .

(وحدثني) القاضي نور الدين بن الصائغ قال كانت لي خالة وكانت من الصالحات العابدات قال عدتها في مرض موتها فقالت لي الروح إذا قدمت على الله ووقفت بين يديه ما تكون تحيتها وقولها له ؟ قال فعظمت على مسألتها وفكرت فيها ثم قلت تقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام . قال فلما توفيت رأيتها في المنام فقالت لي جزاك الله خيراً لقد دهشت فما أدري ما أقوله ثم ذكرت تلك الكلمة التي قلت لي فقلتها .

فصل

(المائة) ما قد اشترك في العلم به عامة أهل الأرض من لقاء أرواح الموتى وسؤالهم لهم وإخبارهم بإيام بأمور خفيت عليهم فرأوها عياناً وهذا أكثر من أن يتكلف إيراده . وأعجب من هذا (الوجه الحادي والمائة) أن روح النائم يحصل لها في المنام آثار فتصبح يراها على البدن عياناً وهي من تأثير للروح في الروح كما ذكر القيرواني في (كتاب البستان) عن بعض السلف .

(۱) في نسخة . ابن عمرو .

(قال) كان لي جار يشتم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما فتناولته وتناولني فانصرفت إلى منزلي وأنا مغمووم حزين فتمت وتركت العشاء فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام فقلت يا رسول الله فلان يسب أصحابك قال من أصحابي؟ قلت أبو بكر وعمر فقال خذ هذه المدينة فاذبحه بها فأخذتها فأضجمته وذبحته ورأيت كأن يدي أصابها من دمه فالتقيت المدينة وأهويت يدي إلى الأرض لأمسحها فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره فقلت ما هذا الصراخ؟ قالوا فلان مات فجأة فلما أصبحنا جئنا فنظرت إليه فإذا خط موضع الذبح.

وفي (كتاب المنامات) لابن أبي الدنيا عن شيخ من قريش قال رأيت رجلا بالشام قد اسود نصف وجهه وهو يغظيه فسألته عن ذلك؟ فقال قد جمعت لله على أن لا يسألني أحد عن ذلك إلا أخبرته به كنت شديد الوقعة في علي بن أبي طالب رضي الله عنه فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ أتاني آت في منامي فقال لي أنت صاحب الوقعة في؟ فضرب شق وجهي فأصبحت وشق وجهي أسود كما ترى.

(وذكر) مسعدة عن هشام بن حسان عن واصل مولى أبي عيينة عن موسى بن عبيدة عن صفية بنت شيبة قالت كنت عند عائشة رضي الله عنها فأتتها امرأة مشتملة على يدها فجعل النساء يولعن بها، فقالت ما أتيتك إلا من أجل يدي إن أبي كان رجلا سمحا واني رأيت في المنام حياضا عليها رجال معهم آنية يسقون من أتاهم فرأيت أبي قلت أين أمي؟ فقال انظري فنظرت فإذا أمي ليس عليها إلا قطعة خرقة فقال انها لم تتصدق قط إلا بتلك الخرقة وشحمة من بقرة ذبحوها ففلك الشحمة تذاب وتطرى بها وهي تقول واعطشاه! قالت فأخذت اناء من الآنية فسقيتها فنوديت من فوقى من سقاها أيبس الله يده فأصبحت يدي كما ترى.

(وذكر) الحارث بن أسد المحاسبي واصبغ وخلف بن القاسم وجماعة عن سعيد بن مسleme قال بينما امرأة عند عائشة إذ قالت بايعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن لا أشرك بالله شيئا ولا أسرق ولا أزني ولا أقتل ولدي ولا آتي بهتان أفتريه من بين يدي ورجلي ولا أعصي في معروف فوفيت لربي ووفالي ربي فوالله لا يعذبني الله فأتاها في المنام ملك فقال لها كلاك انك تبرجين، وزينتك تبدين وخيرك تكدين (١) وجارك تؤذين، وزوجك تعصين. ثم وضع أصابعه الخمس على وجهها وقال خمس بخمس ولو زدت زدناك فأصبحت وأثر الأصابع في وجهها.

(١) الكفود: كفران النعمة، والبخل. قاموس.

(وقال) عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك سمعت مالكا يقول إن يعقوب بن هبدا الله ابن الاشج كان من خيار هذه الامة نام في اليوم الذي استشهد فيه فقال لاصحابه اني قد رأيت أمرا ولا خبرته اني رأيت كأنى أدخلت الجنة فسقيت لنا فاستبأ فقاء الابن واستشهد بعد ذلك . قال أبو القاسم وكان في غزوة في البحر بموضع لابن فيه ، وقد سمعت غير مالك يذكره وبذكر أنه معروف فقال اني رأيت كأنى أدخل الجنة فسقيت فيها لنا فقال له بعض القوم أنسنت عليك لما تقيأت فقاء لنا يصلد أى يبرق . وما في السفينة لبنا ولا شاة قال ابن قتيبة قوله يصلداً يبرق يقال صلداً الابن ومنه يصلد ومنه حديث عمران الطيب سقاء لنا فخرج من الطمعة أبيض يصلد .

(وكان) نافع القاري إذا تكلم بشم من فيه رائحة المسك فقيل له كلما قدمت تطيب فقال يا أمي طيباً ولا أقربه ولكن رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وهو يقرأ في فن فن ذلك الوقت يشم من في هذه الرائحة .

(وذكروا) مسعدة في كتابه في الرؤيا عن ربيع بن الرقاشي قال أتاني رجلان فقعدا إلى فاعتابا رجلا فتهيتها فأتاني أحدهما بعد فقال اني رأيت في المنام كأن زنجياً أتاني بطبق عليه جنب خنزير لم أر لحماً قط أسمن منه فقال لي كل فقلت آكل لحم خنزير ؟ فهدوني فأكلت فأصبحت وقد تغير في فلم يزل يحد الريح في فنه شهرين .

(وكان) العلاء بن زياد له وقت يقوم فيه فقال لأهله تلك الليلة إنى أجد فترة فاذا كان وقت كذا فأيقظوني فلم يفعلوا قال فأتاني آت في منامي فقال قم يا علاء بن زياد اذكر الله يذكرك وأخذ بشعرات في مقدم رأسي فقامت تلك الشعرات في مقدم رأسي فلم تزل قائمة حتى مات . قال يحيى بن بسطام فلقد غسلناه يوم مات وانهن لتيام في رأسه .

(وذكروا) ابن أبي الدنيا عن أبي حاتم الرازي عن محمد بن علي قال كنا بمكة في المسجد الحرام فعودا فقام رجل نصف وجهه أسود ونصفه أبيض فقال يا أيها الناس اعتبروا بي فاني كنت أتناول الشيخين وأشتمهما فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ أتاني آت فرفع يده فاطم وجهي وقال لي يا عدو الله يا فاسق ألسنت تسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فأصبحت وأنا على هذه الحالة .

(وقال) محمد بن هبدا الله ^(١) المهلبى رأيت في المنام كأنى في رحبة بني فلان وإذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم جالس على أكمة ومعه أبو بكر وعمر واقف قدماه فقال له عمر

(١) ن . محمد بن هبدا .

يارسول الله ان هذا يشتمني ويشتم ابا بكر فقال جيء به يا ابا حفص فأتى برجل فإذا هو
العماني وكان مشهوراً بسبهما فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم أضجعه فأضجعه ثم قال اذبحه
فذبحه ، قال فما نهني إلا صياحه فقلت مالي لا أخبره ؟ عسى أن يتوب فلما تقربت من منزله
سمعت بكاء شديداً فقلت ما هذا البكاء ؟ فقالوا العماني ذبح البارحة على سريره قال فدنوت من
عنقه فإذا من أذنه إلى أذنه طريقة حرام كادم المحصور .

(وقال) القيرواني أخبرني شيخ كنا من أهل الفضل قال أخبرني أبو الحسن المطليبي امام
مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال رأيت بالمدينة عجيباً ! كان رجل يسب ابا بكر وعمر
رضي الله عنهما فبينما نحن يوماً من الأيام بعد صلاة الصبح إذ أقبل رجل وقد خرجت عيناه
ومالتا على خديه فسألناه ما قصتك ؟ فقال رأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وعلى بين يديه ومعه أبو بكر وعمر فقالا يارسول الله هذا الذي يؤذينا ويسبنا ! فقال لي رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم من أمرك بهذا يا أبا قيس ؟ فقلت له علي وأشرت عليه فأقبل علي
على بوجهه ويده وقد ضم أصابعه وبسط السبابة والوسطى وقصد بها إلى عيني فقلت إن كنت
كذبت ففقد الله عينيك وأدخل أصبعيه في عيني فانتبعت من نومي وأنا على هذه الحال فيسكن يدي
ينخر الناس وأعلن بالتوبة .

(قال) القيرواني وأخبرني شيخ من أهل الفضل قال أخبرني فقيه قال كان عندنا رجل
يكتر الصوم ويسرده ولكنه كان يؤخر الفطر فرأى في المنام كأن أسودين آخذين بضبعيه وثياب
إلى تورحمي ليلقياه فيه قال فقلت لها علي ماذا ؟ فقالا علي خلافتك لسنة رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم فإنه أمر بتعجيل الفطر وأنت تؤخره . قال فأصبح وجهه قد اسود من وهج
النار فكان يمشي متبرقعا في الناس .

وأعجب من هذا الرجل يرى في المنام وهو شديد العطش والجوع والالام أن غيره قد سقاه
وأطعمه أوداواهدواه فيستيقظ وقد زال عنه ذلك كله وقد رأى الناس من هذا عجائب .

وقد ذكر مالك عن أبي الرجال عن عمرة عن عائشة أن جارية لها سحرتها وأن سندا يدخل
عليها وهي مريضة فقال إنك سحرت ؛ قالت ومن سحرتي ؟ قال جارية في حجرها صبي قد بال
عليها . فدعت جارتها فقالت حتى أغسل بولاً في ثوبي ، فقالت لها سحرتي ؟ قالت نعم ؛ قالت
وما دعاك إلى ذلك ؟ قالت أردت تعجيل العتق فأمرت أخاها أن يبيعها من الأعراب عن
يسره ملكها فباعها ثم ان عائشة رأت في منامها أن اغتسلي من ثلاثة آبار يمد بعضها بعضاً
فاغتسلي لها فاغتسلت فبرأت .

(وكان) سماك بن حرب قد ذهب بصره فرأى إبراهيم الخليل في المنام فسح على عينيه وقال اذهب إلى الفرات فتغمس فيه ثلاثاً . ففعل فأبصر .

(وكان) إسماعيل بن بلال الحضرمي قد عمى فأتى في المنام فقيل له قل يا قريب يا محبوب يا سمع الندماء بالطيف بمن يشاء رد على بصري ؛ فقال الليث بن سعد أنا رأيتك قد عمى ثم أبصر .

(وقال) عبيد الله بن أبي جعفر اشتكيت شكوى فجهدت منها فكنت أقرأ آية الكرسي فتمت فإذا رجلان قائمان بين يدي فقال أحدهما لصاحبه أن يقرأ آية فيها ثلاثمائة وستون رحمة أفلا يسب هذا المسكين فيها رحمة واحدة ؟ فاستيقظت فوجدت خفة .

(قال) ابن أبي الدنيا اعتلت امرأة من أهل الخير والصلاح بوجع المعدة فرأت في المنام قائلاً يقول لها لا إله إلا الله المغلى وشراب الورد . فشربته فأذهب الله عنها ما كانت تجد .

(قال) وقالت أيضاً رأيت في المنام كاني أقول السناء والعسل وماء الخمر الأسود شفاء لوجع الأوراك ؛ فلما استيقظت أتتني امرأة تشكو وجعاً يوركها فوصفت لها ذلك فاستغفمت به .

(وقال) جالينوس السبب الذي دعاني إلى فصد العروق الضواري أني أمرت به في منامي مرتين قال كنت إذ ذاك غلاماً قال وأعرف إنساناً شفاه الله من وجع كان به في جنبه بفصد العروق الضواري رؤيا رآها في منامه .

(وقال) ابن الحراز كنت أعالج رجلاً مموذاً فغاب عني ثم أقيته فسألته عن حاله فقال رأيت في المنام إنساناً في زي ناسك متوكئاً على عصا وقف على وقال انت رجل مموذ ؟ فقلت نعم ، فقال عليك بالكباء والجلنجبين . فأصبحت فسألت عنهما فقيل لي الكباء المصطكي والجلنجبين الورد المرابي بالعسل فاستعملتهما أياماً فبرأت ، فقلت له: ذلك جالينوس .

والوقائع في هذا الباب أكثر من أن تذكر . قال بعض الناس إن أصل الطب من المنامات ولأريب أن كثيراً من أصوله مستند إلى الرؤيا . كما أن بعضها عن التجارب وبعضها عن القياس وبعضها عن الهام ؛ ومن أراد الوقوف على ذلك فليُنظر في (تاريخ الأطباء) وفي (كتاب البستان للقيرواني) وغير ذلك .

فصل

(الوجه الثاني بعد المائة) قوله تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء) وهذا دليل على أن المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء ، وهذا التفتيح هو تفتيحها لأرواحهم

عند الموت كما تقدم في الأحاديث المستفيضة أن السماء تفتح لروح المؤمن حتى ينتهي بها إلى بين يدي الرب تعالى .

وأما الكافر فلا تفتح لروحه أبواب السماء ولا تفتح لجسده أبواب الجنة .

فصل

(الوجه الثالث بعد المائة) قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم يا بلال، ما دخات الجنة إلا سمعت خشخشتك بين يدي فم ذاك؟ قال ما أحدثت في ليل أو نهار إلا تروضأت ورضيت ركعتين . قال بهما ، ومعلوم أى الذى سمع خشخشته بين يديه هو روح بلال ، وإلا فجسده لم ينقل إلى الجنة .

(الوجه الرابع بعد المائة) الأحاديث والآثار التي في زيارة القبور والسلام على أهلها ومخاطبتهم والاختبار عن معرفتهم بزوارهم وردهم عليهم السلام . وقد تقدمت الإشارة إليها .

(الوجه الخامس بعد المائة) شكاية كثير من أرواح الموتى إلى أفارهم وغيرهم أموراً مؤذية فيجدونها كما شكوه فيزيلونها .

(الوجه السادس بعد المائة) لو كانت الروح عبارة عن عرض من أعراض البدن أو جوهر مجرد ليس بجسم ولا حال فيه لكان قول القائل خرجت وذهبت وقت وجئت وقعدت وتحركت ودخلت ورجعت ونحو ذلك كله أقوالاً باطلة لأن هذه الصفات ممتعة الشئ في حق الأعراض والمجردات ، وكل عاقل يعلم صدق قوله وقول غيره ذلك فالقدح في ذلك قدح في أظهر المعلومات من باب السفطة (لا يقال) حاصل هذا الدليل التمسك بالفاظ الناس وإطلاقاتهم وهي تحتمل الحقيقة والمجاز فلعل مرادهم دخول جسمي وخرج . لانا إنما استدللنا بشهادة العقل والفطرة بمعنى هذه الألفاظ فكل أحد يشهد عقله وحسه بأنه هو الذى دخل وخرج وانتقل لا مجرد بدنه فشهادة الحس والعقل بمعنى هذه الألفاظ وإضافتها إلى الروح أصلاً وإلى البدن تبعاً من أصدق الشهادات والاعتماد على ذلك لا على مجرد الإطلاق اللفظي .

(الوجه السابع بعد المائة) أن البدن مركب ومحل لتصرف النفس فكان دخول البدن وخروجه وانتقاله جارياً مجرى دخول مركبه من فرسه ودابته فلو كانت النفس غير قابلة للدخول والخروج والانتقال والحركة والسكون لكان ذلك بمنزلة دخول مركب الإنسان إلى الدار وخروجه منها دون دخوله هو ، وهذا معلوم البطلان بالضرورة ، وكل أحد يعلم أن نفسه

وروحه هي التي دخلت وخرجت واتقلت وصرفت البدن وجعلته تبعاً لها في الدخول والخروج فهو لها بالأصل وللبدن بالتبع لكنه للبدن بالمشاهدة وللروح بالعلم والعقل .

(الوجه الثامن بعد المائة) أن النفس لو كانت كما يقوله من يقول أنها عرض لكان الإنسان كل وقت قديداً مائة ألف نفس أو أكثر ، والإنسان إنما هو إنسان بروحه ونفسه لا ببدنه وكان الإنسان الذي هو الإنسان غير الذي هو قبله بلحظة وبعده بلحظة ، وهذا من نوع الهوس ولو كانت الروح مجردة ، وأعلقها بالبدن بالتدبير فقط لا بالمساكنة والمداخلة لم يمتنع أن ينقطع تعلقها بهذا البدن وتتعلق بغيره كما يجوز انقطاع تدبير المدير لبيت أو مدينة عنها ويتعلق بتدبير غيرها وعلى هذا التدبير فتصير شاكين في أزمنة النفس التي لزيد هي النفس الأولى أو غيرها ؟ وهل زيد هو ذلك الرجل أم غيره وعاقلاً لا يجوز ذلك فلو كانت الروح هرضاً أو أمراً مجرداً لحصل الشك المذكور .

(الوجه التاسع بعد المائة) أن كل أحد يقطع أن نفسه موصوفة بالعلم والفكر والحب والبغض والرضا والسخط وغيرها من الأحوال النفسانية ويعلم أن الموصوف ليس بذلك عرضاً من أعراض بدنه ولا جوهرراً مجرداً منفصلاً عن بدنه غير مجاور له ويقطع ضرورة بأن هذه الإدراكات لا أمر داخل في بدنه كما يقطع بأنه إذا سمع وأبصر وشم وذاق ولمس وتحرك وسكن فذلك أمور قائمة به مضافة إلى نفسه . وأن جوهر النفس هو الذي قام به ذلك كله لم يقم بمجرد ولا بعرض بل قام بمتحيز داخل العالم منتقل من مكان إلى مكان يتحرك ويمكن ويخرج ويدخل وليس إلا هذا البدن والجسم الساري فيه المشابك له الذي لولاه لكان بمنزلة الخاد .

(الوجه العاشر بعد المائة) أن النفس لو كانت مجردة وتعلقها بالبدن تعلق التدبير فقط كتعلق الملاح بالسفينة والجمال بحمله لا يمكنها ترك تدبير هذا البدن واشتغالها بتدبير بدن آخر كما يمكن الملاح والجمال ذلك ، وفي ذلك تجويز نقل النفوس من أبدان إلى أبدان . ولا يقال أن النفس أعدت ببدنها فامتنع عليها الانتقال أو أنها لها عشق طبيعي وشوق ذاتي إلى تدبير هذا البدن فلذا السبب امتنع انتقالها . لانا نقول الاتحاد ما لا يتحيز بالمتحيز محال ، ولأنها لو اتحدت به لظلت ببطلانه ولأنها بعد الاتحاد إن بقيت فمما اثنان لا واحد ، وإن عندما معا وحدث ذلك فليس من الاتحاد في شيء ، وإن بقي أحدهما وعدم الآخر فليس باتحاد أيضاً . وأما عشق النفس الطبيعي للبدن فالنفس إنما تعشقه لأنها تتناول اللذات بواسطة ، وإذا كانت الأبدان متساوية في حصول مطلوبها كانت نسبتها إليها على السواء ، فقولكم أن النفس

المعينة عاشقة للبدن المعين باطل . ومثال ذلك العطشان إذا صادف آنية متساوية كل منها يحصل غرضه امتنع عليه أن يعشق واحداً منها بعينه دون سائرها .

(الوجه الحادى عشر بعد المائة) ان نفس الإنسان لو كانت جوهرًا مجردًا لادخل العالم ولا خارجه ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة عنه ولا مباينة له ولا مجانبية لكان يعلم بالضرورة أنه موجود بهذه الصفة لأن علم الانسان بنفسه وصفاتها أظهر من كل معلوم وأن عليه بما عداه تابع لعمله بنفسه ، ومعلوم قطعا ان ذلك باطل فان جماهير أهل الارض يعلمون أن إثبات هذا الموجود محال في العقول شاهداً وغائباً فمن قال ذلك في نفسه وربه فلا نفسه عرف ولا ربه عرف .

(الوجه الثانى عشر بعد المائة) ان هذا البدن المشاهد محل لجميع صفات النفس وإدراكاتها الكلية والجزئية ومحل للقدره على الحركات الإرادية فوجب أن يكون الحامل لتلك الإدراكات والصفات هو البدن وما سكن فيه . أما ان يكون محلها جوهرًا مجردًا لادخل العالم ولا خارجه فباطل بالضرورة .

(الوجه الثالث عشر بعد المائة) أن النفس لو كانت مجردة عن الجسمية والتعجز لا تمتنع أن يتوقف فعلها على تماسه محل الفعل لأن مالا يكون متعجزاً بمتنع أن يصير تماساً للتعجز ، ولو كان الأمر كذلك لكان فعلها على سبيل الاختراع من غير حاجة إلى حصول تماسه وملاقاة بين الفاعل وبين محل الفعل فكان الواحد منا يقدر على تحريك الاجسام من غير أن يماسها أو يماس شيئاً يماسها فان النفس عند كم كما كانت قادرة على تحريك البدن من غير أن يكون بينها وبينه تماسه كذلك لا تمتنع قدرتها على تحريك جسم غيره من غير تماسه له ولا لما يماسه وذلك باطل بالضرورة ، فعلم أن النفس لا تقوى على التحريك إلا بشرط أن تماس محل الحركة أو تماس ما يماسه وكل ما كان تماسه للجسم أو لما يماسه فهو جسم . فالذي يجوز أن يكون تأثير النفس في تحريك بدننا الخاص غير مشروط بالتماسه وتأثيرها في تحريك غيره موقوف على حصول التماسه بين بدننا وبين ذلك الجسم ، فالجواب انه لما كان تحريك البدن لتصرفات النفس لا يتوقف على حصول التماسه بين النفس وبين البدن وحب أن تكون الحال كذلك في غيره من الاجسام لأن الاجسام متساوية في قبول الحركة ، وانسبة النفس إلى جميعها سواء لانها إذا كانت مجردة عن الجسمية وعلائق الجسمية كانت نسبة ذاتها إلى الكل بالسوية ومتى كانت ذات الفاعل نسبتها إلى الكل بالسوية والقوانين نسبتها إلى ذلك الفاعل بالسوية كان التأثير بالنسبة إلى الكل على السواء فاذا استغنى النفس عن تماسه محل الفعل في حق البعض وجب أن يستغنى في حق الجميع ، وإن اقتصر إلى التماسه في البعض .

وجب افتقاره في الجميع ، فإن قيل النفس عاشقة لهذا البدن دون غيره فكان تأثيرها فيه أقوى من تأثيرها في غيره . قيل هذا العشق الشديد يقتضى أن يكون تعلقها بالبدن أكثر وتصرفها فيه أقوى فلما أن يتغير مقتضى ذاتها بالنسبة إلى هذه الاجسام فذلك محال . وهذا دليل في غاية القوة .

(الوجه الرابع عشر بعد المائة) أن العقلاء كلهم متفقون على أن الإنسان هو هذا الحي للناطق المتغذى النامي الحساس المتحرك بالإرادة وهذه الصفات نوعان صفات لبدنه و صفات لروحه ونفسه الناطقة ، فلو كانت الروح جوهرًا مجردًا لادخل العالم ولاخارجه ولامتصله به ولا منفصلة عنه لكان الإنسان لادخل العالم ولا خارجه ولا متصلًا به ولا منفصلًا عنه أو كان بعضه في العالم وبعضه لادخل العالم ولاخارجه ، وكل عاقل يعلم بالضرورة بطلان ذلك وأن الإنسان بحملته داخل العالم بدنه وروحه ، وهذا في البطلان يضاهي قول من قال أن نفسه قديمة غير مخلوقة فجعلوا نصف الانسان مخلوقاً ونصفه غير مخلوق (فان قيل) نحن نسلم أن الانسان كما ذكرتم إلا أنا نثبت جوهرًا مجرداً يدبر الانسان الموصوف بهذه الصفات .

قلنا فذلك الجوهر الذي أثبتتموه مغاير للانسان أو هو حقيقة الانسان ؟ ولا بد لكم من أحد الامرين ، فان قلتم هو غير الانسان رجع كلامكم إلى أنكم أثبتتم للانسان مدبراً غيره سميتموه نفساً ، وكلامنا الآن إنما هو في حقيقة الانسان لاني مدبره فان مدبر الانسان وجميع العالم العلوى والسفلى هو الله الواحد القهار .

(الوجه الخامس عشر بعد المائة) أن كل عاقل إذا قيل له ما الانسان ؟ فانه يشير إلى هذه البنية وما قام بها لا يخطر بباله أمر مغاير لها مجرد ليس في العالم ولا خارجه والعلم بذلك ضرورى لا يقبل شكاً ولا تشكيكاً .

(الوجه السادس عشر بعد المائة) أن عقول العالمين قاضية بأن الخطاب متوجه إلى هذه البنية وما قام بها وما كنها ، وكذلك المدح والذم والثواب والعقاب والترغيب والترهيب ، ولو أن رجلاً قال انما مور والمنى والممدوح والمذموم والمخاطب والعاقل جوهر مجرد ليس في العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه لأضحك العقلاء على عقله ولا طبقوا على تكذيبه ، وكل ما شهدت بدائه العقول وصرائحها ببطلانه كان الاستدلال على ثبوته استدلالاً على صحة وجود المحال . وبالله التوفيق .

فصل

فان قيل قد ذكرتم الأدلة الدالة على جسميتها وتجزئتها فما جوابكم عن أدلة المنازعين لكم في ذلك؟ فانهم استدلوا بوجوه .

(أحدها) اتفاق العقلاء على قولهم الروح والجسم والنفس والجسم فيجعلونها شيئاً غير الجسم فلو كانت جسماً لم يكن لهذا القول معنى .

(الثاني) وهو أقوى ما يحتجون به أنه من المعلوم أن في الموجودات ما هو غير قابل للقسمة كالنقطة والجوهر الفرد بل ذات واجب الوجود فوجب أن يكون العلم بذلك غير قابل للقسمة؛ فوجب أن يكون الموصوف بذلك العلم وهو محله غير قابل للقسمة وهو النفس فلو كانت جسماً لكانت قابلة للقسمة . ويقرر هذا الدليل على وجه آخر وهو أن محل العلوم الكلية لو كان جسماً أو جسمانياً لانقسمت تلك العلوم لأن الحال في المنقسم^(۱) . وانقسام تلك العلوم مستحيل .

(الثالث) أن الصور العقلية الكلية مجردة بلا شك وتجردها إما أن يكون بسبب المأخوذ عنه أو بسبب الأخذ، والأول باطل لأن هذه الصور إنما أخذت عن الأشخاص الموصوفة بالمقادير المختلفة والأوضاع المعينة، فثبت أن تجردها إنما هو بسبب الأخذ لها والقوة العقلية السماه بالنفس .

(الرابع) أن القوة العاقلة تقوى على أفعال غير متناهية، فانها تقوى على إدراكات لا تدهى والقوة الجسمانية لا تقوى على أفعال غير متناهية لأن القوة الجسمانية تنقسم بانقسام محلها فالذي يقوى عليه بعضها يجب أن يكون أقل من الذي يقوى عليه الكل، فالذي يقوى عليه الكل يزيد على الذي يقوى عليه البعض أضعافاً متناهية والزائد على المتناهي يتمناه متناه .

(الخامس) أن القوة الدالة لو كانت حالة في آلة جسمانية لوجب أن تكون القوة العاقلة دائمة الإدراك لملك الآلة أو بمتعة الإدراك لها بالكلية، كلاهما باطل . لأن إدراك القوة العاقلة لملك الآلة إن كان عين وجودها فهو محال، وإن كان صورة مساوية لوجودها وهي حالة في القوة العقلية الحالة في تلك الآلة لزم اجتماع صورتين متماثلتين وهو محال، وإثبات هذا ثابت أن القوة العاقلة لو أدركت آلهما لكلاهما عبارة عن نفس حصول تلك الآلة عند القوة العاقلة فيجب حصول الإدراك دائماً إن كفى هذا التقدير، وحصول

(۱) كذا وأعله سقط منقسم .

الادراك وإن لم يكف امتنع حصول الادراك في وقت من الأوقات إذ لو حصل في وقت دون وقت لكان بسبب أمر زائد على مجرد حضور صورة الآلة .

(السادس) أن كل أحد يدرك نفسه وإدراك الشيء عبارة عن حضور ماهية المعلوم عند العالم فاذا علمنا أنفسنا فهو إما أن يكون لأجل حضور ذواتنا لذواتنا أو لأجل حضور صورة مساوية لذواتنا في ذواتنا ، والقسم الثاني باطل وإلا لزم اجتماع المثليين فثبت انه لا معنى لعلمنا بذاتنا الا بحضور ذاتنا عند ذاتنا وهذا إنما يكون اذا كانت ذاتنا قائمة بالنفس غنية عن المحل لانها لو كانت حاله في محل كانت حاضرة عند ذلك المحل فثبت ان هذا المعنى إنما يحصل إذا كانت النفس قائمة بنفسها غنية عن محل تحل فيه .

(السابع) ما احتج به أبو البركات البغدادي وأبطل ما سواه فقال لانك أن الواحد منا يمكن أن يتخيل نجراً من زئبق وحبلاً من يافوت وشمساً وأقماراً فهذه الصور الخيالية لا تكون معدومة لأن قوة التخيل تنير إلى تلك الصور وتميز بين كل صورة وغيرها وقد يتوهم ذلك التخيل إلى أن يصير كالمشاهد المحسوس ، ومعلوم أن الدم المحض والنقي الصريف لا يثبت ذلك ونحن نعلم بالضرورة ان هذه الصور ليست موجودة في الأعيان فثبت أنها موجودة في الأذهان ، فنقول محل هذه الصورة إما أن يكون جسماً أو حالاً في الجسم أو لاجساماً ولا حالاً في الجسم . والقسمان الأولان باطلان لأن صورة البحر والجل صورة عظيمة . والدمغ والقلب جسم صغير وانطباع العظيم في الصغير محال فثبت أن محل هذه الصورة الخيالية ليس بجسم ولا جسماني .

(الثامن) او كانت القوة العقلية جسدية اضعفت في زمان الشيخوخة دائماً وليس كذلك .

(التاسع) ان القوة العقلية غنية في أفعالها عن الجسم وما كان غنياً في فعله عن الجسم وجب أن يكون غنياً في ذاته عن الجسم . بيان الأول أن القوة العقلية تدرك نفسها ومن المحال أن يحصل بينها وبين نفسها آلة متوسطة أيضاً ، وتدرك إدراكها لنفسها وليس هذا الإدراك بآلة . وأيضاً فانها تدرك الجسم الذي هو آلتها وليس بينها وبين آلتها آلة أخرى ، وبيان الثاني من وجهين :

(أحدهما) أن القوى الجسمانية كالناظرة والسامعة والخيال والوهم لما كانت جسمانية يقدر عليها إدراك ذواتها وإدراكها لكونها مدركة لذواتها وإدراكها لتلك الأجسام الحاملة لها ، ولو كانت القوة العاقلة جسمانية لتعذر عليها هذه الأمور الثلاثة .

(الثاني) أن مصدر الفعل هو النفس فلو كانت النفس متعلقة في قوامها ووجودها بالجسم لم تحصل تلك الأفعال إلا بشركة من الجسم ، ولما ثبت أنه ليس كذلك ثبت أن القوة العقلية غنية عن الجسم .

(العاشر) أن القوة الجسمية تكمل بكثرة الأفعال ولا تقوى على القوى بعد الضعف وسببه ظاهر فإن القوى الجسمية بسبب عزولة الأفعال تتعرض موادها للتحلل والذوبان وهو يوجب الضعف ، وأما القوة العقلية فإنها لا تضعف بسبب كثرة الأفعال وتقوى على القوى بعد الضعف فوجب أن لا تكون حسانية .

(الحادي عشر) أنا إذا حكمنا بأن السواد مضاد للبياض وجب أن يحصل في الدهن ماهية السواد والبياض والبداية حاكمة بأن اجتماع السواد والبياض والحرارة والبرودة في الأجسام محال فلما حصل هذا الاجتماع في القوة العقلية وجب أن لا تكون قوة جسمية .

(الثاني عشر) أنه لو كان محل الإدراكات جسما وكل جسم منقسم لا محالة لم يمنع أن يقوم ببعض أجزاء الجسم علم بالشئ ، وبالعض الآخر منه جهل وحينئذ فيكون الانسان في الحال الواحد عالما بالشئ وجاهلا به .

(الثالث عشر) أن المادة الجسمية إذا حصلت فيها نقوش مخصوصة فإن وجود تلك النقوش فيها يمنع من حصول نقوش غيرها ، وأما النقوش العقلية فبالضد من ذلك لا زال النفس إذا كانت خالية من جميع العلوم والإدراكات فإنه يصعب عليها التعلم فإذا تعلمت شيئا سار حصول تلك العلوم ميسرا على سهولة غيرها ، فالنقوش الجسمية متغايرة متناوية والنقوش العقلية متعاونة متعايدة .

(الرابع عشر) ان النفس لو كانت جسما لكان من إرادة العبد تحريك رجليه وبين تحريكها زمان على قدر حركة الجسم وثقله ، فإن النفس هي الحركة للجسد والمهد للحركة فلو كان التحرك للرجل جسما فإما أن يكون حاصلا في هذه الأجزاء أو جائيا إليها ، فإن كان جائيا إليها لزم الخناج إلى مدة ولا بد ، وإن كان حاصلا فيها فبمجرد إذا قطعنا تلك العضلة التي تكون بها الخك لم يبق منها في العضو المتحرك شئ ، فلو كان ذلك المتحرك حاصلا فيه لبقى منه شئ في ذلك العضو .

(الخامس عشر) لو كانت النفس جسما لكانت منقسمة واصلح عليها أن يعلم بعضها كما يعلم كلها فيكون الانسان عالما ببعض نفسه جاهلا ببعض الآخر وذلك محال .

(السادس عشر) لو كانت النفس جسما لوجب أن يثقل البدن بدخولها فيه لأن شأن

الجسم الفارغ إذا ملاء غيره أن يثقل به كالزق الفارغ والامر بالعكس فأخف ما يكون البدن إذا كانت فيه النفس وأثقل ما يكون إذا فارقتة .

(السابع عشر) لو كانت النفس جسماً لكانت على صفات سائر الاجسام التي لا يخلو شيء منها من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والنعومة والخشونة والسواد واليباض وغير ذلك من صفات الاجسام وكيفياتها . وهو معلوم أن الكيفيات النفسانية إنما هي الفضائل والردائل لا تلك للكيفيات الجسدية فالنفس ليست جسماً .

(الثامن عشر) انها لو كانت جسماً لوجب أن يقع تحت جميع الخواص أو تحت خاصة منها أو خاصتين أو أكثر . فان انزى الاجسام كذلك منها ما يدرك بجميع الخواص ومنها ما يدرك بأكثرها ومنها ما يدرك بخاصتين منها أو واحدة . والنفس بريئة من ذلك كله . وهذه الحججة التي احتج بها جده على طائفة من الملاحدة حين أنكروا الخالق سبحانه وقالوا لو كان موجوداً لوجب أن يدرك بخاصة من الخواص فعارضهم بالنفس وأنى تم المعارضة إذا كانت جسماً إلا لو كانت جسماً لحاز إدراكها ببعض الخواص .

(التاسع عشر) لو كانت جسماً لكانت ذات طول وعرض وعمق وسطح وشكل وهذه للمقادير والابعاد لا تقوم إلا بإبادة ومحل . فان كانت مادتها ومحلها نفساً لزم اجتماع نفسيين ، وإن كان غير نفس كانت النفس مركبة من بدن وصورة وهي في جسد مركب من بدن وصورة فيكون الانسان انسانين .

(العشرون) ان من خاصة الجسم أن يقبل التجزى والجزء الصغير منه ليس كالكبير ولوقبات التجزى فكل جزء منها إن كان نفساً لزم أن يكون للانسان نفوس كثيرة لانفس واحدة ، وإن لم يكن نفساً لم يكن المجموع نفساً كما أن جزء الماء إن لم يكن ماء لم يكن بمجموعه ماء .

(الحادى والعشرون) أن الجسم محتاج في قوامه وحفظه وبقائه إلى النفس ولهذا يضمحل وينلاشى لما تفارقه ، فلو كانت جسماً لكانت محتاجة إلى نفس أخرى وهلم جرا ويتسلسل الامر وهذا المحال إنما لزم من كون النفس جسماً .

(الثانى والعشرون) لو كانت جسماً لكان اتصالها بالجسم إن كان على سبيل المداخلة لزم تداخل الاجسام ، وإن كان على سبيل الملاصقة والمجاورة كان الانسان الواحد جسمين متلاصقين أحدهما يرى والآخر لا يرى .

فهذا كل ما موهت به هذه الطائفة المبطلة من منخفة وموقوذة ومرتدية ونحن نجيبهم عن ذلك كله فصلاً بفصل بحول الله وقوته ومعونته .

فصل

فأما قولهم إن العقلاء متفقون على قولهم الروح والجسم والنفس والجسم وهذا يدل على تغايرهما . فالجواب أن يقال إن مسمى الجسم في اصطلاح المتفلسفة والمتكلمين أعم من مسماه في لغة العرب وعرف أهل العرف فإن الفلاسفة يطلقون الجسم على قابل الابداد الثلاثة خفيفا كان أو ثقيلًا مرئيا كان أو غير مرئي فيسمون الهواء جسما والنار جسما والماء جسما وكذلك الدخان والبخار والكوكب ، ولا يعرف في لغة العرب تسمية شيء من ذلك جسما التمة بهذه لغتهم وأشعارهم ، وهذه القول عنهم في كتب اللغة ، قال الجوهري قال أبو زيد الجسم الجسد وكذلك الجسان والجثمان . قال الأصمعي الجسم والجسان الجسد والجثمان الشخص وقد جسم الشيء أي عظم فهو عظيم جسيم وجسام بالضم .

ونحن إذا سمينا النفس جسما فإنما هو باصطلاحهم وعرف خطابهم وإلا فلا يست حسبا باعتبار وضع اللغة ، ومقصودنا بكونها جسما إثبات الصفات والأفعال والأحكام التي دل عليها الشرع والعقل والحس من الحركة والانتقال والصعود والنزول ومباشرة الذم والعذاب واللذة والألم وكونها تحبس وترسل وتقبض وتدخل وتخرج ، فلذلك أطلقنا عليها إسم الجسم بحقيقة هذه المعاني وإن لم يطلق عليها أهل اللغة إسم الجسم فالكلام مع هذه التفرقة المبطلة في المعنى لا في اللفظ فقول أهل التخاطب الروح والجسم هو بهذا المعنى .

فصل

وأما الشبهة الثانية . فهي أقوى شبهة التي بها يصلون وعليها يعولون وهم ملبية على أربع مقدمات .

(احداها) ان في الوجود ما لا يقبل النسمة بوجه من الوجود .

(الثانية) انه يمكن العلم به .

(الثالثة) ان العلم به غير منقسم .

(الرابعة) انه يجب أن يكون محل العلم به كذلك ، إذ لو كان جسما لكان متقسما .

وقد نازعهم في ذلك جمهور العقلاء وقالوا لم تنفوا دليلا على أن في الوجود ما لا يقبل النسمة الحسبة . ولا الوهمية وإنما بأيديكم دعاو لاحقيقة لها وإنما أنتيموه من واحد الوجود وهو بناء على أصلكم الباطل عند جميع العقلاء من أهل الملل وغيرهم من أفكار ما فيه الباطل

تعالی وصفاته وانه وجود مجرد لاصفة له ولا ماهية وهذا قول باينتم به العقول وجميع الكتب المنزلة من السماء وإجماع الرسل ونفيتهم به علم الله وقدرته ومشيتته وسمعه وبصره وعلوه على خلقه ونفيتهم به خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وسميتهوه توحيدا وهو أصل كل تعطيل .

(قالوا) والنقطة التي استدلتكم بها من أظهر ما يبطل دليلكم فانها غير منقسمة وهي حالة في الجسم المنقسم فقد حل في المنقسم ما ليس بمنقسم . ثم ان مثبتي الجوهر الفرد وهم جمهور المتكلمين ينازعونكم في هذا الأصل ويقولون الجهر حال في الجسم بل هو مركب منه فقد حل في المنقسم ما ليس بمنقسم ولا يمكن تنقسم دليلكم إلا بغير الجهر الفرد ، فان قلتم النقطة عبارة عن نهاية الخط وفنائه وعدمه فهي أمر عديم . بطل استدلالكم بها ، وإن كانت أمراً وجودياً فقد حلت في المنقسم فبطل الدليل على التقديرين .

(قالوا) أيضاً أفلا لا يكون العلم حالاً في محله لأعلى وجه النوع والسرمان فان حلول كل شيء في محله بحسبه فحلول الحيوان في الدار نوع ، وحلول العريض في الجسم نوع ، وحلول الخط في الكتاب نوع ، وحلول الذهب في السهم نوع وحلول الجسم في العرض نوع ، وحلول الروح في البدن نوع ، وحلول العلوم والمعارف في النفس نوع .

(قالوا) وأيضاً فالوحدة حاصلة فان كانت جوهرية فقد ثبت الجوهر الفرد بطل دليلكم فانه لا يتم إلا بنفيه ، وإن كان عرضاً وجب أن يكون لها محل ، فحلها إن كان منقسماً فقد جاز قيام غير المنقسم بالمنقسم فهو الجوهر وبطل الدليل . فان قلتم الوحدة أمر عديم لا وجود له في الخارج فكذلك أثبتتم به وجود ما لا ينقسم كلها أمور عدمية لا وجود لها في الخارج فان واجب الوجود الذي أثبتتموه أمر عديم بل مستحيل الوجود .

(قالوا) وأيضاً فالاضافات عارضة لأقسام مثل الفوقية والتحتية والمالكية والملوكية فلو انقسم الحال بانقسام محله لزم انقسام هذه الاضافات فكان يكون حقيقة الفوقية والتحتية ربع وثمان وهذا لا يقبله العقل .

(قالوا) وأن القوة الوهمية والفكرية جسمانية عند زعيمكم ابن سينا فيلزم أن يحصل لها أجزاء وأبعاض وذلك محال لانها لو انقسمت لكان كل واحد من أبعاضها إن كان مثلها كان الجزء مساوياً للكل وإن لم يكن مثلها لم تكن تلك الأجزاء كذلك .

وأيضاً فإن الوهم لا معنى له إلا كون هذا صديقاً وهذا عدواً وذلك لا يقبل القسمة .

(قالوا) وأن الوجود أمر زائد على الماهيات عندكم فلو لزم انقسام الحال لاقسام محله

لزم انقسام ذلك الوجود بانقسام محله . وهذا الوجه لا يلزم من جعل وجود الشيء غير ماهيته .

(قالوا) وأيضاً فطبائع الأعداد ماهيات مختلفة ، فالمفهوم من كون العشرة عشرة مفهوم واحد وماهية واحدة ، فتلك الماهية إما أن تكون عارضة لكل واحد من تلك الآحاد وهو محال ، وإما أن تنقسم بانقسام تلك الآحاد وهو محال ، لأن المفهوم من كون العشرة عشرة لا يقبل القسمة . نعم العشرة تقبل القسمة لعشرتها . قالوا فقد قدم ما لا ينقسم بالمقسوم .

(قالوا) وأيضاً فالكيفيات المختصة بالكيفيات كالاستدارة والنقرش ونحوهما عند الفلاسفة أعراض موجودة في شبه الاستدارة . إن كان عرضاً فإما أن يكون بتمامه قائماً ، وإما أن يكون بكل واحد من الأجزاء وهو محال ، وإما أن ينقسم ذلك العرض بانقسام الأجزاء ويقوم بكل جزء من أجزاء الخط جزء من أجزاء ذلك العرض وهو محال ، لأن جزءه إن كان استدارة لزم أن يكون جزء الدائرة دائرة ، وإن لم يكن استدارة فنحن اجتراح الأجزاء إن لم يحدث أمر زائد وجب أن لا تحصل الاستدارة وإن حدث أمر زائد فإن كان منقسماً زاد التقسيم وإن لم ينقسم كان الحال غير منقسم ومحلّه منقسماً .

(قلت) وهذا لا يلزمهم فإن لهم أن يقولوا ينقسم بانقسام محله تبعاً له كسائر الأعراض القائمة بمحالتها من البياض والسواد ، وأما ما لا ينقسم كالطول فشرط حصوله اجتناع الأجزاء والملحق على الشرط منتف بانتهائه .

(قالوا) وإن هذه الأجسام ممكنة بذواتها وذلك صفة عرضية لها خارجة عن ماهيتها فإن لم تنقسم بانقسام محلها بطل الدليل ، وإن انقسمت عاد المخدور المذكور من سداة الجزء للسكل والتسلسل .

(قلت) وهذه أيضاً لا يلزمهم لأن الامكان ليس أمر يدل على قبول الممكن أو حوله وللعدم وذلك القبول من لوازم ذاته ليس صفة عارضة له وإنما الذي يوجد هذا القبول عن القابل فيكون عروضة للماهية بتجريد الذهن . وأما قضية مشاركة الجزء لكل فلا امتناع في ذلك كسائر الماهيات البسيطة ، فإن جزأها مساو لكلها في الحد والحقيقة كالماء والتراب والهواء وإنما الممتنع أن يساوى الجزء للسكل في الحكم لأن نفس الحقيقة .

والمعول في ابطال هذه الشبهة على أن العلم ليس بصورة حالة في النفس ، وإنما هو نسبة وإضافة بين العلم والمعلوم كما نقول في الابصار أنه ليس بانطباع صورة مساوية لتصوره في القوة الباصرة وإنما هو نسبة وإضافة بين القوة الباصرة والمبصر وعمامة شبيههم إلى أول دوما

في هذا الفصل مبنية على انطباع صورة المعلوم في القرية العالمية ثم بنوا على ذلك أن انقسام ما لا ينقسم في المنقسم محال .

وقولهم محل العلوم الكلية لو كان جسماً أو جسمانياً لانقسمت تلك العلوم لأن الحال في المنقسم منقسم لم يذكرها جسمه هذه المقدمة دليلاً ولا شبهة وإنما بأيديهم مجرد الدعوى وليست بديهية حتى تستغنى عن الدليل وهي مبنية على أن العلم بالشئ عن حصول صورة مسارية لماهية المعلوم في نفس العالم وهذا من أبطل الباطل للوجوه التي نذكرها هناك .

وأيضاً فلو سلينا لكم ذلك كان من أظهر الأدلة على بطلان قولكم فإن هذه الصورة إذا كانت حالة في جرمها النفس الناطقة فهي صورة جزئية حالة في نفس جزئية تقارنها سائر الأعراض الحالة في تلك النفس الجزئية فإذا اعتبرنا تلك الصورة مع جملة هذه اللواحق لم تكن صورة مجردة بل مقرونة بلواحق وعوارض وذلك يمنع كليتها .

(فان قلتم) المراد بكونها كلية إنما إذا حذفنا عنها تلك اللواحق واعتبرناها من حيث هي هي كانت كلية قلنا لكم فإذا جاز هذا فلم لا يجوز أن يقال هذه الصورة حالة في مادة جسمانية بخصوصية بمقدار معين وبكل معين إلا أنها إذا حذفنا عنها ذلك واعتبرناها من حيث هي هي كانت بمنزلة تلك الصورة التي فطننا بها ذلك فالمعين في مقابلة المعين المطلق المأخوذ من حيث هو هو في مقابلة محله المطلق ، وهذا هو المعقول الذي شهدت به العقول الصحيحة والميزان الصحيح ، فظهر أن هذه الشبهة من أفسد الشبه وأبطلها ، وإنما أتى القوم من الكليات فإنما هي التي خربت دورهم وأفسدت نظرهم ومناظرهم فإنهم جردوا أموراً كلية لا وجود لها في الخارج ثم حكموا عليها بأحكام الموجودات وجعلوها ميزاناً وأصلاً للموجودات .

فإذا جردوا صور المعلومات وجعلوها كلية جردنا نحن محلها وجعلناها كلية . وان أخذوا جزئية معينة فجعلوها كذلك ؛ فالكل في مقابلة الكل والجزئي في مقابلة الجزئي .

على أنا نقول ليس في الذهن كلي وإنما في الذهن صورة معينة مشخصة منطبعة على سائر أفرادها ، فان سميت كلية بهذا الاعتبار فلا مشاحة في الالفاظ وهي كلية وجزئية باعتبارين .

فصل

قولكم في الوجه الثالث أن الصور العقلية الكلية مجردة وتجردتها إنما هو بسبب الأخذ بها وهو القوة العقلية . جوابه أن يقال ما الذي تريدون بهذه الصورة العقلية الكلية ؟ أتريدون به أن المعلوم حصل في ذات العالم أو أن العلم به حصل في ذات العالم ، فالاول ظاهر الاحالة

والثاني حق الا أنه لا يفيدكم شيئاً لأن الأمر الكلي المشترك بين الأشخاص الإنسانية هو الإنسانية لا العلم بها والإنسانية لا وجود لها في الخارج كلية والوجود في الخارج المعينات فقط والعلم تابع للمعلوم فكما أن المعلوم معين فالعلم به معين لكنه صورة منطبقة على أفراد كثيرة ، فليس في الذهن ولا في الخارج صورة غير منقسمة البتة ، وكم قد غلط في هذا الموضوع طوائف من العقلاء لا يحصيهم إلا الله تعالى ، فالصورة الكلية التي يشبهونها ويزعمون أنها حالة في النفس فهي صورة شخصية موصوفة بعوارض شخصية ، فهب أن هذه الصورة العقلية حالة في جوهر ليس بجسم ولا جسماني فإما غير مجردة عن العوارض (فان قلتم) مرادنا بكونها مجردة النظر إليها من حيث هي هي مع قطع النظر عن تلك العوارض .
قيل لكم فلم لا يجوز أن تكون الصورة الحالة في المحل الجسماني منقسمة وإنما تكون مجردة إذا نظرنا إليها من حيث هي هي بقطع النظر عن عوارضها .

فصل

قولكم في الرابع أن العقلية تقوى على أفعال غير متناهية ولا شيء من القوى الجسمانية كذلك . فجوابه انا لانسلم أنها تقوى على أفعال غير متناهية .
وقولكم أنها تقوى على إدراكات لا تنهاى هي والإدراكات أفعال . مقدمتان كاذبتان فإن إدراكاتها ولو بلغت ما بلغت فهي متناهية فلو كان لها بكل نفس ألف إدراكات إدراكاتها فهي قطعاً تنهى في الإدراكات والمعارف إلى حد لا يمكنها أن تزيد عليه شيئاً كما قال تعالى (وفوق كل ذي علم عليم) إلى أن ينهى العلم إلى من هو بكل شيء عليم ، فهو الله الذي لا إله إلا هو وحده ، وذلك من خصائصه التي لا يشاركه فيها سواه .
(فان قلتم) لو انتهى إدراكها إلى حد لا يمكنها المزيد عليه لزم انقلاب الشيء من الإمكان الذاتي ، قلنا فهذا بعينه لو صح دل على أن القوة الجسمانية تقوى على أفعال غير متناهية ، وذلك يوجب سقوط الشبهة وبطلانها .
وأيضاً فإن قوة التخيل والتفكير والتذكر تقوى على استحضار الخيالات والمذكرات إلى غير نهاية مع أنها عندكم قوة جسمانية .
(فان قلتم) لانسلم أنها تقوى على ما لا يتناهى قيل لكم هكذا يقول خصومكم في القوة للعاقلة سواه .

وأما كذب المقدمة الثانية فإن الإدراك ليس بفعل فلا يلزم من تنهاى فعلها تنهاى إدراكها وقد صرحتم بأن الجوهر العقلي قابل لصورة المعلوم لأنها فاعل لها ، والشيء الواحد لا يكون

فاعلا ، قابلا عندكم ، وقد صرحتم بأن الأحسام يتمتع عليها أفعال لانهاية لها ولا يتمتع عليها
بجهدولات وانفعالات لاتنهاى ، وقد أورد ابن سينا على هذه الشبهة -والا فقال أليس النفس
الفلكية المباشرة تتحرك الفلك قوة جسمانية مع أن الحركات الفلكية غير متناهية ؟ وأجاب
عنه بأنها وإن كانت قوة جسمانية إلا أنها تستمد الكمال من العقل المعارق فهذا السبب قدرت
على أفعال غير متناهية .

ونقول وإذا كان الأمر عندك كذلك فلم لا يجوز أن يقال النفس الناطقة تستمد الكمال
والقوة من فاطرها ومذنبها الذى له القوة حياً فلا جرم تقوى مع كونها جسمانية على
مالا يتأها فإذا قلت بذلك وافقت الرسل والعقل ودخلت مع زمرة المسلمين وفارقت
العصاة المبطلين .

فصل

(قوله الخامس) لو كانت القوة العاقلة فى آفة جسمانية لوجب أن تكون
دائمة الإدراك لئلا تلك الآفة تروى الإدراك لها فهو مبنى على أصلكم العاسد أن الإدراك
عبارة عن حصول صورة فى قوة الإدراك فى القوة المدركة . ثم لو سلمنا لكم ذلك الأصل لم يقدم
شيئاً من حصول تلك الصورة يكون شرطاً لحصول الإدراك ، فأما أن يقول أو يقال أن
الإدراك عين حصول تلك الصورة فهذا لا يقوله عاقل . فلم لا يجوز أن يقال للقوة العقلية حالة
فى جسم مخصوص . ثم إن القوة الناطقة قد تحصل لها حالة إضائية تسمى بالشعور والإدراك
فحينئذ تسمى القوة العاقلة مدركة لتلك الآلة ، وقد لا توجد تلك الحالة الإضافية فتصير غافلة
عنها ، وإذا كان هذا ممكناً سقطت تلك الشبهة رأساً . ثم نقول أندعون أنا إذا عقلنا شيئاً
فإن الصورة الحاضرة فى العقل مساوية لذلك المعقول من جميع الوجوه والاعتبارات أو لا يجب
حصول هذه المساواة من جميع الوجوه ؟ فالأول لا يقوله عاقل وهو أظهر من أن يحتج لفساده
وإذا علم أنه لا يجب المساواة من جميع الوجوه لم يلزم من حدوث صورة أخرى فى القلب أو
الدماغ اجتماع المثليين .

وأيضاً فالقوة العاقلة حالة فى جوهر القلب أو الدماغ ، والصورة الحادثة حالة فى القوة العاقلة ،
فأحدى الصورتين محل للقوة العاقلة (١) وأيضاً فنحن إذا رأينا المسافة الطويلة والبعد الممتد
فهل يتوقف هذا الإبصار على ارتسام صورة المرئى فى عين الرأى أو لا يتوقف ؟ فإن توقف
لزم اجتماع المثليين لأن القوة الباصرة عندكم جسمانية فهم فى محل له حجم ومقدار فإذا حصل

(١) كذا .

فيه حجم المرئي ومقداره لزم اجتماع المثليين ، وإذا جاز هناك فلم لا يجوز مثله في مستتبا ؟
وإن كان إدراك الشيء لا يتوقف على حصول صورة المرئي في الرائي بطل قولكم أن إدراك
القلب والدماع يتوقف على حصول صورة القلب والدماع في القوة العاقلة .

وأيضاً فقولكم لو كانت القوة العقلية حالة في جسم لوجب أن تكون دائمة الإدراك لذلك
الجسم لكن إدراكنا لقلبنا ودماعنا غير دائم فهذا إنما يلزم من يقول أنها حالة في القلب أو الدماغ
وأما من يقول أنها حالة في جسم مخصوص وهو النفس وهي مشابهة للبدن فهذا الالتزام غير
وارد عليه فإنه يقول النفس جسم مخصوص والإنسان أبدأ عالم بأنه جسم مخصوص ولا يزول
ذلك عن عقله إلا إذا عرضت له الغفلة فسقطت الشبهة التي عرضت عليكم عليها على كل تقدير .

فصل

(قولكم في السادس) أن كل أحد يدرك نفسه ، والإدراك عبارة عن حصول ماهية المعلوم
عند العالم وهذا إنما يصح إذا كانت النفس غنية عن المحل إلى آخره .

جوابه أن ذلك مبنى على الأصل المتقدم وهو أن العلم عبارة عن حصول صورة مساوية
للمعلوم في نفس العالم ، وهذا باطل من وجوه كثيرة مذكورة في مسألة العلم ، حتى لو سلم ذلك
فالصورة المذكورة شرطاً في حصول العلم لا أنها نفس العلم .

وأيضاً فهذه الشبهة مع ركاكة ألفاظها وفساد مقدماتها منقوضة فإنا إذا أخذنا حججاً أو
خشبة قلنا هذا جوهر قائم بنفسه ، فذاته حاضرة عند ذاته فيجب في هذه الجمادات أن تكون
عالمة بذواتها .

وأيضاً فجميع الحيوانات مدركة لذواتها فلو كان كون الشيء مدركاً لذاته تقتضي كون
ذاته جوهرًا مجرداً لزم كون نفوس الحيوانات بأسرها جواهر مجردة وأنتم لا تقولون بذلك .

فصل

(قولكم في السابع) الواحد منا يتخيّل بحراً من زئبق وجبالاً من ياقوت إلى آخره
وهو شبهة أبي البركات البغدادي ، فشبهة داحضة جداً فإنها مبنية على أن تلك المتخيلات أمور
موجودة وأنها منطبعة في النفس الناطقة انطباع النفس في محله ، ومعلوم قطعاً أن هذه المتخيلات
لاحقيقة لها في ذاتها وإنما الذهن يفرضها تقديراً وليست منطبعة في النفس فإن العلوم الخارجية
لا تنطبع صورها في النفس فكيف بالخيالات المعدومة ؟ فهذه مندحضة ولا يمنع من وقوع

التمييز بين الاعدام المضادة فإن العقل يميز بين عدم السمع وعدم البصر وعدم الشم وغير ذلك ولا يلزم من هذا التمييز كون هذه الاعدام موجودة ، بل يميز بين أنواع المستحيلات التي لا يمكن وجودها البتة . ثم نقول إذا عقل حلول الأشكال والتقارير فيما كان مجرداً عن الحجمية والمقدار من كل الوجوه أهلاً يعقل حلول العلم بالنسك العظيم والمقدار العظيم في الجسم الصغير؟ وأيضاً فإذا كان عدم الانطباق من جميع الوجوه لا يمنع من حلول الصورة والشكل في الجوهر المحرود فعدم انطباق العظيم على الصغير أولى أن لا يمنع من حلول الصورة العظيمة في المحل الصغير .
وأيضاً فإن سلفكم من الأرائل أقاموا الدليل على أن انطباق الصورة الحسنة في الجوهر المحرود محال وذكروا له وجوها .

فصل

(قولكم في الثامن) لو كانت القوة العقلية جدانية اضعفت في زمن الشيخوخة وليس كذلك جوابه من وجوه :

(الوجه الأول) لم يجوز أن يقال القدر المحتاج إليه من صحة الدن في كمال القوة العقلية مقدار معين ، وأما كمال حال الدن في الصحة فانه غير معتبر في كمال حال القوة العقلية ، وإذا احتمل ذلك لم يعد أن يقال ذلك القدر المحتاج إليه باق إلى آخر الشيخوخة فبقى العقل إلى آخرها .

(الوجه الثاني) أن الشيخ لعله إنما يمكنه أن يستمر في الإدراكات العقلية على الصحة أن عقله يبقى بعض الاعضاء التي يتأخر الفساد والاستحالة إليها فإذا انتهى إليها الفساد والاستحالة فسد عقله وإدراكه .

(الوجه الثالث) أنه لا يمتنع أن يكون بعض الامزجة أوفق لبعض القوى ، فعمل مزاج الشيخ أرفق للقوة العقلية فلمذا السبب تقوى فيه القوة العاقلة .

(الوجه الرابع) أن المزاج إذا كان في غاية القوة والشدة كانت سائر القوى قوية فتكون القوة الشهوانية والغضبية قوية جداً وقوة هذه القوى تمنع العقل من الاستكمال ، فإذا حصلت الشيخوخة وحصل الضعف حصل بسبب الضعف ضعف في هذه القوى المسانعة للعقل من الاستكمال وحصل في العقل أيضاً ضعف ولكن بعد ما حصل في العقل من الضعف حصل ذلك في أصداده فينجبر النقصان من أحد الجانبين بالنقصان من الجانب الآخر فيقع الاعتدال .

(الوجه الخامس) أن الشيخ حفظ العلوم والتجارب الكثيرة ومارس الأمور ودرجها

وكثر تجاربه ، وهذه الاحوال تعينه على وجوه الفكر وقوة النظر فقام ^(١) النقصان الحاصل بسبب ضعف البدن والقوى .

(الوجه السادس) أن كثرة الافعال بسبب حصول الملكات الراسخة فصارَت الزيادة الحاصلة بهذا الطريق جابراً للنقصان الحاصل بسبب اختلال البدن .

(الوجه السابع) أنه قد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال يهرم ابن آدم وتشب فيه خصمان الحرص وطول الأمل . والواقع شاهد لهذا الحديث مع أن الحرص والأمل من القوى الجسمانية والصفات الخيالية ثم أن ضعف البدن لم يوجب ضعف هاتين الصفتين فعلم أنه لا يلزم من اختلال البدن وضعفه ضعف الصفات البدنية .

(الوجه الثامن) أنا نرى كثيراً من الشيوخ يصبرون إلى الحرف وضعف العقل بل هذا هو الأغلب ويدل عليه قوله تعالى (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً) فالشيخ في أرذل عمره يصير كالطفل أو أسوأ حالاً منه وأما من لم يحصل له ذلك فإنه لا يرد إلى أرذل العمر .

(الوجه التاسع) أنه لا تلازم بين قوة البدن وقوة النفس ولا بين وضعفه وضعفها فقد يكون الرجل قوى البدن ضعيف النفس جباناً خوياً وقد يكون ضعيف البدن قوى النفس فيكون شجاعاً مقداماً على ضعف بدنه .

(الوجه العاشر) أنه لو لم الحكم ما ذكرتم لم يدل على كون النفس جوهرًا مجرداً لادخال العالم ولا خارجه ولا هي في البدن ولا خارجه عنه لأنها إذا كانت جسماً صافياً مشرقاً سماوياً مخالفاً للأجسام الأرضية لم تقبل الانحلال والذبول والتبدل كما تقبله الأجسام المتحلة الأرضية فلا يلزم من حصول الانحلال والذبول في هذا البدن حصولها في جوهر النفس .

فصل

(قولكم في التاسع) أن القوة العقلية غنية في أفعالها عن الجسم وما كان غنياً عن الجسم في أفعاله كان غنياً عنه في ذاته إلى آخره . جوابه أن يقال لا يلزم من ثبوت حكم في قوة جسمانية ثبوت مثل ذلك الحكم في جميع القوى الجسمانية وليس معكم غير الدعوى المجردة والقياس الفاسد .

^(١) كذا ولعله فقام مقام .

وأيضاً فالصور والأعراض محتاجة إلى معلما وليس احتياجها إلى تلك المحال إلا لمجرد ذواتها ولا يلزم من استقلالها بهذا الحكم استغناؤها في ذواتها عن تلك المحال فلا يلزم من كون الشيء مستقلا باقتضاء حكم من الأحكام أن يكون مستغنيا في ذاته عن المحال والله أعلم .

فصل

(قولكم في العاشر) أن القوة الجسمانية تكال بكثرة الأفعال ولا تقوى على القوى بعد الضعف إلى آخره جوابه أن القوة الخيالية حساسية سم لها تقوى على تخيل الأشياء العظيمة مع توالي الأشياء الحقيرة فإنها يمكنها أن تتخيل الشعلة الصغيرة حال ما تخيل الشمس والقمر . وأيضاً فإن الإبصار القوية القاهرة تمنع إبصار الأشياء الضعيفة ، فكذلك نقول العقول العظيمة العالية تمنع تفكير المعقولات الضعيفة فإن المستغرق في معرفة جلال رب الأرض والسموات ، أعمته وصفاته يمتنع عليه في تلك الحال الفكر في ثبوت الجوهر الفرد وحقيقته .

فصل

(قولكم في الحادي عشر) أنا إذا حكنا بأن السواد مضاد للبياض وجب أن يحصل في الدهن مادة السواد والبياض معاً والبداهة حاكمة بأراجماعهما في الجسم محال . جوابه أن هذا مبنى على أن من أدرك شيئاً فقد حصل في ذات المدرك صورة مساوية للمدرك ، وهذا باطل واستدلالكم على صحته بانطباع الصورة في المرآة باطل فإن المرآة لم ينطبع فيها شيء البتة كما بقوله جمهور العقلاء من الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم والقول بالانطباع باطل من وجوه كثيرة ثم نقول إذا كنتم قد قلتم ان المتطبع في النفس عند إدراك السواد والبياض رسومهما ومثالهما لاحقيقتهما فلم لا يجوز حصول رسوم هذه الأشياء في المادة الجسمانية ؟

فصل

(قولكم في الثاني عشر) أنه لو كان محل الإدراكات جسماً وكل جسم منقسم لم يمنع أن يقوم ببعض أجزاء الجسم علم بالشيء ، وبالجزء الآخر منه جهل به فيكون الإنسان عالماً بالشيء جادلاً به في وقت واحد . جوابه أن هذه تشبهة منتقضة على أصولكم فإن الشهوة والغضب والتخيل من الأحوال الجسمانية عندهم ومحلها منقسم فلزمكم أن تجوزوا قيام الشهوة والغضب بأحد الجزأين وضدهما بالجزء الآخر فيكون مشتبهاً للشيء نافرأ عنه غضبان عليه غير غضبان في وقت واحد .

فصل

(قولكم في الثالث عشر) ان المادة الجسمانية إذا حصلت فيها نقوش مخصوصة امتنع فيها حصول مثلها والنفوس البشرية بصد ذلك . إلى آخره .

(جوابه) ان غاية هذا أن يكون قياسا بمتازا بغير جامع وذلك لا يفيد الظن فضلا عن اليقين فان النقوش العقلية هي العلوم والادراكات والنقوش الجسمانية هي الأشكال والصور ولا ريب أن العلوم مخالفة بحقائقها للصور والأشكال ولا يلزم من ثبوت حكم في نوع من أنواع الماهيات ثبوته فيما يخالف ذلك النوع .

فصل

(قولكم في الرابع عشر) لو كانت النفس جسما لسكان بين تحريك المحرك رجله . بين إرادته للحركة زمان . إلى آخره .

(جوابه) ان النفس مع الجسد لا تخلو من ثلاثة أحوال ، إما أن تكون لايسة للجسم من خارج كالثوب ، أو تكون في موضع واحد كالقلب والدماغ أو تكون سارية في جميع أجزاء الجسد . وعلى كل تقدير من هذه التقادير فتحريكها لما تريد تحريكه يكون مع إرادتها لذلك بلا زمان كأدراك البصر لما يلاقيه وإدراك السمع والشم والذوق . وإذا قطع العضو لم ينقطع ما كان من جسم النفس متجلا لذلك العضو سواء كانت لايسة له من داخل أو من خارج بل تفارق العضو الذي بطل جسمه في الوقت وتنقص عنه بلا زمان ويكون منقطعاً لذلك العضو كفارقة الهواء للأناء إذا ملىء ماء . وأما إن ثابت النفس ساكنة في موضع واحد من البدن لم يلزم أن تبين مع العضو المقتطوع . وأما إن كانت لايسة للبدن من خارج لم يلزم أن يكون بين إرادتها لتحريكه ونفس التحريك زمان بل يكون فعلها حينئذ في تحريك الأضواء كفعل المغناطيس في الحديد وإن لم يلاصقه .

ثم نقول هذا الهديان الذي شغلتم به الزمان وورد عليكم بؤبؤه فانها عندكم غير متصلة بالبدن ولا منفصلة عنه ولا داخلة فيه ولا خارجة عنه فيلزمكم مثل ذلك .

فصل

(قولكم في الخامس عشر) لو كانت حسما لسكان منقسمة ، أصبح علمها كعلمها . وتجهل بعضها فيكون الانسان عالما ببعض نفسه جاهلا بالباقي .

(جوابه) أن هذه الشبهة مركبة من مقدمتين تلازمية واستثنائية والمنع واقع في كلا المقدمتين أو إحداهما فلان لم أنها لو كانت جسما لصح أن تعلم بعضها وتجهل بعضها فان نفس بسيطة غير مركبة من هذه العناصر ولا من الأجزاء المختلفة فتح شعرت بذاتها شعرت بجهلها . فهذا منع المقدمة التلازمية .

وأما الاستثنائية فلان لم أنها لا يصح أن تعلم بعضها حال غفلتها عن البعض الآخر ولم تذكروا على بطلان ذلك شبهة فضلا عن دليل ، ومن المعلوم أن الإنسان قد يشعر بنفسه من بعض الوجوه دون كلها ويتفاوت الناس في ذلك فمنهم من يكون شعوره بنفسه أتم من غيره بدرجات كثيرة وقد قال تعالى (ولأنك كونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) فهؤلاء نسوا نفوسهم لامن جميع الوجوه بل من الوجه الذي به مصالحها وكآلهما وسعادتها وإن لم يذسوها من الوجه الذي منه شهوتها وحظها وإرادتها وأناسهم مصالح نفوسهم أن يفعلوها ويطلبوها ، وهيوبها وتقائدها أن يزيلوها ويحذيرها وكآلهما الذي خلقت له أن يعرفوه ويطلبوه ، فهم جاهلون بحقائق أنفسهم من هذه الوجوه وإن كانوا عالمين بها من وجوه أخرى .

فصل

(قولكم في السادس عشر) لو كانت النفس جسما لوجب ثقل البدن بدخولها فيه لان من شأن الجسم إذا زدت عليه جسما آخر أن يشقل به .

فهذه شبهة في غاية الثقالة والمحتج بها أنقل وليس كل جسم زيد عليه جسم آخر ثقله فهذه الخشبة تكون ثقيلة فاذا زيد عليها جسم النار خفت جدا . وهذا الظرف يكون ثقيلًا فاذا دخله جسم الهواء خف . وهذا إنما يكون في الأجسام الثقال التي تطلب المركز والوسط بطبيعتها وهي تتحرك بالطبع اليه ، وأما الأجسام التي تتحرك بطبيعتها إلى العلو فلا يعرض لها ذلك بل الأمر فيها بالخذ من تلك الأجسام الثقال بل إذا أضيفت إلى جسم ثقيل أكسبته الخفة وقد أخذ هذا المعنى بعضهم فقال :

ثقلت زجاجات أتتنا فرغا حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت وكذا الجسم تخف بالارواح

فصل

(قولكم في السابع عشر) لو كانت النفس جسما لكانت على صفات سائر الأجسام التي لا تخلو منها من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والنعومة والخشونة .

إلى آخره . شبهة فاسدة وحجة داحضة فإنه لا يجب اشتراك الأجسام في جميع الكيفيات والصفات وقد فاوت الله سبحانه بين صفاتها وكيفياتها وطبائعها منها ما يرى بالبصر ويلس باليد ، ومنها ما لا يرى ولا يلمس ، ومنها ما له لون ومنها ما لا لون له ، ومنها ما لا يقبل الحرارة والبرودة ، ومنها ما يقبله ، على أن للنفس من الكيفيات المختصة بها ما لا يشاركها فيها البدن ولها خفة وثقل وحرارة وبرودة ويبس ولين بحسبها وأنت تجد الإنسان في غاية الثقالة وبدنه نحيل جداً وتجد في غاية الخفة وبدنه ثقيل وتجد نفساً لينة وادعة ونفساً يابسة قاسية ، ومن له حس سليم يشم رائحة بعض النفوس كالجيفة المنتنة ورائحة بعضها أطيب من ريح المسك ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا مر في طريق بقي أثر رائحته في الطريق ويعرف أنه مر بها وتلك رائحة نفسه وقلبه ، وكانت رائحة عرقه من أطيب شيء وذلك تابع لطيب نفسه وبدنه وأخبر وهو أصدق البشر أن الروح عند المفارقة يوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض . ولولا الزكام الغالب لشم الحاضرون ذلك على أن كثيراً من الناس يجد ذلك وقد أخبر به غير واحد ويكفي فيه خبر الصادق المصدوق ، وكذلك أخبر بأن أرواح المؤمنين مشرقة وأرواح الكفار سود .

وبالجملة فكيفيات النفوس أظهر من أن ينكرها إلا من هو من أجهل الناس بها .

فصل

(قواكم في الثامن عشر) لو كانت النفس جسماً لوجب أن تقع تحت جميع الخواص أو تحت حاسة منها . إلى آخره .

جوابه منع اللزوم فإنكم لم تذكروا عليه شبهة فضلاً عن دليل ، ومنع انتفاء اللازم فإن الروح تدرك بالحواس فتلمس وترى وتشم لها الرائحة الطيبة والخبيثة كما تقدم في النفوس المستفيضة ولكن لا نشاهد نحن ذلك ، وهذا الدليل لا يمكن ممن يصدق الرسل أن يحتاج به فإن الملك جسم ولا يقع تحت حاسة من حواسنا ، وكذلك الجن والشياطين أجسام الخفاف لا تقع تحت حاسة من حواسنا ، والأجسام متفاوتة في ذلك تفاوتاً كثيراً ، فمنها ما يدرك ما أكثر الحواس ، ومنها ما لا يدرك بأكثرها ، ومنها ما يدرك بحاسة واحدة ، ومنها ما لا تدرك نحن في الغالب وإن أدرك في بعض الأحوال لكونه لم يخلق لنا إدراكه أو لماسع يمنع من إدراكه أو للطفه عن إدراك حواسنا ، فما عدم اللون من الأجسام لم يدرك بالبصر كالهواء والنار في عنصرها ، وما عدم الرائحة لم يدرك بالشم كالنار والحصى والزجاج ، وما عدم المجسة لم يدرك باللمس كالهواء الساكن .

وأيضاً فالروح هي المدركة لمدارك هذه الحواس بواسطة آلاتها فالنفس هي الحاسة المدركة وإن لم تكن محسوسة فالاجسام والاعراض محسوسة والنفس محسوسة بها ، وهي القابلة لاعراضها المتعاقبة عليها من النضائل والردائل كقبول الاجرام لاعراضها المتعاقبة عليها ، وهي المتحركة باختيارها المحركة للبدن قسراً وقهراً . وهي مؤثرة في البدن متأثرة به تألم وتلذ وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتدم وتبأس وتحب وتكره وتذكر وتنسى وتصعد وتنزل وتعرف وتتكبر ، وآثارها من أدل الدلائل على وجودها كما أن آثار الخالق سبحانه دالة على وجوده وعلى كماله فان دلالة الاثر على مؤثره ضرورية .

وتأثيرات النفوس بعضها في بعض أمر لا ينكره ذو حس سليم ولا عقل مستقيم ولا سبباً عند تجردها نوع تجرد عن العلائق والعوائق الدنية فإن قواها تتضاعف وتزايد بحسب ذلك ولا سيما عند مخالفة هواها وحملها عن الاخلاق العالية من العفة والشجاعة والعدل والسخاء وتجرها سفاسف الاخلاق ورذائلها وسافلها فان تأثيرها في العالم يقرب جداً تأثيراً يعجز عنه البدن وأعراضه أن تنظر^(۱) إلى حجر عظيم قد شقه أربحيوان كبير فقتله أو إلى نعمة فتزيلها وهذا أمر قد شاهدته الأمم على اختلاف أجناسها وأديانها وهو الذي سبب إصابة العميين فيضيقون الاثر إلى العين وليس لها في الحقيقة وإنما هو النفس المتكيفة بكيفية ردية سمية ، وقد تكون بواسطة نظر العين وقد لا تكون بل بوصفه الشيء من بعيد فتتكيف عليه نفسه بتلك الكيفية فتفسده وأنت ترى تأثير النفس في الاجسام صفرة وحمرة وارتعاشاً بمجرد قابلتها لها وقوتها وهذه وأضواؤها آثار خارجة عن تأثير البدن وأعراضه فالبدن لا يؤثر إلا فيما لا فاه وماهه تأثيراً مخصوصاً ولم تزل الأمم تشهد تأثير الهيم الفعالة في العالم وتستعين بها وتحذر أثرها وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يغسل العائن مغابته ومواضع القدر منه ثم يصب ذلك الماء على المعين فانه يزبل عنه تأثير نفسه فيه وذلك بسبب أمر طبع اقتضته حكمة الله سبحانه فان النفس الأمانة لها بهذه المواضع تعلق والى والأرواح الخبيثة الخارجية تساعد وتآلف هذه المواضع غالباً المناسبة بينها وبينها فاذا غسلت بالماء طمئت تلك النارية منها كما بطمأ الحديد الحمى بالماء فاذا صب ذلك الماء على المصاب طفاً عنه تلك النارية التي وصلت إليه من العائن وقد وصف الاطباء الماء الذي يطفأ فيه الحديد لآلام وأوجاع معروفة وقد جرب الناس من تأثير الأرواح بعضها في بعض عند تجردها في المنام عجائب تفوت الحصر وقد نبهنا على بعضها فيما مضى فعالم الأرواح عالم آخر أعظم من عالم الأبدان وأحكامه وآثاره

(۱) لعله كأن تنظر إذ العبارة لانستقيم بلفظ ان .

أعجب من آثار الأبدان بل كل ما في العالم من الآثار الانسانية فانما هي من تأثير النفوس بواسطة البدن فان نفوس والأبدان يتعارفان على التأثير تعاون المشتركين في الفعل وتفرد النفس بآثار لا يشاركها فيها البدن ولا يكون للبدن تأثير لا تشاركه فيه النفس .

فصل

(قولكم في التاسع عشر) لو كانت النفس جسماً لكانت ذات طول وعرض وعمق وشكل وسطح وهذه المقادير لا تقوم إلا بمادة . إلى آخره .

(جوابه) أنا نقول قولكم هذه المقادير لا تقوم إلا بمادة قلنا وكان ماذا والنفس لها مادة خلقت منها وجمعت على شكل معين وصورة معينة .

(قولكم) مادتها ان كانت نفساً لزم اجتماع نفسين وإن كانت غير نفس كانت مركبة من بدن وصورة .

(قلنا) مادتها ليست نفساً كما أن مادة الإنسان ليست إنساناً ومادة الجن ليست جنّاً ومادة الحيوان ليست حيواناً .

(قولكم) يلزم كون النفس مركبة من بدن وصورة . مقدمة كاذبة وإنما يلزم كون النفس مخلوقة من مادة ولها صورة معينة وهكذا نقول سواء ولم تذكروا على بطلان هذا شبهة فضلاً عن حجة ظنية أو قطعية .

فصل

(قولكم في الوجه العشرين) أن خاصة الجسم أن يقبل التجزى وأن الجزء الصغير منه ليس كالكبير فلو قبلت التجزى فكل جزء منها ان كان نفساً لزم أن يكون للإنسان نفوس كثيرة وإن لم يكن نفساً لم يكن المجموع نفساً .

(جوابه) إن أردتم أن كل جسم يقبل التجزى في الخارج فكذلك ظاهر فالشمس والقمر والكواكب لا تقبل ذلك ولا يلزم أن كل جسم يصح عليه التجزى والشمس في الخارج ، أما على قول نفاة الجوهر الفريد فظاهر وأما على قول من شبهه فانه عندهم جوهر متعبد لا يصح عليه قبول الانقسام ، سلطنا أنها تقبل الانقسام وأي شيء يلزم من ذلك ؟

(قولكم) إن كان كل جزء من تلك الأجزاء نفساً لزم اجتماع نفوس كثيرة للإنسان .

(قلنا) إنما يلزم ذلك لو انقسمت النفس بالفعل إلى نفوس كثيرة وهذا محال .

(قولكم) وإن لم يكن كل جزء نفساً لم يكن المجموع نفساً . مقدمة كاذبة منقضة فيكم ماهية ثبت لها حكم عند اجتماع أجزائها فإن ذلك الحكم كاهية البيت والإنسان والعشرة وغيرها .

فصل

(قولكم في الوجه الحادى والعشرين) أن الجسم يحتاج في قوامه وبقائه وحفظه إلى نفس أخرى ويلزم التسلسل .

(جوابه) أنه يلزم من افتقار البدن إلى نفس تحفظه افتقار النفس إلى نفس تحفظها وهل ذلك إلا مجرد دعوة كاذبة مستندة إلى قياس قد تبين بطلانه فإن كل جسم لا يعبر إلى نفس تحفظه كأجسام المعادن وجسم الهواء والماء واليابس والتراب وأجسام سائر الجمادات .

(فإن قلتم) ان هذه ليست أحياء ناطقة بخلاف النفس فإنها حية ناطقة .

(قلنا) لم يثبت بقى الدليل هكذا أى كل جسم حتى ناطق يحتاج في حفظه وقيامه إلى نفس تقوم به ، وهذه دعوى مجردة وهى كاذبة فإن الجن والملائكة أحياء ناطقون وليسوا مفتقرين في قيامهم إلى أرواح أخر تقوم بهم .

(فإن قلتم) وكلامنا معكم في الجن والملائكة فإنهم ليسوا بأجسام متحيزة .

(قلنا) الكلام مع من يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . وأما من كفر بذلك فالكلام معه والنفس ضائع ، وقد كفر بباطر النفس ومبدعها وملائكته وما جاءت به رسله وكان تاركاً ما دل عليه البيان مع داييل الإيمان فإن الآثار المشهودة في العالم من تأثيرات الملائكة والجن باذن ربهم لا يمكن إنكارها ، وهى موجودة بنفسها ، ولا تقدر عليها القوى البشرية .

فصل

(قولكم في الثانى والعشرين) لو كانت جسمالكان اتصالها بالبدن إن كان على سبيل المداخلة لوه تداخل الأجسام وإن كان على سبيل الملاصقة والمجاورة كان للانسان الواحد جسمان متلاصقان أحدهما يرى والآخر لا يرى .

جوابه من وجوه :

(أحدها) أن تداخل الأجسام المحال أن يتداخل جسمان كثيفان أحدهما في الآخر بحيث يكون هيزهما واحداً وأما أن يدخل جسم لطيف في كثيف يسرى فيه فهذا ليس بمحال .

(الثانى) أن هذا باطل بهور كثيرة منها دخول الماء في العود والسحاب ودخول النار في الحديد ودخول الغذاء في جميع أجزاء البدن ودخول الجن في المصروع فالروح للطافتها لا يمتنع عليها مشابهة البدن والدخول في جميع أجزائه .

(الثالث) أن حيز النفس البدن وحيزه مكانه المنفصل عنه وهذا ليس بتداخل ممتنع فإذا تارفته صار لها حيز آخر غير حيزه وحينئذ فلا يتداخلان بل يصير لكل منهما حيز يخصه ، وبالجملة فدخول الروح في البدن الطيف من دخول الماء في الثرى والدهن في البدن ، فهذه الشبهة الفاسدة لا يعارض بها ما دل عليها نصوص الوحي والأدلة العقلية . وبالله التوفيق .

المسألة العشرون

وهي هل النفس والروح شيء واحد أو شيان متغايران ؟ فاختلف الناس في ذلك .
(فمن قائل) ان مسألهما واحد وهم الجمهور .
(ومن قائل) انهما متغايران . ونحن نكشف من المسألة بحول الله وقوته فنقول النفس تطلق على أمور :

(أحدها) الروح قال الجوهري النفس الروح يقال خرجت نفسه قال أبو حنيفة
نجها سالما والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومثزر
أي بجفن سيف ومثزر (والنفس والدم) يقال سالت نفسه وفي الحديث ما لا يس له
سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه (والنفس الجسد) .
قال الشاعر :

نبت أن بني تميم أدخلوا أبناءهم تامور نفس المنار

والتامور الدم (والنفس العين) يقال أصابت فلانا أي عينه .
(قلت) ليس كما قال بل النفس هاهنا الروح ونسبة الإضافة إلى العين توسع لاسم النفس
بواسطة النظر المصيب والذي أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم .
(قلت) والنفس في القرآن تطلق على الذات بحملتها كقوله تعالى (فقلوا انفسكم)
وقوله تعالى (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) وقوله تعالى (وكل نفس بما اكتسبت هيئة)
وتطلق على الروح وحدها كقوله تعالى (يا أيها النفس النطمشة) وقوله تعالى (أنسرحوا
أنفسكم) وقوله تعالى (ومن النفس عن الهوى) وقوله تعالى (إن النفس لأمارة بالسوء)
وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس . وتطلق الروح على المعاني
الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله قال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا)
وعلى الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله قال تعالى (يلقى الروح من أمرنا على من

يشاء من عباده لينذر يوم البلاق) وقال تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) وسمى ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة فان الحياة بدونها لا تنفع صاحبها البتة بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة .

وسميت الروح روحاً لأنها حياة البدن وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة وهي من ذوات الوانور لهذا جمع على أرواح قال الشاعر :

إذا ذهبت الأرواح من نحو أرضكم وحسرت لمسرهما على كبدى بردا

وقال الروح بالريح والاسراحة . فسميت النفس روحاً لحصول الحياة بها وسميت سماً لأنها من الشيء النفس المتعاشها وشرفها ، وإنما من نفس الشيء إذا خرج ولكنها خروجا من تحتها وليس سميت سماً ، ومنه النفس بالتحريك ، فان تعبد كلما نام خرجت منه فإذا انتظرت رجعت إليه وإذا ماتت خرجت حياً فإذا دفن عادت إليه فإذا مثل خرجت وإذا سجد رجعت إليه .

والفرق بين النفس والروح فوق بالصفات لا فرق بالذات ، وإنما سمي اسم نفساً لان خروجها البدن يكون معه الموت يلزم خروج النفس وان الحياة لا تتم إلا به كما لا تتم إلا بالنفس فهذا دليل .

تسيل على حد الحياة تنوسنا وليست على غير النظارة تسيل

ويقال فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت نفسه كما يقال خرجت روحه وفارقت ولكن تفيض الاندفاع وهلة واحدة ومنه الإفاضة وهي الاندفاع بكثرة وسرعة لكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته وفاض إذا اندفع قسراً وقهراً فانه سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي .

فصل

(ومات) فرقة أخرى من أهل الحديث والفقه والتصوف الروح غير النفس ، قال مقاتل بن سليمان اللانسان حياة يريح ونفس فاذا نام خرجت نفسه ان يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد بل تخرج كجبل تمتد له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التي خرجت منه وتبقى الحياة والروح في الجسد فيه يتقلب ويتنفس فاذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين فاذا أراد الله عز وجل أن يميت في المنام امسك بلك النفس الى خرجت ، وقال أيضاً إذا نام خرجت نفسه فصعدت إلى فوق فاذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح ويخبر الروح فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت .

(قال) أبو عبد الله بن منده ثم اختلفوا في معرفة الروح والنفس فقال بعضهم النفس طيفية نارية والروح نورية روحانية .

(وقال) بعضهم الروح لاهوتية والنفس ناسوتية وان الخلق بها ابتلى .

(وقالت طائفة) وعم أهل الأثر أن الروح غير النفس والنفس غير الروح وقوام النفس بالروح ، والنفس صورة المد ، والهوى والشهوة والبلاد معجون بها ولا عود أعدى لابن آدم من نفسه . فالنفس لا يرد إلا الدنيا ولا تحب إلا ما بها . والروح تدعو إلى الآخرة وتؤثرها ، وجعل الهوى تبعاً للنفس ، والشيطان تبع النفس والظوى . والملك مع النفس والروح ، والله تعالى يمدحها بالهامه وتوفيقه .

(وقال بعضهم) الأرواح من أمر الله أخفى حقيقةها وعلمها على الخلق .

(وقال بعضهم) الأرواح نور من نور الله وحياة من حياة الله .

ثم اختلفوا في الأرواح هل تموت بموت الأبدان ، الأنافس أو لا تموت ؟

(فقالت طائفة) الأرواح لا تموت ولا تبلى .

(وقالت جماعة) الأرواح على صور الخلق لها أيد وأرجل وأعين وسمع وبصر وسنان

(وقالت طائفة) لثلاثون ثلاثة أرواح . والنفاس والكافور روح واحدة .

(وقال بعضهم) للأنبياء والصدّيقين خمس أرواح

(وقال بعضهم) الأرواح روحانية خلقت من السمكوت . وهذا حديث ضعيف

الملكوت .

(قلت) أما الروح التي تتوفى وتمبض فمن روح واحدة ، وهي النفس .

وأما ما يؤيد الله به أوليائه من الروح فمن روح أخرى غير هذه الروح التي تتوفى .

(أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) وكذلك الروح الذي أيد به النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ابن مريم كما قال تعالى (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك عليّ وما آتيتك من قبله

أيديك بروح القدس) وكذلك الروح التي ياتقها على من يشاء من عباده هو الروح التي ياتقها

في الدين .

وأما القوى التي في الدين فانها تسمى أيضاً أرواحاً فيقال الروح الضار والروح الناصح

والروح الشام ، فهذه الأرواح قوى مودعة في الدين تموت بموت الأبدان ، وهي القوى التي

التي لا تموت بموت البدن ولا تبلى كما يبلى ، فيطلق الروح على أحسن من هذا المعنى وهو

المعرفة بالله والإجابة إليه ومحبة وانتمت المهمة إلى طلبه وإرادته . ونسبة هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن ، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه ، وهي الروح التي يؤيد بها أهل ولايته وطاعته ، ولهذا يقول الناس فلان فيه روح ، وفلان ما فيه روح وهو بو وهو قصة فارغة ونحو ذلك .

فلاعلم روح ، والاحسان روح ، والالاخلاص روح ، وللحبة والإجابة روح ، وللتوكل والصدق روح ، والناس متفارتون في هذه الأرواح أعظم تماوت فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانياً ، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً . والله المستعان .

المسألة الحادية والعشرون

وهي هل النفس واحدة أم ثلاث ؟

فقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس ، نفس مطمئنة ، ونفس لوامة ، ونفس أمارة ، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى ، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى (يا أيها النفس المطمئنة) وقوله تعالى (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة) ويقولون تعالى (إن النفس لأمارة بالسوء) والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبة والإجابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه ، فإن سمة محبة وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه ، فيستغنى بمحبة عن حب ماسواه وبذكره عن ذكر ماسواه وبالشوق إليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ماسواه ، فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعها عليه ، وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه جالس بين يديه يسمع به ويهصر به ويتحرك به ويبطش به ، فتسرى تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله ، ويبين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه ، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره وهو كلامه الذي أنزله على رسوله كما قال تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فان طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه ، وهذا لا يتأتى بشيء سوى الله تعالى وذكره البتة ، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز فضى الله سبحانه وتعالى قضاء لا مرد له أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق

والانزعاج والاضطراب من جهته كائنا من كان ، بل لو اطمأن العبد إلى عبده وحاله وعمله سلبه وزايله ، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضها بسهام البلاء ليعلم عباده وأولياؤه أن المتعاق بغيره مقطوع والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع .

وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسوله ففتلقاه بالنبول ، والتسليم ، والاذعان ، وانشراح الصدر له ، وفرح القلب به ؛ فإنه معرف من معرفات الرب سبحانه إلى عبده هلى لسان رسوله ، فلا يزل القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه ، وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه ، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش ، فيطمئن إليه ، ويسكن إليه ، ويفرح به ويلين له قلبه ومفاعله حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل ، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه فلو خالفه في ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم وقال إذا استوحش من الغربة قد كان الصديق الأكبر مطمئنا بالإيمان وحده وجميع أهل الأرض بخالفه وما نقص ذلك من طمأنينته شيئاً فهذا أول درجات الطمأنينة ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه وهذا أمر لانهاية له فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التي قام عليه بناؤه ، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عياناً وهذا حقيقة اليقين الذي وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان حيث قال (رب الآخرة هم يوقنون) فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينته إلى الأمور التي لا يشك فيها ولا يرتاب ، فهذا هو المؤمن حقا باليوم الآخر كما في حديث حارثة أصبح مؤمنا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا وأهلها وكأني انظر إلى عرش ربي بارزا وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها وأهل النار يمدبون فيها ، فقال : عبد نور الله قلبه .

فصل

والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجهه من آثار العبودية ، مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به يقتضى الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها فيسلم

لها ويرضى بها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه فلا يأسى على ما فاتته ولا يفرح بما أتاه لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق كما قال تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) قال تعالى (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال غير واحد من السلف هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم ، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها ، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومترقاتها كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة فهذه طمأنينة الإيمان .

وأما طمأنينة الاحسان فمن الطمأنينة إلى أمره امثالاً لإخلاصه ونصحاً فلا يقدم على أمره زيادة ولا هوى ولا تقليداً فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولا شهوة تعارض أمره بل إذا برت به أنزلها منزلة الوسايس التي لأن يخرج من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها ، فهذا كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم سريح الإيمان ، وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة في الظفر بالتوبة ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاق الأمرين وباشر قلبه آثارهما فلان طمأنينة تقابل ما في المعصية من الانزعاج والقلق ولو فتش العاصي عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب وإنما يوارى عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة فإن لكل شهوة سكرًا يزيد على سكر الخمر ، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل ما لا يفعله شارب الخمر ، وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والاعراض إلى سكون الاقبال على الله وحلاوة ذكره وتعلق الروح بحبه ومعرفة فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبداً ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك في غاية الانزعاج والقلق والاضطراب ولكن يوارىها السكر فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه .

فصل

وما هنا سر لطيف يجب التنبيه عليه والتنبيه له والتوفيق له بيد من أزمه التوفيق بيده وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الانسان كمالاً إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل له مثاله كمال العين بالابصار ، وكمال الاذن بالسمع ، وكمال اللسان بالنطق ، فإذا عدمت هذه الاعضاء القوي التي بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب قوت ذلك ، وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه في معرفته سبحانه وإرادته ومحبهه والانابة

اليه والاقبال عليه والشوق اليه والانس به ، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابا واضطر ابان
العين التي فقدت النور والبصر ومن اللسان الذي فقد قوة الكلام والذوق ، ولا سبيل له إلى الطمأنينة
بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال الابان يكون الله وحده هو
محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه وان يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك ، فحقيقة
الامر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بآياك نعبد وإياك نستعين ، وأقول المنسرين في الطمأنينة
ترجع إلى ذلك ، قال ابن عباس رضى الله عنهما المطمئنة المصدقة ، وقال قتادة هو المؤمن
اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله ، وقال الحسن المصدقة بما قال الله تعالى وقال مجاهد هي النفس
التي أيقنت بأن الله ربها المسلمة لآمر فيما هو فاعل بها وروى منصور عنه قال النفس التي
أيقنت ان الله ربها وخربت (۱) جاشا لأمره وطاعته وقال ابن أبي نجیح عنه النفس الطمئنة
المختمة إلى الله ، وقال أيضاً هي التي أيقنت بإقام الله فكلام السلف في الطمئنة بدور علي هذين
الأصليين طمأنينة العلم والإيمان وطمأنينة الإرادة والعمل .

فصل

فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين ومن الجهل إلى العلم ومن الغفلة إلى التذكر من التوهم
إلى التوبة ومن الرثاء إلى الاخلاص ومن الكذب إلى الصدق ومن الحسرة إلى التوبة ومن
صولة العجب إلى ذلة الاخبار ومن التيه إلى التواضع ومن القصور إلى العظمة ومن الضيق
الطمأنينة ، وأصل ذلك كله ومشوؤه من اليقظة فهي أصل مغنايح الخير في القابل من استجابة
لقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم بل أسوأ حالا منه لأن القابل بعد استجابته يتردد
والتقاضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق الكبر بحجبه عن حقيقة اليقظة التي
ويقعه عن الاستدراك سنة القلب وهي غفلته التي رقدت فيها فطال وقوده من غير ان يفتقد
نوازع الشهوات فاشتد اخلاصه وركوده ، وانغمس في غمار الشهوات ، واستقرت عن القابل
ومخالطة أهل البطالات ، ورضى بالتشبه بأهل اضاعة الآيات ، فهو من قادم مع الشهوات
وفسكرته مع الخمورين ، فمتى انكشف عن قلبه سنة هذه الغفلة بحجة من رجاها حتى
في قلبه استجاب فيها لو اعط الله في قلب عبده المؤمن ، أو عمدة عليه أثرها مع عمل التفكير
المحل القابل فضرب بمعول فكره وكبر تكبيرة اضاعت له منها قصود الجنة فليس له

الا يا نفس ويحك ساعديني بسعي منك في ظلم القابل

لعلك في القيامة أن تفوزي بطيب العيش في تلك العاقبة

(۱) هكذا وامله ساكنت أو بردت .

فأثارت تلك الفكرة نورا رأى في ضوئه ما خلق له وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار ، ورأى سرعة انقضاء الدنيا وعدم وفائها لذيها وقتلها لعشاقها وفعلها بهم أنواع المشلات فمنض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلا (يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله) فاستقبل بقية عمره التي لا قيمة لها مستدركا بها ما فات ، محيا بها ما أمات ، مستقبلا بها ما تقدم له من المرات ، منتهزا فرصة الامكان التي ان فاتت فاته جميع الخيرات .

ثم يلحظ في نور تلك اليقظة وفور نعمة ربه عليه من حين استقر في الرحم إلى وقته وهو يتقلب فيها ظاهرا وباطنا ليلا ونهارا ويقظة ومناما سرا وعلانية فلو اجتهد في احصاء أنواعها لما قدر . ويكفي أن أدناها نعمة النفس والله عليه في كل يوم أربعة وعشرون ألف نعمة فما ظنك بنورها .

ثم يرى في ضوء ذلك النور أنه آيس من حصرها وإحصائها عاجز عن أداء حقها وان المنعم بها أن طاله بحقوقها استوعب جميع أعماله حق نعمة واحدة منها فيتبين حينئذ أنه لا مطمح له في النجاة إلا بعفو الله ورحمته وفضله .

ثم يرى في ضوء تلك اليقظة أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلى جنب عظيمة الرب تعالى وما يستحقه بحلال وجهه وعظام سلطانه هذا لو كانت أعماله منه فكيف ومن بجزء فضل الله ومنتته وإحسانه حيث يسرها له وأعانه عليها رهيا لها وشاءها منه وكونها ، ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها ، فحينئذ لا يرى أعماله منه ، وان الله سبحانه لن يقبل عملا يراه صاحبه من نفسه حتى يرى عين توفيق الله له وفضله عليه ومنتته وأنه من الله لا من نفسه وأنه ليس له من نفسه إلا الشر وأسأبه ، وما به من نعمة فمن الله وحده صدقة تصدق بها عليه وفضلا منه ساقه إليه من غير أن يستحقه بسبب ويستأهله بوسيلة ، فيرى ربه ووليه ومعبوده أهلا لكل خير ويرى نفسه أهلا لكل شر ، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة والظاهرة والباطنة وهو الذي يرفعها ويجعلها في ديوان أصحاب اليمين .

ثم يبرق له في نور اليقظة بارقة أخرى يرى في ضوئها عيوب نفسه وآفات عماله وما تقدم له من الجنايات والاساءات وهتك الحرمات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه رأى ان حق المنعم عليه في نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه فيطمئن قلبه وانكسرت نفسه وخشعت جوارحه وسار إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته وعيوب نفسه وآفات عمله قائلا أبوء لك بنعمتك هلى وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فلا يرى لنفسه حسنة ولا يراها أهلا لخير فيوجب له أمرين عظيمين .

(أحدهما) استكثار ما من الله عليه .

(والثاني) استقلال ما من من الطاعة كائنة ما كانت . ثم تبرق له بارقة أخرى يرى في ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه وأنه رأس مال سعادته فيبخل به أن يضيعه فيما يقربه إلى ربه فإن في إضاعته الخسران والحسرة والندامة وفي حفظه وعمارتها الربح والسعادة فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده .

فصل

ثم يلحظ في ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته من التوبة والمحاسبة والمرابطة والغيرة لربه أن يؤثر عليه غيره وعلى حظه من رضاه وقربه وكرامته ببيعته بضمن بخس في دار سريعة الزوال وعلى نفسه أن يملك رقماً لمعشوق أو فسكر في منتهى حسنه ورأى آخره بعين بصيرة لأنف لها من محبته .

فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها وهي أول منازل النفس المطمئنة التي نشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة .

فصل

وأما النفس اللوامة وهي التي أقسم بها سبحانه في قوله : (ولا أقسم بالنفس اللوامة) فاختلاف فيها فقالت طائفة هي التي لا تثبت على حال واحدة . أخذوا اللفظة من التسليم وهو التردد فهي كثيرة القلب والتلون وهي من أعظم آيات الله فانها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون في الساعة الواحدة فضلاً عن اليوم والشهر والعام والعمر ألوانا متلونة فتذكر وتغفل وتقبل وتعرض وتلطف وتكشف وتيب وتجفو وتحب وتبغض وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتطع وتتي وتفجر . إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها فهي تلون كل وقت ألواناً كثيرة فهذا قول .

(وقال) طائفة اللفظة مأخوذة من اللوم ثم اختلفوا فقالت فرقة هي نفس المؤمن وهذا من صفاتها المجردة ، قال الحسن البصرى أن المؤمن لا تراها إلا يلوم نفسه دائماً يقول ما أردت بهذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان غير هذا أولى أو نحو هذا من الكلام .

(وقال) غيره هي نفس المؤمن توقعه في الذنب ثم تلومه عليه فهذا اللوم من الإيمان بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه على ذنب بل يلومها أو تلومه على فوائده .

(وقالت) طائفة بل هذا اللوم للتوعين فإن كل أحد يلوم نفسه برأ كان أو فاجراً فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها وهوأها .

(وقالت) فرقة أخرى هذا اللوم يوم القيامة فان كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئاً على إسمائه وإن كان محسناً على تقصيره .

وهذه الأقوال كلها حق ، ولاتناني بينها ، فان النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لوامة ، ولكن اللوامة نوعان :

لوامة ملومة ، وهي النفس الجاهلة الظالمة التي يلومها الله وملائكته .

ولوامة غير ملومة ، وهي التي لاتزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة ؛ وأشرف النفوس من لامت نفسها في طاعة الله واحتملت ملام اللائمين في مرضاته فلا تأخذها فيه لومة لائم فهذه قد تخلصت من لوم الله ، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل في الله ملام اللوام ، فهي التي يلومها الله عز وجل .

فصل

وأما النفس الأمارة مهى المذمومة فانها التي تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها ، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له كما قال تعالى حاكياً عن امرأة العزيز (وما أبرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء إلا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم) وقال تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً) وقال تعالى لا كرم خلقه عليه وأحبهم إليه (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيثاقيلاً) وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم خطبة الحاجة ، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضله فلا هادي له ، فالشر كامن في النفس وهو يوجب سيئات الأعمال فان خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الاعمال ، وان وفقه وأعانته نجاه من ذلك كله فذسأل الله العظيم أن يعيدنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين الأمارة واللوامة كما أكرمه بالمطمئنة فهي نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة مطمئنة وهي غاية كمالها وصلاحها وأيد المطمئنة بخنود هديدة فجعل الملك قرينها وصاحبها الذي يليها ويسددها ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه ويربها حسن صورته ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه ويربها قبح صورته ، وأمددها بما عليها من القرآن والاذكار وأعمال البر وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق تنائبها وتصل إليها من كل ناحية وكلما تلقتهما بالقبول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته في ذلك كله ازداد مددها فتقوى على محاربة الامارة ، فن جنيدها وهو سلطان عساكرها وملوكها الإيمان واليقين

فالجيش الإسلامية كلها تحت لوائه ناظرة إليه إن ثبت ثبتت وإن انهزم ولت على أديارها ، ثم أمراء هذا الجيش ومقدمو عساكره شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح على اختلاف أنواعها كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصيحة الخلق والإحسان إليهم بأنواع الإحسان ، وشعبه الباطنة المتعلقة بالقلب كالإخلاص والتوكل والإنابة والتوبة والمراقبة والصبر والحلم والتواضع والمسكنة وامتلاء القلب من محبة الله ورسوله وتعظيم أوامر الله وحقوقه والغيرة لله وفي الله والشجاعة والعفة والصدق والشفقة والرحمة ، وملاك ذلك كله الإخلاص والصدق فلا يتعب الصادق المخلص فقد أقيم على الصراط المستقيم فيساربه وهو راقد ، ولا يتعب من حرم الصدق والإخلاص فقد قطعت عليه الطريق واستهوته الشياطين في الأرض حيران فإن شاء فليعمل وإن شاء فليترك فلا يزيد عمله من الله إلا بهداً ، وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من جند النفس المطمئنة .

وأما النفس الأمارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذي يليها فهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء ويزينه لها ويطيل في الأمل ويربها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها ويمدها بأنواع الأمداد الباطل من الأمانى الكاذبة والشهوات المهلكة ويستعين عليها بهواها وإرادتها فنه يدخل عليها نل مكروه فما استعان على النفوس بشيء هو أبلغ من هواها وإرادتها إليه وقد علم ذلك أخوانه من شياطين الإنس فلا يستعينون على الصور الممنوعة منهم بشيء أبلغ من هواهم وإرادتهم^(١) فاذا أعيتهم صورة طلبوا بجهدهم ما تحببه وتهواه ثم طلبوا بجهدهم تحصيله فاصطادوا تلك الصورة فاذا فتحت لهم النفس باب الهوى دخلوا منه فجلسوا خلال الديار فعاثوا وأفسدوا وفتكروا وسبوا وفعلوا ما يفعلها العدو ببلاد عدوه إذا تحكم فيها فهدموا معالم الإيمان والقرآن والذكر والصلاة وخربوا المساجد وعمروا البيع والكنائس والحانات والواخير وقصدوا إلى الملك فأسرود وسلبوه ملكه ونقلوه من عبادة الرحمن إلى عبادة البغايا والأوثان ومن عن الطاعة إلى ذل المعصية ، ومن النوع الرحمان إلى السماع الشيطاني ومن الاستعداد للقاء رب العالمين إلى الاستعداد لقاء إخوان الشياطين فبينما هو براعى حقوق الله وما أمره به إذ صار يرعى الخنازير ، وبدا هو منتصباً لخدمة العزيز الرحيم إذ صار منتصباً لخدمة كل شيطان رجيم .

والقعود أن الملك قرين النفس المطمئنة ، والشيطان قرين الأمارة ، وقد روى أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه

(١) كذا ، والظاهر من هواها وإرادتها ، أى الصور . ندير .

وآله وسلم أن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة . فأما لمة الشيطان فايداه بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فايداه بالخير وتصديق بالحق . فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله ، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم الفحشاء) وقد رواه عمرو بن عطاء بن السائب وزاد فيه عمرو قال سمعنا في هذا الحديث أنه كان يقال إذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئاً فليحمد الله وليسأله من فضله وإذا أحس من لمة الشيطان شيئاً فليستغفر الله وليتعوذ من الشيطان .

فصل

فالنفس المطمئنة والملك وجنده من الإيمان يقتضيان من النفس المطمئنة التوحيد والإحسان والبر والتقوى والصبر والتوكل والتوبة والإنابة والإقبال على الله وقصر الأمل والاستعداد للذات وما بعده ، والشيطان وجنده من الكفر يقتضيان من النفس الأمارة ضد ذلك وقد ساط الله سبحانه الشيطان على كل ما ليس له ولم يرد به وجهه ولا هو طاعة له وجعل ذلك لإقطاعه فهو يستتبع النفس الأمارة على هذا العمل والإقطاع ويتقاضى أن تأخذ الأعمال من النفس المطمئنة فتجعلها قوة لها فهي أحرص شيء على تخلص الأعمال كلها وأن تصير من حظوظها ، فأصعب شيء على النفس المطمئنة تخلص الأعمال من الشيطان ومن الأمارة لله فلو وصل منها عمل واحد كما ينبغي لنجابه العبد ولكن ابت الأمارة والشيطان أن يدعا لها عملاً واحداً يصل إلى الله كما قال بعض العارفين بالله وبنفسه والله لو أعلم أن لي عملاً واحداً وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يقدم على أهله ، وقال عبد الله بن عمر لو أعلم أن الله قبل مني سجدة واحدة لم يكن غائب أحب إلى من الموت (إنما يتقبل الله من المتقين) .

فصل

وقد انتصبت الأمارة في مقابلة المطمئنة فكما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها فاذا جاءت بالإيمان والتوحيد جاءت هذه بما يقدح في الإيمان من الشك والنفاق وما يقدح في التوحيد من الشرك وعجة غير الله وخوفه ورجائه ولا ترضى حتى تقدم محبة غيره وخوفه ورجائه على محبته سبحانه وخوفه ورجائه فيكون ماله عندها هو المؤخر وما للخلق هو المقدم ، وهذا حال أكثر هذا الخلق ، وإذا جاءت تلك بتجريد المتابعة للرسول جاءت هذه بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم على الوحي وأنت من الشبه المضلة بما يمنعا من كمال المتابعة وتحكيم السنة وعدم الالتفات إلى آراء الرجال .

فتقوم الحرب بين هاتين النفسين والمنصور من نصره الله ، وإذا جاءت تلك بالاخلاص والصدق والتوكل والانابة والمراقبة جاءت هذه باضدادها وأخرجتها في عدة قوالب وتقسيم بالله ما مرادها الا الاحسان والتوفيق والله يعلم أنها كاذبة وما مرادها الا مجرد حظها واتباع هواها والتفلت من سجن المتابعة والتحكيم المحض للسنة إلى قضاء إرادتها وشهوتها وحظوظها ولعمرو الله ما تخلصت إلا من قضاء المتابعة والتسليم إلى سجن الهوى والإرادة وضيقه وظلمته ووحشته فهي مسجونة في هذا العالم وفي البرزخ في أضيق منه ويوم الميعاد الثاني في أضيق منهما .

ومن أوجب أمرها أنها تسحر العقل والقلب فتأتى إلى أشرف الاشياء وأفضلها وأجلها فتخرجه في صورة مذمومة وأكثر الخلق صبيان العقول أطفال الاحلام لم يصلوا إلى حد الفطام الاول عن العوائد والمألوفات فضلا عن البلوغ الذي يميز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره وشر الشرين فيجتذبه فترية صورة تجريد التوحيد التي هي أبهى من صورة الشمس والقمر في صورة التنقيص المذموم وهضم العظام منازلهم وحطهم منها إلى مرتبة العبودية المحضة والمسكنة والذل والفقر المحض الذي لا ملكة لهم معه ولا إرادة ولا شفاعة إلا من بعد إذن الله فترية النفس السحارة هذا القدر غاية تنقيصهم وهضمهم ونزول أقدارهم وعدم تمييزهم عن المساكين الفقراء فتتفر نفوسهم من تجريد التوحيد أشد النفار ويقولون (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) وترية تجريد المتابعة للرسول وما جاء به وتقديمه على آراء الرجال في صورة تنقيص العلماء والرغبة عن أقوالهم وما فهموه عن الله ورسوله وان هذا إساءة أدب عليهم وتقديم بين أيديهم وهو مفض إلى إساءة الظن بهم وإهم قد فاتهم الصواب وكيف لنا قوة أن نرد عليهم ونفوز ونحظى بالصواب دونهم ، فتتفر من ذلك أشد النفار وتجعل كلامهم هو المحكم الواجب الاتباع وكلام الرسول هو المتشابه الذي يعرض على أقوالهم فما وافقها قبلناه وما خالفها رددناه أو أولناه أو فوضناه وتقسيم النفس السحارة بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم .

فصل

وترية صورة الاخلاص في صورة ينفر منها وهي الخروج عن حكم العقل المعبى والمداراة والمداهنة التي بها اندراج حال صاحبها ومشيه بين الناس فتي أخلص أعماله ولم يعمل لاحد شيئاً تجنبوه وتجنبوه وأبغضوه وعاداهم وعادوه وسار على جادة فينفر من ذلك أشد النفار وغايته أن يخلص في القدر اليسير من أعماله التي لا تتعلق بهم وسائر أعماله لغير الله .

فصل

وتربه صورة للصدق مع الله وجهاد من خرج عن دينه وأمره في قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذام وحرهم وأنه يعرض نفسه من البلاء لما لا يطيق وأنه يصير غرضاً لسهام الطاعين ، وأمثال ذلك من الشبه التي تقيمها النفس السحارة والخيالات التي تخيلها ، وتربه حقيقة الجهاد في صورة تقتل فيها النفس وتنكح المرأة ويصير الأولاد يتامى ويقدم المال ، وتربه حقيقة الزكاة والصدقة في صورة مفارقة المال ونقصه وخلو اليد منه واحتياجه إلى الناس ومساواته للفقير وعوده بمنزلة وتربه حقيقة إثبات صفات الكمال لله في صورة التشبيه والتثيل فينفر من التصديق بها وينفر غيره ، وتربه حقيقة التعطيل والاحاد فيها في صورة التنزيه والتعظيم .

وأعجب من ذلك أنها تضاهي ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها ، وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر ، ولا يخلص من هذا إلا أرباب البصائر ، فإن الأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر على الأركان من النفسين الأمانة والمطمئنة فيتباين الفعلان في البطلان^(۱) ويشتهبان في الظاهر ، ولذلك أمثلة كثيرة منها المداراة والمداهنة فالأول من المطمئنة والثاني من الأمانة ، وخشوع الإيمان وخشوع النفاق ، وشرف النفس والتهب والحمية والجفاء . والتواضع والمهانة ، والقوة في أمر الله والعلو في الأرض والحمية لله والغضب له ، والحمية للنفس والغضب لها ، والجود والسرف ، والمهابة والكبر ، والصيانة والنكبر ، والشجاعة والجرأة ، والحزم والجبن ، والاقتصاد والشح ، والاحترار وسوء الظن ، والفراصة والظن والنصيحة والغيبة ، والهدية والرشوة ، والصبر والقسوة ، والعفو والذل ، وسلامة القلب والبله والغفلة ، والثقة ، والغرة والرجاء والتمنى ، والتحدث بنعم الله والفخر بها ، وفرح القلب وفرح النفس . ورقة القلب والجزع ، والموجدة والحقد ، والمنافسة والحسد ، وحب الرياسة وحب الامامة والدعوة إلى الله . والحب لله والحب مع الله . والتوكل والمعجز والاحتياط الوسوسة . وإلهام الملك ، وإلهام الشيطان ، والاناة والتسوية ، والاقتصاد والتقصير . والاجتهاد والفلو ، والنصيحة والتأنيب ، والمبادرة والعجلة ، والاخبار بالحال عند الحاجة والشكوى .

فالشيء الواحد تكون صورته واحدة وهو منقسم إلى محمود ومذموم كالفرح والحزن . والاسف والغضب . والغيرة والخيلاء . والطمع والتجمل . والخشوع والحسد والغبطة والجرأة

(۱) كذا وأعله في الباطن .

والتحسر والحرص، والتنافس وإظهار النعمة، والحلف والمسكنة، والصمت والزهد، والورع والتخلي، والعزلة والأنفة، والحمية والغيبة، وفي الحديث أن من الغيرة ما يحبها الله ومنها ما يكرهه فالغيرة التي يحبها الله الغيرة في ريبة، والتي يكرهها الغيرة في غير ريبة، وأن من الخيلاء ما يحبه الله ومنها ما يكرهه، فالتى يحب الخيلاء في الحرب. وفي الصحيح أيضا لا حسد الا في اثنتين رجل آتاه الله مالا وسلطه على ملكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويهملها. وفي الصحيح أيضا أن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف. وفيه أيضا من أعطى حظ من الرفق فقد أعطى حظ من الخير فالرفق شيء والتواني والكسل شيء فان التواني يتناقل عن مصاحته بعد امكانها فيتقاعد عنها والرفيق يتلطف في تحصيلها بحسب الامكان مع المطاوعة. وكذلك المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المدارى يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق، وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته فجاءه الطبيب المدارى الرفيق فتعرف حاله ثم أخذ في تليينها حتى اذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده ويقطع مادته ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما يذشف رطوبتها ثم يشد عليها الرباط ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت، والمداهن قال لصاحبها لا بأس عليك منها وهذه لاشيء فاسترها عن العيوب بخرقه ثم اله عنها فلا تزال مدتها تقوى وتستحکم حتى عظم فسادها، وهذا مثل أيضا مطابق كل المطابقة لحال النفس الامارة مع المطمئنة فتأمله، فاذا كانت هذه حال قرحة بقدر الحصاة فكيف يسقم هاج من نفس أمارة بالسوء، هي معدن الشهوات وماوى كل فسق وقد قارنها شيطان في غاية المكر والخداع بعد ما ويمنها ويسحرها بجميع أنواع السحر حتى يخيل اليها النافع ضارا والضار نافعا والحسن قبيحا والقبيح جميلا وهذا لعمر و الله من أعظم أنواع السحر ولهذا يقول سبحانه (فانى تسحرين) والذي نسبوا اليه الرسل من كونهم مسحورين هو الذى أصابهم بعينه وهم أهله لا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما أنهم نسبوه الى الضلال والفساد في الارض والجنون والسفه وما استعادت الامم بالانبياء والرسل وأمراء الأمم بالاستعاذة من شر النفس الامارة وصاحبها وقرينها الشيطان الا لانهما أصل كل شر وقاعدته ومنبعه وهما متساعدان عليه متعاونان :

رضيع لبان ثدى أم تقاسمها بأسم داج عرض لا تفرق

(۱) كذا والظاهر . وما أمرت .

قال الله تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستمع له بالله من الشيطان الرجيم) وقال (وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستمع بالله إنه سميع عليم) وقال (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد) فهذا استعاذة من شر النفس وقال (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس) فهذا استعاذة من قرينها وصاحبها وبئس القرين والصاحب ، فأمر الله سبحانه نبيه وأتباعه بالاستعاذة بربوبيته التامة الكاملة من هذين الخلقين العظيم شأنهما في الشر والفساد ، والقلب بين هذين العدوين لا يزال شرهما يطرقة ويفتأبه وأول ما يدب فيه للسقم من النفس الأماره من الشهوة وما يتبعها من الحب والحرص والطلب والغضب ويتبعه من الكبر والحسد والظلم والتسلط فيعلم الطبيب الغاش الخائن بمرضه فيعوده ويصف له أنواع السموم والموذيات ويخيل إليه بسحره أن شفاهه فيها ويتفق ضعف القلب بالمرض وقوة النفس الأماره والشيطان وتتابع إمدادهما وأنه نقد حاضر ولذة عاجلة والداعي إليه يدعو من كل ناحية والهوى ينفذ والشهوة تهون والتأسي بالأكثر والتشبه بهم والرضا بأن يصيبه ما أصابهم فكيف يستجيب مع هذه القواطع وأضعافها لداعي الإيمان ومناهى الجنة إلا من أمدته الله بامداد التوفيق وأيده برحمته وتولى حفظه وحمايته وفتح بصيرة قلبه فرأى سرعة انقطاع الدنيا وزوالها وتقلبها بأهلها وفعلها بهم وأنها في الحياة الدائمة كغمس أصبع في البحر بالنسبة إليه .

فصل

والفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابه والحياء فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجع والحجل والحب والحياء وشهود نعم الله وجناباته هو فيخشع القلب لا محالة فيتبعه خشوع الجوارح . وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً والقلب غير خاشع ، وكان بعض الصحابة يقول أعوذ بالله من خشوع النفاق قيل له وما خشوع النفاق ؟ قال أن يرى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع . فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذي حشى به وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه فصار محبباً له والمحبت المطمئن فان المحبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء ، فكذلك القلب المحبت قد خشع واطمأن كالبقعة المظلمة من الأرض التي يجرى إليها الماء فيستقر فيها وعلامته

أن يسجد بين يدي ربه إجلالا له وذلا وانكساراً بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه .
وأما القلب المتكبر فإنه قد اهتز بتكبره وربما فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليها
إلما فهذا خشوع الإيمان .

وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراعاة ونفسه
في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات فهو يتخشع في الظاهر وحية الوادي وأما الغاية
رابض بين جنبه ينتظر الفريسة .

فصل

وأما شرف النفس فهو صيانتها عن الدنيا والرذائل والمطامع التي تقطع أعناق الرجال
فيربأ بنفسه عن أن يلقها في ذلك ، بخلاف التيه فإنه خلق متولد بين أمرين إعجاب به بنفسه
وازدراءه بغيره فيتولد من بين هذين التيه والأول يتولد من بين خلقين كريمين إعزاز النفس
ولا كرامتها وتعظيم مالكها وسيدها أن يكون عبده دنيا وضيعاً خسيساً فيتولد من بين هذين
الخلقين شرف النفس وصيانتها ، وأصل هذا كله استعداد النفس وتهيئتها وإمدادها ومولاها
لها فإذا فقد الاستعداد والإمداد فقد الخير كله .

فصل

وكذلك الفرق بين الحمية والجفاء فالحمية فطام النفس عن رضاع اللوم من ثدى هو مصاب
الخبائث والرذائل والدنيا ولو غزر لبنه وتمالك الناس عليه فإن لهم فطاماً تنقطع منه الأكباد
حشرات فلا بد من الفطام . فإن شئت عجل وأنت محمود مشكور وإن شئت أخر وأنت غير
مأجور . بخلاف الجفاء فإنه غلاظة في النفس وقساوة في القلب وكثافة في الطبع يتولد عنها خلق
يسمى الجفاء .

فصل

والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه
وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله ، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وغيوب
عملها وآفاتنا ، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضع وهو انكسار القلب وخفض
جناح الذل والرحمة بعباده فلا يرى له على أحد فضلاً ولا يرى له عند أحد حقاً بل يرى الفضل
للناس عليه والحقوق لهم قبله ، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه .

(وأما المهانة) فمن الدنائة والحسنة وبذل النفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها كتواضع السفلى في نيل شهواتهم وتواضع المفعول به للفاعل وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه فهذا كله ضعة لا تواضع والله سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم وأوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد وللتواضع المحمود على نوعين .

(النوع الأول) تواضع العبد عند أمر الله أمثالا وعند نهيه اجتناباً فإن النفس لطلب الراحة تملك في أمره فيبدو منها نوع إباء وشرادهر بأمن العبودية وتثبت عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه فاذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية .

(والنوع الثاني) تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه فكما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرد به بذلك وغضب الشديد على من نازعه ذلك فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه واطمأن لهيبته وأخبت لسلطانه ، فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين والله المستعان .

فصل

وكذلك القوة في أمر الله هي من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها الله والعلو في الأرض هو من تعظيم نفسه وطلب تفرد بها بالرياسة ونفاذ الكلمة سواء عز أمر الله أو هان بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته في طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك وأهدره وأماته في تحصيل علوه .

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس فالأولى بثبرها تعظيم الأمر والأمر والثانية بثبرها تعظيم للنفس والغضب لفوات حظوظها فالحمية لله أن يحمي قلبه له من تعظيم حقوقه وهي حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله فامتلاً قلبه بذلك النور فاذا غضب قائماً يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذي ألقى على قلبه وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه وبدا بين هينيه عرق بدره الغضب ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله، وروى زيد بن أسلم عن أبيه أن موسى بن عمران صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً وهذا بخلاف الحمية للنفس فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظوظها أو طلبه فان الفتنة في النفس والفتنة هي الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب قائماً بها حرارتان تظهران على الأركان حرارة من قبل النفس المطمئنة أثارها تعظيم حق الله وحرارة من قبل النفس الأمامة أثارها استشعار فوت الحظ .

فصل

والفرق بين الجرد والسرف أن الجواد حكيم يضع العطاء مواضعه والمسرف مبذر وقد يصادف عطاؤه موضعه وكثيراً لا يصادفه وإيضاح ذلك أن الله سبحانه بحكمته جعل في المال حقوقاً وهي نوعان حقوق موظفة وحقوق ثمانية (فالحقوق الموظفة) كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته .

والثانية كحقوق الضيف ومكافأة المهدي وما دق به عرضه ونحو ذلك فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال طيبة بذلك نفسه راضية مؤمنة للخلف في الدنيا والثواب في العقبى فهو يخرج ذلك بسماحة قلب وسخاوة نفس وانسراح صدر بخلاف المبذر فإنه يبسط يده في ماله بحكم هواه وشهوته جزافاً لا على تقدير ولا مراعاة مصلحة وإن اتفقت له فالأول بمنزلة من بذر حبة في الأرض تذب وتوخى ببذره مواضع المغل والإنبات فهذا لا يعد مبذراً ولا سفياً والثاني بمنزلة من بذر حبة في سباح وعزاز من الأرض وإن اتفق ببذره في معمل للنبات بذر بذرأ متراً كما بعضه على بعض ، فذلك المسكان البذر وبه ضائع معطل وهذا المكان بذر بذرأ متراً كما بعضه على بعض ، فلذلك يحتاج أن يقطع بعض زرعه ليصلح الباقي وإلا تضعف الأرض عن تربيته . والله سبحانه هو الجواد على الإطلاق بل كل جود في العالم العلوى والسفلى بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة في بحار الدنيا وهي من جوده ومع هذا فإنما ينزل بقدر ما يشاء وجوده لا يناقض حكمته ويضع عطاءه مواضعه وإن خفي على أكثر الناس أن تلك مواضعه فإله يعلم حيث يضع فضله وأى المحال أولى به .

فصل

والفرق بين المهابة والكبر (أن المهابة) أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبيته وإجلاله فإذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور ونزلت عليه السكينة وألبس رداء الهيبة فاكتمت روجه الحلاوة والمهابة فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة فحنت إليه الأفئدة وقربت به العيون وأنست به القلوب فكلامه نور ومدخله نور ومخرجه نور وعمله نور وإن سكت غلام الوقار وإن تكلم أخذ بالقلوب والاسماع .

(وأما الكبر) فأثر من آثار العجب والبغي من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم ترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت فظفره إلى الناس شزر ومشيه بينهم تبختر ومعاملته لهم معاملة الاستتار لا الإيثار ولا الإنصاف ذاهب بنفسه تهاً لا يبدأ من لقيه بالسلام وإن رد عليه

رأى أنه قد بالغ في الانعام عليه لا ينطلق لهم وجهه ولا يسعهم خلقه ولا يرى لأحد عليه حقاً ويرى حقوقه على الناس ولا يرى فضلهم عليه ويرى فضله عليهم لا يزداد من الله إلا بعداً ومن الناس إلا صغاراً أو بغضاً .

فصل

والفرق بين الصيانة والتكبر أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوباً جديداً نقي البياض ذا ثمن فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار إبقاء على بياضه ونقاؤه فتراه صاحب تهزز وهروب من المواضع التي يخشى منها عليه التلوث فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه وإن أصابه شيء من ذلك على غرة يادر إلى قلعه وإزالته ومحو أثره وهكذا الصائن لقلبه ودينه تراه يجتنب طبع الذنوب وآثارها فان لها في القلب طبعاً وآثاراً أعظم من الطبوع الفاحشة في الثوب النقي للبياض ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع ، فتراه يهرب من مظان التلوث ويحترس من الخلق ويتباعد من تخالطهم مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذي يخاط الدباغين والدباغين والطباخين ونحوهم .

بخلاف صاحب العلو فإنه وإن شابه هذا في تحرزه وتجنبه فهو يقصد أن يعلو رقابهم ويجعلهم تحت قدمه ، فهذا لون وذاك لون .

فصل

والفرق بين الشجاعة والجرأة (أن الشجاعة) من القلب وهي ثباته واستقراره عند المخاوف وهو خلق يتولد من الصبر وحسن الظن فإنه متى ظن الظفر وساعده الصبر ثبت ، كما أن الجبن يتولد من سوء الظن وعدم الصبر فلا يظن الظفر ولا يساعده الصبر وأصل الجبن من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء وهو ينشأ من الرثة فإذا ساء الظن ووسوست النفس بالسوء انتفخت الرثة فزاحت القلب في مكانه وضيقت عليه حتى أزعجته عن مستقره فأصابه الزلازل والاضطراب لإزعاج الرثة له وتضييقها عليه ولهذا جاء في حديث عمرو بن العاص الذي رواه أحمد وغيره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شر ما في المرء جبن خالع وشع هالع فسمى الجبن خالماً لأنه يخلع القلب عن مكانه لانتفاخ السحر وهو الرثة كما قال أبو جهل لعتبة بن ربيعة يوم بدر انتفخ سحره ، فإذا زال القلب عن مكانه ضاع تدبير العقل فظهر الفساد على الجوارح فوضعت الأمور على غير مواضعها فالشجاعة حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته فإذا رآته الأعضاء كذلك أعانته فانها خدم له وجنود كما أنه إذا ولي وات سائر جنوده .

وأما الجراءة فهي إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر في العاقبة بل تقدم النفس في غير موضع الإقدام معرضة عن ملاحظة المعارض فيما عليها وإما لها .

فصل

وأما الفرق بين الحزم والجبن فالحازم هو الذي قد جمع عليه همه وإرادته وتقله ووزن الأمور بعضها ببعض فأعد لكل منها قرنه ، ولفظة الحزم تدل على القوة والإجماع ومنه حزمة الخطب فخازم الرأي هو الذي اجتمعت له شئون رأيه وعرف منها خيرا والخيرين وشر الشرين فأحجم في موضع الاحجام رأيا وعقلا لاجبنا ولاضعفاً :
العاجز الرأي مضياح لفرسته حتى إذا فات أمر عاتب القدر (۱)

فصل

وأما الفرق بين الاقتصاد والشح أن الاقتصاد خلق محمود يتولد من خلقين عدل وحكمة فبالعدل يعتدل في المنع والبذل وبالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذي يليق به فيتولد من بينهما الاقتصاد وهو وسط بين طرفين مذمومين كما قال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) وقال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) وقال تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) .

وأما الشح فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس وبمده وعد الشيطان حتى يصير هلعاً والهلع شدة الحرص على الشيء والشره به فتولد عنه المنع لبذله والجزع لفقدته كما قال تعالى (إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) .

فصل

والفرق بين الاحتراز وسوء الظن أن المحترز بمنزلة رجل قد خرج بماله ومركوبه مسافراً فهو يحترز بمجده من كل قاطع للطريق وكل مكان يتوقع منه الشر وكذلك يكون مع التأهب والاستعداد وأخذ الأسباب التي بها ينبو من المكروه ، فالمحترز كالمساح المتدرع الذي قد تأهب للقاء عدوه وأعد له عدته فبمه في تهيئة أسباب النجاة ومحاربة عدوه قد أشغله عن سوء الظن به وكلما ساء به الظن أخذ في أنواع العدة والتأهب .

(۱) لم يذكر تفسير الجبن كأنه اكتفى بما تقدم في الفصل الذي قبل هذا .

وأما سوء الظن فهو امتلاء قلبه بالظنون السيئة بالناس حتى يطفح على لسانه وجوارحه ، فهم معه أبدا في الهمز واللمز والظعن والعيب والبغض يبغضهم ويبغضونه ، ويلعنهم ويلعنونه ويحذروهم ويحذرون منه ، فالأول يخالطهم ويحترز منهم ، والثاني يتجنبهم ويلحقه أذاهم ، الأول داخل فيهم بالنصيحة والاحسان مع الاحتراز والثاني خارج منهم مع الغش والدغل والبغض .

فصل

والفرق بين الفراسة والظن أن الظن بخطيء ويصيب وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته ولهذا أمر تعالى باجتنب كثير منه وأخبر أن بعضه اثم .

وأما الفراسة فأثنى على أهلها ومدحهم في قوله تعالى (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أي للمتفرسين وقال تعالى (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم) وقال تعالى (ولو نشاء لآرينا بهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول) فالفراسة الصادقة لقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله فهو ينظر بنور الله الذي جعله في قلبه وفي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله . وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات سوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه وأضاء له النور بقدر قربه فرأى في ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال ما تقرب إلى عبدى بمثل ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيد محبته له فإذا أحبه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله فسمع به وأبصر به وبطش به ومشى به فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هي عليه فلا تمكاد تخطيء له فراسة فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه فإذا سمع بالله سمعه على ما هو عليه ، وليس هذا من علم الغيب بل علام الغيوب قذف الحق في قلب قريب مستبشر بنوره غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التي تمنعه من حصول صور الحقائق فيه وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب إلى العين فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرى أصحابه في الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه ، ورأى بيت المقدس عيانا وهو

بمكة ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق ، ورأى امرأه بموتة وقد أصيدوا وهو بالمدينة ، ورأى النجاشي بالحبشة لما مات وهو بالمدينة فخرج إلى المصل فصلى عليه . ورأى عمر سارية بناوند من أرض فارس ^(۱) هو وعساكر المسلمين وهم يقاتلون عدوهم فناداه ياسارية الجبل ، ودخل عليه نفر من مدحج فيهم الأشتر النخعي فصعد فيه البصر وصوبه وقال أيهم هذا ؟ قالوا مالك بن الحارث فقال ماله قاتله الله إني لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً .

ودخل عمرو بن عبيد على الحسن فقال هذا سيد الفتيان إن لم يحدث . وقيل أن الشافعي ومحمد بن الحسن جلسا في المسجد الحرام فدخل رجل فقال محمد أتفرس أنه نجار . فقال الشافعي أتفرس أنه حداد ، فسألاه فقال كنت حداداً وأنا اليوم أنجر ودخل أبو الحسن البوشنجي والحسن الحداد على أبي القاسم المناوي يعودانه فاشتريا في طريقهما بنصف درهم تفاحاً نسيته فلما دخلا عليه قال ما هذه الظلمة ؟ فخرجا وقالوا ما علمنا لعل هذا من قبل من التفاح فأعطيا الثمن ثم عادا إليه ووقع بصره عليهما فقال يمكن الإنسان أن يخرج من الظلمة بهذه السرعة ؟ أخبراني عن شأنكما فأخبراه بالقصة فقال نعم كان كل واحد منكما يعتمد على صاحبه في إعطاء الثمن والرجل مستح منكما في التقاضي . وكان بين أبي زكريا البجشي وبين امرأة سيب قبل توبته فكان يوماً واقفاً على رأس لبي عثمان الخيري فتفكر في شأنها ووقع أبو عثمان إليه رأسه وقال ألا تستحي . وكان شاه الكرماني جيد الفراسة لا تخطئه ورأسه وكان يقول من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بديار المراقبة وظاهره باتباع السنة وتعود أكل الحلال لم تخطئه فراسته . وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر فذكر للجنيد فقال إيش هذا الذي ذكر لي عنك ؟ فقال له اعتقد شيئاً ، فقال له الجنيد اعتقدت فقال الشاب اعتقدت كذا وكذا فقال الجنيد لا . وقال فاعتقد ثانياً قال اعتقدت فقال الشاب اعتقدت كذا وكذا فقال الجنيد لا . قال فاعتقد ثالثاً قال اعتقدت قال الشاب هو كذا وكذا قال لا ، فقال الشاب هذا عجب وأنت صدوق وأنا أعرف قلبى . فقال الجنيد صدقت في الأولى والثانية والثالثة لكن أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك ؟ وقال أبو سعيد الخراز دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئاً فقلت في نفسي مثل هذا كل هلى الناس ، فنظر إلى وقال (اعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) قال فاستغفرت في سرى فنادانى وقال (وهو الذى يفتن القلوب عن عباده) وقال إبراهيم الخواص كنت فى الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه حسن

(۱) وكان عمر رضى الله عنه إذ ذاك بالمدينة المشرفة .

الحرمة فقلت لأصحابنا يقع على أنه يهودى افسكاهم كره ذلك فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم فقال إيش قال الشيخ في ؟ فاحتشموه فأخ عليهم فقالوا قال إنك يهودى فجاء ناكب على يدي فأسلم فقلت ما السبب ؟ فقال نجد في كتابنا أن الصديق لا تخطيء فراسته فقلت امتحن المسلمين فتأملتهم فقلت إن كان فيهم صديق ففي هذه الطائفة فلبست عليكم فلما اطلع هذا الشيخ على وتفردنى علمت أنه صديق . وهذا عثمان بن عفان دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة في الطريق فتأمل معاسنها فقال له عثمان يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه فقلت أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال لا ولكن تبصرة وبرهان وفراصة صادقة .

فهذا شأن الفراسة وهي نور يقذفه الله في القلب فيخطر له الشيء فيكون كما خطر له وينفذ إلى العين فيرى ما لا يراه غيرها .

فصل

والفرق بين النصيحة والغيبة أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فتنان أو غاش أو مفسد فتذكر ما فيه إذا استشارك في صحبتته ومعاملته والتعلق به كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة بنت قيس وقد استشارته في نكاح معاوية وأبي جهم فقال : أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه ، وقال بعض أصحابه لمن سافر معه إذا هبطت عن بلاد قومه فاحذره .

فاذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين ففي قربة إلى الله من جملة الحسنات ، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكك بلحمه والفض منه لتضع منزلته من قلوب الناس ففي الداء العضال ونار الحسنات التي تأكلها كما تأكل النار الحطب .

فصل

والفرق بين الهدية والرشوة وإن اشبهها في الصورة القصد فإن الراشي قصده بالرشوة التوصل إلى إبطال حق أو تحقيق باطل فهذا الراشي الملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن رشا لدفع الظلم عن نفسه اختص المرتشى وحده باللعنة .

وأما المهدي فقصده استجلاب المودة والمعرفة والإحسان فان قصد المكافأة فهو معاوض وإن قصد الربح فهو مستكثر .

فصل

والفرق بين الصبر والقسوة أن الصبر خلق كسبي يتخلق به العبد وهو حبس النفس عن الجزع والمطع والتشكى فيحبس النفس عن التسخط واللسان عن الشكوى والجوارح عما لا ينبغي فعله وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية .

وأما القسوة فيحبس في القلب يمنع من الانفعال وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله .

وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة :

(قلب قاس) غليظ بمنزلة اليد اليابسة . (وقلب مائع) رقيق جداً .

(فالأول) لا ينفعل بمنزلة الحجر . والثاني بمنزلة الماء وكلاهما ناقص وأصح القلوب (القلب الرقيق) الصافي الصلب فهو يرى الحق من الباطل بصفائه وبقبله^(۱) ويؤثره برقته ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته . وفي الأثر ه القلوب آنية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفهاها . وهذا القلب الزجاجي فإن الزجاجه جمعت الأوصاف الثلاثة ، وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسي قال تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) وقال تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) وقال تعالى (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم) فذكر العلبين المنحرفين عن الاعتدال هـ نأ بمرضه وهذا بقسوته وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين ورحمة لأصحاب القلب الثالث وهو القلب الصافي الذي ميز بين لقاء الشيطان والقاء الملك بصغائه وقبل الحق بإخباته ورقته وحارب النفوس المبطله بصلابته وقوته فقال تعالى عقيب ذلك (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله طمأدى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم)

فصل

والفرق بين العفو والذل أن العفو اسقاط حقهك جوداً وكرماً واحساناً مع قدرتك هلى الانتقام فتؤثر الترك رغبة فى الاحسان ومكارم الاخلاق بخلاف الذل فإن صاحبه يترك

(۱) أى الحق ، كما بأتى .

الاتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس ، فهذا مذموم غير محمود ولعل المنتقم بالحق أحسن حالاً منه قال تعالى (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) .

فدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيتهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغي عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليه نديهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح فقال (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين) فذكر المقامات الثلاثة العدل وأباحت ، والفضل وندب إليه ، والظلم وحرمه .

(فإن قيل) فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متافيان .

(قيل) لم بمدحهم على الاستيفاء والاتقام وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم فلما قدروا نديهم إلى العفو قال بعض السلف في هذه الآية كانوا يكرهون أن يستدلوا فإذا قدروا عفوا ، فمدحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو ذل وعجز ومهانة وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه به نفسه في قوله (وكان الله عفواً قديراً) (والله غفور رحيم) وفي أثر معروف : حملة العرش أربعة إثنان يقولان سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حملك بعد علك . وإثنان يقولان سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ، ولهذا قال المسيح صلوات الله وسلامه عليه (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) أى ان غفرت لهم غفرت عن عزة وهى كمال القدرة ، وحكمة وهى كمال العلم فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ما صدر من المسيء والعفو من المخلوق ظاهره ضم وذل وباطنه عز ومهانة وانتقام ظاهره عز وباطنه ذل فإزاد الله بعفو إلا عزاً لا انتقم أحد لنفسه إلا ذل ولولم يكن إلا بفوات عر العفو ولهذا ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه قط ، وتأمل قوله سبحانه (وهم ينتصرون) كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم لأن غيرهم هو الذى ينصرهم ، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً بل لا بد من المجاوزة شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة وحرم الزيادة وندب إلى العفو .

والمقصود أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة والذل من أخلاق الامارة ونكتة المسألة أن الانتقام شيء والانتصار شيء فالانتصار أن ينتصر لحق الله ومن أجسده ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواه فإنه حينئذ ينال حظاً من العز الذى قسم الله المؤمنين فاذا بغي عليه انتصر من الباغى من أجل عز الله الذى أعزه به غيره على ذلك العز

أن يستنضم ويقهر وحمية للعبد . وب إلى العزيز الحميد أن يستدل ، فهو يقول للباغي عليه أنا مملوك من لا يذل مملوكه ولا يجب أن يذله أحد ، وإذا كانت نفسه الأمانة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغي تشفيا فيه وإذلاله وأما النفس التي خرجت من ذل حظها ورق هواها إلى عز توحيدها وانابتها إلى ربها فإذا نالها البغي قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذي أعزها الله به ونالته منه وهو في الحقيقة حمية لربها ومولاها وقد ضرب لذلك مثلا بعبد من عبيد الغلة حراثين ضرب أحدهما صاحبه ففنا المضروب عن الضارب نصحا منه لسيدته وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيد فلم يحشم سيده خلاقه ^(١) عقوبته وافساده بالضرب فشكر العافي على عفوه ووقع منه بموقع . وبعد آخر قد أقامه بين يديه وجعله وألبسه ثيابا يقف بها بين يديه فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعدرة أو مزقها فلو عفا عن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأى سيده ولا محبته وكان الانتصار أحب إليه ووافق لمرضاته كأنه يقول إنما فعل هذا بك جرأة على واستخفافا بسلطاني فإذا أمكنه من عقوبته فاذله وقهره ولم يبق إلا أن يبطش به فذل وانكسر قلبه فإن سيده يحب منه أن لا يعاقبه لحظة وأن يأخذ منه حق السيد فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لأنفسه كما روى عن علي رضي الله عنه أنه مر برجل فاستغاث به وقال هذا مني حتى ولم يعطني إياه فقال أعطه حقه فلما جاوزهما لج الظالم واطم صاحب الحق فاستغاث بعلي فرجع وقال أتاك الغرث فقال له استقدمته فقال قد عفوت يا أمير المؤمنين فضربه على تسع درر وقال قد عفا عنك من لظمته وهذا حق السلطان فعاقبه على لما اجترأ على سلطان الله ولم يدعه ويشبه هذا قصة الرجل الذي جاء إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال احملني فوالله لانا أفرس منك ومن ابنك ^(٢) وعنده المغيرة بن شعبه فحسر عن ذراعه وصك بها أنف الرجل فقال الدم فجاء قومه إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا أقدنا من المغيرة ، فقال أنا أقيدكم من وزعة الله ؟ لا أقيدكم منه فرأى أبو بكر أن ذلك انتصار من المغيرة وحمية لله وللعز الذي أعزبه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليتمكن بذلك العزم من حسن خلافته وإقامة دينه فترك قوده لاجترائه على عز الله وسلطانه الذي أعز به رسوله ودينه وخليفته فهذا لون والضرب حمية للنفس الأمانة لون .

فصل

والفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل ان سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر

^(١) كذا .

بعد معرفته فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعلم به ، وهذا بخلاف البله والغفلة فانها جهل وقلة معرفة وهذا لا يحمد إذ هو نقص وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه . والسكال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر سلباً من إرادته قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لست بخب ولا يخدعني الخب وكان عمر أعقل من أن يخدع وأورع من أن يخدع وقال تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) . فهذا هو السليم من الآفات التي تعترى القلوب المريضة من مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا .

فصل

والفرق بين الثقة والغرة أن الثقة سكون يستند إلى أدلة وأمارات يسكن القلب إليها فكما قويت تلك الامارات قويت الثقة واستحكمت ولا سيما على كثرة التجارب وصدق الفراسة واللفظة كأنها والله أعلم من الوثائق وهو الرباط فالقلب قد ارتبط بمن وثق به توكلأ عليه وحسن ظن به فصار في وثاق محبته ومعاملته والاستناد إليه والاعتماد عليه فهو في وثاقه بقلبه وروحه وبدنه فإذا صار القلب إلى الله وانقطع إليه تقيده بحبه وصار في وثاق العبودية فلم يبق له مفرج في النوائب ولا ملجأ غيره ويصير عدته وشدته وذخيرته في نوائبه وملجأه في نوازله ومستعانه في حوائجه وضروراته .

وأما الغرة فهي حال المغتر الذي غرته نفسه وشيطانه وهواه وأمله الخائب الكاذب بربه حتى أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان ، والغرور ثقتك بمن لا يوثق به وسكونك إلى من لا يسكن إليه ورجاؤك النفع من المحل الذي لا يأتي بخير كحال المغتر بالسراب قال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عهده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) وقال تعالى في وصف المغترين (قل هل ننبئكم بالآخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور عدلوا أنهم لم يكونوا على شيء (وبداهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) وفي أثر معروف إذا رأيت الله سبحانه يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره فانما هو استدراج يستدرجك به . وشاهد هذا في القرآن في قوله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره فالشيطان وكل بالغرور ، وطبع النفس الامارة الاغترار فإذا اجتمع الرأي والبغى والرأى

المحتاج (١) والشيطان الغرور والنفس المغترية لم يقع هناك خلاف . فالشياطين غرروا المغترين بالله وأطمعهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويفضبه في عفوهم وتجاوزهم وحدثهم بالتوبة لتسكن قلوبهم ثم دافعهم بالتسوية حتى هجم الاجل فأخذوا على أسوأ أحوالهم وقال تعالى (وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغمكم بالله الغرور) وقال تعالى (يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) وأعظم الناس غروراً بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل (قال هذا لى) أى أنا أهله وجدير به ومستحق له ثم قال (وما أظن الساعة قائمة) فظن انه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله ثم زاد في غروره فقال (ولئن رجعت إلى ربي ان لى عنده للحسنى) يعنى الجنة والكرامة وهكذا تكون الغرة بالله فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه وقد ساعده اغتراره بدنيته ونفسه فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك .

فصل

والفرق بين الرجاء والتمنى أن (الرجاء) يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز (والتمنى) حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه قال تعالى (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) فطوى سبحانه بساط الرجاء لإعنا هؤلاء وقال المغترون إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه واتبعوا ما أسخطه وتجنبوا ما يرضيه أولئك يرجون رحمة ، وإيس هذا يبدع عن غرور النفس والشيطان لهم فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر فمثل بين عينيه ما وعده الله تعالى من كرامته وجنته امتد القلب ما تلا إلى ذلك شوقاً إليه وحرصاً عليه فهو شبيه بالماد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه . وعلامة الرجاء الصحيح أن الراجى يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها بترك ما يخاف أن يحول بينه وبين دخولها فمثل مثل رجل خطب امرأة كريمة في منصب وشرف إلى أهلها فلما آن وقت العقد واجتماع الأشراف والأكابر وإتيان الرجل إلى الحضور علم عشية ذلك اليوم ليتأهب للحضور فنراه المرأة وأكابر الناس فأخذ في التأهب والتزين والتجميل فأخذ من فضول شعره وتنظف وتطيب ولبس أحمل ثيابه وأتى إلى تلك الدار متقياً في طريقه كل وسخ ودنس وأثر يصيبه أشد تقوى حتى الغبار والدخان وماهر ودن ذلك فلما وصل إلى الباب رحب به ربهها ومكن له في صدر الدار على الفرش والوسائد ورمقته العيون وقصد بالكرامة من كل ناحية فلو أنه ذهب بعد أخذ

(١) لعله المخرج .

هذه الزينة فجلس في المزابل وتمرغ عليها وتمسك بها وتلطخ في بدنه وثيابه بما عليها من عذرة
وقدر ودخل ذلك في شعره وبشره وثيابه فجاء على ذلك الحال إلى تلك الدار وقصد دخولها
للوعد الذي سبق له لقام إليه البواب بالضرب والطرده والصياح عاياه والإبعاد له من بابها
وطريقها فرجع متحيراً خاسئاً . فالأول حال الراجي وهذا حال المتمنى ، وإن شئت مثلت
حال الرجلين بملك هو من أغبر الناس وأعظمهم أمانة وأحسنهم معاملة لا يضيع لديه حق
أحد وهو يعامل الناس من وراء ستر لا يراه أحد وبضائعه وأمواله وتجاراته وعبيده وإماؤه
ظاهر بارز في داره للمعاملين فدخل عليه رجلان فكان أحدهما يعاذه بالصدق والأمانة
والنصيحة لم يجرب عليه غشاً ولا خيانة ولا مكرأ فباعه بضائعه كلها واعتمد مع عماليكه
وجواريه ما يجب أن يعتمد معهم فكان إذا دخل إليه ببضاعة تخير له أحسن البضائع وأحبها
إليه وإن صنعها بيده بذل جهده في تحسينها وتعميقها وجعل ما خفي منها أحسن مما ظهر ويستلم
المؤنة من أمره أن يستلمها منه وامثل ما أمره به السفير بينه وبينه في مقدار ما يعمله ،
صفته وهيبته وشككه ورقته وسائر شئونه ، وكان الآخر إذا دخل دخل بأخس بضاعة
يحوها لم يخلصها من الغش ولا نصح فيها ولا اعتمد في أمرها ما قاله المترجم عن الملك والسفير
بينه وبين الصناع والنجار بل كان يعملها على ما يراه ومع ذلك فكان يخون الملك في داره
إذ هو غائب عن عينه فلا يلوح له طمع إلا خانه ولا حرمة للملك إلا مد بصره إليها وحرص
على إفسادها ولا شيء يسخط الملك إلا ارتكبه إذا قدر عليه فضيا على ذلك مدة ثم قبل إن
الملك يبرز اليوم لمعامليه حتى يحاسبهم ويعطيهم حقوقهم فوقف الرجلان بين يديه فعامل
كل واحد منهما بما يستحقه . فتأمل هذين المثلين فإن الواقع مطابق لهما فالراجي على الحقيقة
لما صارت الجنة نصب عينه ورجاءه وأمله امتد إليها قلبه وسعى لها سعياً فان الرجاء هو
امتداد القلب وميله ، وحقق رجاءه كمال التأهب وخوف الفوت والاختذ بالحذر . وأصله
من التنحر ورجا البئر ناحيته وإرجاء السماء نواحيها وامتداد القلب إلى المحبوب منقطعاً
عما يقطعه عنه هر تبح عن النفس الأمارة وأسبابها وما تدعو إليه وهذا الامتداد والميل
والخوف من شأن النفس المطمئنة فان القلب إذا انفتحت بصيرته فرأى الآخرة وما أعد
الله فيها لأهل طاعته وأهل معصيته خاف وخف مرتجلاً إلى الله والدار الآخرة وكان قبل
ذلك مطمئناً إلى النفس ، والنفس إلى الشهوات والدنيا فلما انكشف عنه غطاء النفس خف
وارتحل عن جوارها طالباً جوار العزيز الرحيم في جنات النعيم ، ومن هنا صار كل خائف
راجياً وكل راج خائفاً فأطلق اسم أحدهما على الآخر فان الراجي قلبه قريب الصفة من
قلت الخائف هذا الراجي قد نحي قلبه عن مجاورة النفس والشیطان مرتجلاً إلى الله
قد رفع له من الجنة علم فشمس إليه وله ماذا إليه قلبه كله ، وهذا الخائف فار من

جوارهما ملتجئاً إلى الله من حبسه في سجنها في الدنيا فيحبس معها بعد الموت ويوم القيامة فإن المرء مع قرينه في الدنيا والآخرة فلما سمع الوعيد ارتحل من مجاورة جار السوء في الدارين فأعطى اسم الخائف ، ولما سمع الوعد امتد واستطار شوقاً إليه وفرحاً بالظفر به فأعطى اسم الراجي وحالاه متلازمان لا ينفك عنهما فكل راج خائف من فوات ما يرجوه كما أن كل خائف راج آمنه مما يخاف ، فلذلك تداول الاسمان عليه قال تعالى (ما لكم لا ترجون لله وقاراً) قالوا في تفسيرها لا تخافون الله عظمة . وقد تقدم أن سبحانه طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا وقد فر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الإيمان بأنه ذو شعب وأعمال ظاهرة وباطنة وفسر الهجرة بأنها هجر ما نهى الله عنه ، والجهاد بأنه جهاد النفس في ذات الله فقال المهاجر من هجر ما نهى الله عنه والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله والمتصوّد أن الله سبحانه جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد وأخرج من سواهم من هذه الأمم .

وأما الأمانى فإنها رءوس أموال المفاليس أخرجوها في قالب الرجاء وتلك أمانيتهم وهي تصدر من قلب تزاحمت عليه وسوس النفس فأظلم من دخانها فهو يستعمل قلبه في شهواتها وكلما فعل ذلك منته حسن العاقبة والنجاة واحالته على العفو والمغفرة والفضل وإن الكريم لا يستوفي حقه ولا ينضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة ويسمى ذلك رجاء وإنما هو وسواس وأمانى باطلة تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل فيستريح إليها قال تعالى (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزبه ولا يجرد له من دون الله ولياً ولا نصيراً) فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته ولم يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ، وإذا ترك ولايته ونصرته تولته نفسه والشيطان فصارا وليين له ووكل إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلاً من نصرته الله ورسوله فاستبدل بولاية الله ولايته نفسه وشيطانه وبنصرته نصرته نفسه وهواه فلم يدع للرجاء موضعاً . فإذا قالت لك النفس أنا في مقام الرجاء فطالبها بالبرهان رقل هذه أمنية فأتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، فالكيس يعمل أعمال البر على الطمع والرجاء واللاحق العاجز يعطل أعمال البر ويتكلم على الأمانى التي يسميها رجاء . والله الموفق .

فصل

والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها أن المتحدث بالنعمة يخبر عن صفات ولها ومحض جوده وإحسانه فهو مشن عليه باظهارها والتحدث بها شاكر آ له ناشراً لجميع ما أولاه مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء وبعث النفس على الطلاب منه دون غيره وعلى محبته ورجائه فيكون راغباً إلى الله باظهار نعمه ونشرها والتحدث بها .

وأما الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس ويريبهم أنه أعز منهم وأكبر ، فيركب أعضائهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة قال النعمان بن بشير إن للشيطان مصالى^(۱) ونفوخاً وإن من مصاليه ونفوخه البطش بنعم الله والكبر على عباد الله والفخر بمعية الله والهون في غير ذات الله .

فصل

والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر فإن الفرح بالله ومعرفة ومحبة وكلامه من القلب قال تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) فإذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحي فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به وقال تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) وقال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) قال أبو سعيد الخدرى فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله وقال هلال بن يساف فضل الله ورحمته الإسلام الذى هداكم إليه والقرآن الذى علمكم هو خير من الذهب والفضة الذى يجمعون . وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين فضل الله الإسلام ورحمته القرآن ، فهذا فرح القلب وهو من الإيمان ويثاب عليه العبد فان فرحه به يدل على رضاه به بل هو فوق الرضا فالفرح بذلك على قدر محبته فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحجوب وعلى قدر محبته يفرح بمصولة له فالفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه وله عبودية دجبية وأثر في القلب لا يدبر عنه فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل ما يعطاه بل هو جل عطاياه ، والفرح فى الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبة فى الدنيا ، فالفرح بالوصول إلى المحجوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها ، فهذا شأن فرح القلب ، وله فرح آخر وهو فرحه بما من الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به وكلما تمكن فى ذلك قوى فرحه وابتهاجه ، وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن وهى الفرحة التى تحصل له بالتوبة فإن لها فرحة عجيبة لانسبة افرحة المعصية إليها البتة ، فلو علم العاصى أن لذة التوبة وفرحتها يزيد على لذة المعصية^(۲) وفرحتها أضعافاً مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية .

(۱) جمع مصلاه أى شرك وبتحتين، كما فى النهاية .

(۲) هذه هى لذة النفس التى تقابل لذة القلب .

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر ، ولقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلاليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه وهو فرح رجل قد خرج براحلته التي عليها طعامه وشرابه في سفر ففقدتها في أرض دوية مهلكة فاجتهد في طلبها فلم يجدها فيئس منها فجلس ينتظر الموت حتى إذا طلع البدر رأى في ضوئه راحلته وقد تعلق زمامها بشجرة فقال من شدة فرحه اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح فآله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته .

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة ولكن هاهنا أمر يجب التنبيه عليه وهو أن لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن لا تثبت لها الجبال فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشيء وآخر أمره فوات ما آثره من فرصة المعصية ولذتها فيفوته الأمان ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذى وفوت المحبوب فالحكم لله العلى الكبير .

فصل

وهاهنا فرحة أعظم من هذا كله وهى فرحته عند مفارقتة الدنيا إلى الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلفائه وقال له ملك الموت أخرجى أيتها الروح الطيبة كانت في الجسد الطيب أبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان ، اخرجى راضية مرضيا عنك (يأتها النفس المطمئنة أرجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) فلو لم يأن بين يدي التائب إلا هذه الفرحة وحدها لكان العقل يأمر بإثارها فكيف ومن بعدها أنواع من الفرح منها الملائكة الذين بين السماء والأرض على روجه ، ومنها فتح ابواب السماء لها وهالة ملائكة السماء عليها وتشيع مقربها لها إلى السماء الثانية فتفتح ويصلى عليها أهلها ويشيعها مقربوها هكذا إلى السماء السابعة فكيف يقدر فرحها وقد استؤذن لها على ربها وأولها وحببها فوقفت بين يديه واذن لها بالسجود فسجدت ثم سمعته سبحانه يقول اكتبوا كتابه فى عابدين ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعدته فيها وما أعد الله له ويلقى أصحابه وأهله فيستبشرون به ويفرحون به ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله فيجدهم على أحسن حال ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر هذا كله قبل الفرح الأكبر يوم حشر الأجساد بجلوسه فى ظل العرش وشربه من الخوض وأخذه كتابه بيمينه وثقل ميزانه وبياض وجهه واعطاه النور التام والناس فى الظلمة وقطعه جسر جهنم بلا تعويق وانتهاه إلى باب الجنة وقد أزلت له فى الموقف وتلقى خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة وقدومه على منازله وقصوره وأزواجه وسراريه .

وبعد ذلك فرح آخر لا يقدر قدره ولا يعبر عنه تتلاشى هذه الافراح كلها عنده وإنما يكون هذا لاهل السنة المصدقين بروية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم وسلامه عليهم وتكليمه اياهم ومحاضرتهم لهم :

وليست هذه الفرحات الا
فشمرا استطعت الساق واجهد
وصم عن لذة حشيت بلاء
ودع أمنية إن لم تلها
ولا تستبط وعدا من رسول
فهذا الوعد أدنى من نعيم
لذي الترحات في دار الرزايا
لملك أن تفوز بذى العطايا
الذات خلصن من البلايا
تعذب أو تنل كانت منايا
أنى بالحق من رب البرايا
مضى بالأمس لو وفقت رايها

فصل

والفرق بين رقة القلب والجزع أن الجزع ضعف في النفس وخوف في القلب بمداه شدة الطمع والحرص ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر وإلا فتي علم أن المقدر كائن ولا بد كان الجزع غنا محضا ومصيبة ثانية قال تعالى (ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) فتي آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدره في الحاضر والغائب لم يجزع ولم يفرح . ولا ينأى هذا رقة القلب فانها ناشئة من صفة الرحمة التي هي كمال والله سبحانه إنما يرحم من عباده الرحماء وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرق الناس قلبا وأبعدهم من الجزع ، فرقة القلب رافة ورحمة ، وجزعه مرض وضعف ، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الامارة فأخذ بأنفاسه وضيق عليه مسالك الآخرة وصار في سجن الهوى والنفس وهو سجن ضيق الأرجاء مظلم المسلك فانهضار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يجتمله فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعدوا متلا من محبة الله واجلاله رق وصارت فيه الرافة والرحمة فتراه رحما رفيق القلب بكل ذى قرى ومسلم يرحم النملة في جحرها والطير في وكره فضلا عن بنى جنسه فهذا أقرب القلوب من الله قال أنس كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرحم الناس بالعيال . والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبداً اسكن في قلبه الرافة والرحمة وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرافة وأبدله بهما الغلظة والقسوة وفي الحديث للثابت لا تنزع الرحمة إلا من شقى ، وفيه من لا يرحم لا يرحم ، وفيه ارحموا من في الارض

يرحمكم من في السماء ، وفيه أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط . تصدق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قرين ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال . والصديق رضى الله عنه إنما فضل الأمة بما كان في قلبه من الرحمة العامة زيادة على الصديقية ولهذا أظهر أثرها في جميع مقدماته حتى في الأسارى يوم بدر واستقر الأمر على ما أشار به وضرب له صلى الله عليه وآله وسلم مثلاً بعيسى وإبراهيم ، والرب تعالى هو الرؤوف الرحيم وأقرب الخلق إليه وأعظمهم رأفة ورحمة كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته وهذا باب لا يلججه إلا الأفراد في العالم .

فصل

والفرق بين الموجدة والحقد أن الوجد الاحساس بالمولم والعلم به وتحرك النفس في رفعه فهو كمال . وأما الحقد فهو إضمار الشر وتوقعه كل وقت فيمن وجدت عليه فلا يزال القلب أثره .

وفرق آخر وهو أن الموجدة لما ينالك منه ، والحقد لما يناله منك ؛ فالموجدة وجود ما نالك من أذاه ، والحقد توقع وجود ما يناله من المقابلة ؛ فالموجدة سريعة الزوال والحقد بطيء الزوال ، والحقد يجيء مع ضيق القلب واستيلاء ظلمة النفس ودخائها عليه . بخلاف الموجدة فإنها تكون مع قوته وصلابته وقوة نوره وإحساسه .

فصل

والفرق بين المنافسة والحسد أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذي تشاهد من غيرك فتناوسه فيه حتى تلحقه أو تتجاوزته فهي من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر قال تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) وأصلها من الشيء النفيس الذي تتعلق به النفوس طلباً ورغبة فينافس فيه كل من النفسين الأخرى وربما فرحت إذا شاركتها فيه كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه بل يحض بعضهم بعضاً عليه مع تنافسهم فيه وهي نوع من المسابقة وقد قال تعالى (فاستبقوا الخيرات) وقال تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء) وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر رضى الله عنهما فلم يظفر بسبقه أبداً فلما علم أنه قد استولى على الإمامة قال والله لأسبقك إلى شيء أبداً وقال والله ما سبقته إلى خير إلا وجدته قد سبقني إليه . والمتنافسان كعبدین بین یدی سیدھا یتباریان ویتنافسان فی مرضاتہ ویتسابقان إلى محابہ ، فسیدھا یعجبه ذلك منهما ويحسبها عليه وكل منهما يجب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده .

والحسد خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ليس فيها حرص على الخير فلمجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها وتتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها في العدم كما قال تعالى (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) وقال تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويجب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل والحسود يجب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة فمن جعل نصب عينيه شخصاً من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيراً فإنه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه وهذا لانذمه ، وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاحسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار ورجل آتاه الله مالا فسلطه على ملكته في الحق ، فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل .

فصل

والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها فإن الناصح لله المعظم له المحب له يجب أن يطاع ربه فلا يعصى وأن تكون كلمته هي العليا وأن يكون الدين كله لله وأن يكون العباد ممثلين أوامره مجتنبين نواهيه فقد ناصح الله في عبوديته وناصح خلقه في الدعوة إلى الله فهو يجب الإمامة في الدين بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين أما ما يقتدى به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً وفي قلوبهم مهيباً واليهم حبيباً وأن يكون فيهم مطاعاً لكي يأتوا به ويقتفوا أثر الرسول على يده لم يضره ذلك بل يحمده عليه لأنه داع إلى الله يجب أن يطاع ويعبد ويوحده فهو يجب ما يكون عوناً على ذلك موصلاً إليه ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليهم في تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ثم قال (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماماً) فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة فإنما سألوه ما يمانون به المتقين على مرضاته وطاعته وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين كما قال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا

بآياتنا يوقنون) وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوقمهم وين عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهراً وباطناً التي لا تتم الإمامة إلا بها ، وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسم الرحمن جلاله ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنتته ، وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف وهي المنازل العالية في الجنة لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد في الدين كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة .

وهذا بخلاف طلب الرياسة فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم فترتب على هذا المطلب من المفساد ما لا يعلمه إلا الله من البغى والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله وأعظم من حقره الله واحتقار من أكرمه الله ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفساد والرؤساء في عمى عن هذا فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه ولا سيما إذا حشروا في صور الذر يطوهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم وتحقيراً وتصغيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده .

فصل

والفرق بين الحب في الله والحب مع الله وهذا من أهم الفروق وكل أحد محتاج بل مضطر إلى الفرق بين هذا وهذا ، فالحب في الله هو من كمال الإيمان والحب مع الله هو عين الشرك والفرق بينهما أن الحب في الله تابع لمحبة الله فإذا تمكنت محبته من قلب العبد أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه كان ذلك الحب له وفيه كما يحب رسوله وأنبياءه وملائكته وأوليائه لكونه تعالى يحبهم ، ويبغض من يبغضهم لكونه تعالى يبغضهم وعلامة هذا الحب والبغض في الله أنه لا ينقلب بغضه لبغض الله حباً لاحسانه إليه وخدمته له وقضاء حوائجه ، ولا ينقلب حبه لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليه من جهته ما يكرهه ويؤلمه إما خطأ وإما عمداً مطيعاً لله فيه أو متأولاً أو مجتهداً أو باغياً نازعاً تائباً والدين كله يدور على أربع قواعد حب وبغض ويترب عليهما فعل وترك فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله فقد استكمل الإيمان بحيث إذا أحب الله وإذا أبغض الله وإذا فعل فعل الله وإذا ترك ترك الله ، وما نقص من أصنافه هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسه . وهذا بخلاف الحب مع الله فهو نوعان يقدر في أصل التوحيد وهو شرك ونوع يقدر في كمال الإخلاص ومحبة الله ولا يخرج من الإسلام .

(فالاول) كحبة المشركين لاوثانهم وأندادهم قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله كما يحبون الله فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله . ولا يتم الإيثار إلا بمعادة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ومعاداتهم ومحاربتهم وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعادتهم فيه وفي مرضاته فكل من عبد شيئاً من لدن عرشه إلى قرار أرضه فقد اتخذ من دون الله إلهاً وولياً وأشرك به كأنما ذلك المعبود ما كان ولا بد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه .

(والنوع الثاني) محبة ما زينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث فيحبها محبة شهوة كحبة الجائع للطعام والظمآن للماء فهذه المحبة ثلاثة أنواع فإن أحبها لله توصلها إليه واستعانة على مرضاته وطاعته أئيد . عليها وكانت من قسم الحب لله توصلها إليه ويلتذ بالتمتع بها وهذا حاله أكمل الخلق الذي حجب إليه من الدنيا النساء والطيب وكانت محبة لها عوناً له على محبة الله وتلبيغ رسالته والقيام بأمره، وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه وإرادته ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه بل نالها بحكم الميل الطبيعي كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك ولكن ينقص من كمال محبة الله والمحبة فيه وإن كانت هي مقصوده ومراده وسعيه في تحصيلها والظفر بها وقدمها على ما يحبه الله ويرضاه منه كان ظالماً لنفسه متبعاً لهواه .

(فالأولى) محبة السابقين .

(والثانية) محبة المقتصدین .

(والثالثة) محبة الظالمين .

فتأمل هذا الموضوع وما فيه من الجمع والفرق فانه معترك النفس الأمارة والمطمئنة .

والمهدي من هداه الله .

فصل

والفرق بين التوكل والعجز أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله وثقة به والتجاء إليه وتفويضاً إليه ورضاً بما يقضيه له لعله بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها فقد كان رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم أعظم المتوكلين وكان يلبس لامته ودرعه بل ظاهر يوم أحد بين درعين واختفى في الغار ثلاثاً فكان متوكلاً في السبب لا على السبب .

وأما العجز فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما فيما أن يعطل السبب عجزاً منه ويزعم أن ذلك توكل ولعمري الله إنه لعجز وتفریط وإما أن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المسبب معرضاً عنه وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر ولم يعلق قلبه به تعلقاً تاماً بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب فهذا توكله عجز وعجزه توكل .

وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطاً (فأحد الطرفين) عطل الأسباب محافظة على التوكل .

(والثاني) عطل التوكل محافظة على السبب (والوسط) علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب فتوكل على الله في نفس السبب ، وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متمن كس عطل النكاح والتسرى وتوكل في حصول الولد ، وعطل الحرث والبذر وتوكل في حصول الزرع ، وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول الشبع والرى فالتوكل نظير الرجاء ، والعجز نظير التمني فحقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلاً له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله للعالم بكفايته نهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتياط وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه فأمره أن يحرك ويبذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذلك كما قدره سبحانه ودبره واقتضت حكمته وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه وأخبره أنه سبحانه المولى بالوكالة الوفي بالكفالة فالعاجز من رمى هذا كاه وراء ظهره وقعد كسلان طالباً للراحة مؤثراً للدعة يقول الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله وسيأتي ما قدر لي على ضعفي ولن أنال ما لم يقدر لي مع قوتي ولو أني هربت من رزقي كما أهرب من الموت للحقني فيقال له نعم هذا كله حتى وقد علمت أن الرزق مقدر فما يدريك كيف قدر لك ، بسعيك أم بسعي غيرك ، وإذا كان بسعيك فبأي سبب ومن أي وجه ، وإذا خفي عليك هذا كله فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفواً بلا سعي ولا كد فكم من شيء سعيته فيه فقدر لغيرك وكم من شيء سعى فيه غيرك فقدر لك رزقاً ! فإذا رأيت هذا عياناً فكيف علمت أن رزقك كله بسعي غيرك ؟ وأيضاً فهذا الذي أوردته عليك النفس يجب عليك طرده في جميع الأسباب مع مسبباتها حتى في أسباب دخول الجنة والنجاة من النار فهل تعطلها اعتماداً على التوكل أم تقوم بها مع التوكل ؟ بل لن تخلوا الأرض من متوكل صبر نفسه لله وملاً قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب فسكن قلبه إلى الله واطمأن

إليه ووثق به وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه فلم يعطل السبب وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه فكان توكله أوثق الأسباب عنده ، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك أو من كماله فلم يتسع قلبه للأميرين فأعرض أحدهما إلى الآخر ولا ريب أن هذا أكل حالاً بمن امتلأ قلبه بالسبب واشتغل به عن ربه وأكمل منهما من جمع الأمرين وهي حال الرسل والصحابة فقد كان زكريا نجاراً وقد أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتماداً على التوكل بل كانوا أقوم الناس بالأمرين ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل وعمرؤا أمورهم وأصلحوها وأعدوا لأهلهم كفايتهم من القوت اقتداء بسيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه وآله .

فصل

والفرق بين الاحتياط والوسوسة ان الاحتياط الاستقصاء والمبالغة في اتباع السنة وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من غير غلو ومجاوزة ولا تقصير ولا تفريط فهذا هو الاحتياط الذي يرضاه الله ورسوله ، وأما الوسوسة فهي ابتداء مالم تأت به السنة ولم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أحد من الصحابة زاعماً أنه يصل بذلك إلى تحصيل المشروع وضبطه كمن يحتاط بزعمه ويفسل أعضائه في الوضوء فوق الثلاثة فيسرف في صب الماء في وضوئه وغسله ويصرح باللفظ بنية الصلاة مراراً أو مرة واحدة ويغسل ثيابه بما لا يتيقن نجاسته احتياطاً ويرغب عن الصلاة في نعله احتياطاً إلى أضعاف أضغاف هذا مما اتخذته الموسوسون ديناً وزعموا أنه احتياط وقد كان الاحتياط باتباع هدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما كان عليه أولى بهم فانه الاحتياط الذي من خرج عنه فقد فارق الاحتياط وعدل عن سواء الصراط والاحتياط كل الاحتياط الخروج عن خلاف السنة ولو خالفت أكثر أهل الأرض بل كلهم .

فصل

والفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه (منها) أن ما كان لله موافقاً لمرضاته وما جاء به رسوله فهو من الملك وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان (ومنها) أن ما أُمِر إقبالاً على الله وإنبابة إليه وذكر آله وهمة صاعدة إليه فهو من إلقاء الملك وما أُمِر ضد ذلك فهو من إلقاء الشيطان (ومنها) أن ما أورث أنساً ونوراً في القلب وانشراحاً في الصدر فهو من الملك وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان (ومنها) أن ما أورث

سكينة وطمأنينة فهو من الملك وما أورث تلقاً وانزعاجاً واضطراباً فهو من الشيطان (فالإلهام الملكي) يكثر في القلوب الطاهرة النقية التي قد استنارت بنور الله فللملك بها اتصال وبينه وبينها مناسبة فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلباً يناسبه فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة للشيطان ، وأما القلب المظلم الذي قد اسود بدخان الشهوات والشبهات فالقاء للشيطان ولحمه به أكثر من لمة الملك .

فصل

والفرق بين الاقتصاد والتقصير أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط وله طرفان هما ضدان له تقصير ومجاوزة فالمقتصد قد أخذ بالتوسط وعدل عن الطرفين قال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) وقال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) وقال تعالى (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) والدين كله بين هذين الطرفين بل الإسلام قصد بين الملل والسنة قصد بين البدع ودين الله بين العالی فيه والجاني عنه وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد في موافقة الأمر ، والغلو مجاوزته وتعديه وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان فاما إلى غلو ومجاوزة وإما إلى تفريط وتقصير وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به لا من ترك ما جاء به لا قوالهم وآرائهم وهذا أن المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بني آدم ولهذا حذر السلف منهما أشد التحذير وخوفوا من بلي بأحدهما بالهلاك وقد يجتمعان في الشخص الواحد كما هو حال أكثر الخلق يكون مقصراً مفرطاً في بعض دينه غالباً متجاوزاً في بعضه والمهدى من هداه الله .

فصل

والفرق بين النصيحة والتأنيب أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعابه فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه فيتلطف في بذلها غاية التلطف ويحتمل أذى المنصوح ولا يمتنه ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق المريض المشع مرضاً وهو يحتمل سوء خاقه وشراسته ونفرتة ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن فهذا شأن الناصح .

وأما المؤنب فهو رجل قصده التعبير والإهانة وذم من أنبه وشتمه في صورة النصيح فهو يقول له يا فاعل كذا وكذا يامستحقاً للذم والإهانة في صورة ناصح مشفق ، وعلامة هذا أنه

لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له ولم يقل له شيئاً ويطلب له وجوه المعاذير فإن غلب قال وإني ضمننت له العصمة والإنسان عرضة للخطأ ومحاسنه أكثر من مساويه والله غفور رحيم ونحو ذلك فيا عجبا كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه وكيف كان حظ ذلك منك التأسى في صورة النصيح وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة وطلب وجوه المعاذير .

وهذا الفرق بين النصيح والمؤنب أن النصيح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحتك وقال قد وقع أسرى على الله قلت أو لم تقبل ويدعوك لئلا يسهو تغيب ولا يذكر عيوبك ولا يبينها في الناس، والمؤنب يبدد ذلك .

فصل

وهذا الفرق بين العجالة والمبادرة أن المبادرة انتهان الفرصة في وقتها ولا يتركها حتى إذا فاتت طلبها وقد لا يثبت الأمور في أديارها ولا قبل وقتها بل إذا حضر وقتها يبادر إليها ووثب عليها وتوالت الأقدام على فريسته فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة وقت كمال نضجها وبادر إلى أخذها .

والعجالة مطلب أخذ الشيء قبل وقته فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها فالعجالة وسط بين خلتين مذمومين أحدهما التفريط والإضاعة والثاني الاستعجال قبل الوقت . وهذا كانت العجالة من الشيطان فإنها خفة وطيش وحدة في العبد تمنعه من الثبت والوقار والحلم وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها وتجلب عليه أنواعا من الشرور وتمنعه أنواعا من الخير وهي قرين الندامة فقل من استعجل إلا ندم كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة .

فصل

والفرق بين الاخبار بالحال وبين الشكوى وإن اشتبهت صورتها أن الاخبار بالحال يقصد المخبر به قصداً صحيحاً من علم سبب إدانته أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه أو يحذره من الوقوع في مثل ما وقع فيه فيكون ناصحاً بإخباره له أو حمله على الصبر بالتأسي به كما يذكر عن الأحنف أنه شكى إليه رجل شكوى فقال يا ابن أخي لقد ذهب ضوء عيني من كذا وكذا سنة فما أعلمت به أحداً فني ضمن هذا الاخبار من حمل الشاكي على التأسي والصبر حاشاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوى ولكن القصد ميز بينهما، وأجل من هذا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما قالت عائشة وأرأساه فقال بل أنا وأرأساه أي الوجد القوي في

أنا دونك فتأسي بي فلا تشكى ، ويلوح لي فيه معنى آخر وهو أنها كانت حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل كانت أحب النساء إليه على الإطلاق فلما اشتكت إليه رأسها أخبرها أن يمسحها من الألم مثل الذي بها وهذا غاية الموافقة من المحب ومحبوبه يتألم بتألمه ويسر بسروره حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة فالمعنى الأول يفهم أنك لا تشكى واصبري في من الموضع مثل ما بك فتأسي بي في الصبر وعدم الشكوى . والمعنى الثاني يفهم إعلامها بصدق محبته لها أي انظري قوة محبي لك كيف واسيتك في ألمك ووجع رأسك فلم تكوني متوجعة وأنا سليم من الوجع بل يؤلمني ما يؤلمك كما يسرنى ما يسرك كما قيل :

وان أولى البرايا أن توأسيه عند السرور الذي وأسألك في الحزن

وأما الشكوى فالأخبار العارية عن القصد الصحيح بل يكون مصدره السخط ويشكاه المبتلى إلى غيره فإن شكاه إليه سبحانه وتعالى لم يكن ذلك شكوى بل استعطاف وتذلل واسترحمة له كقول أيوب (ربى أى مسنى للضر وأنت أرحم الراحمين) وقول يعقوب (إنا لله واستغفره) وحزنى إلى الله) وقول موسى : اللهم لك الحمد وإليك المشكى أنت المستغفر من كل المنكرات وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك ، وقول سيد ولد آدم اللهم إني أعوذ بك من أن يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي أعود بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أعيه من غضبك أو ينزل بي سخطك لك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : الله سبحانه لا تنافى الصبر بوجه فإن الله تعالى قال عن أيوب (إنا وجدناه صابراً) وقوله (أواب) مع أخباره عنه بالشكوى إليه في قوله (مسنى للضر) وأخباره عنه بالصبر والصلابة من نفسه بالصبر الجميل والنبي إذا قال وفى مع قوله (إنا شكور) حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم : ذلك نقصا لصبره ، ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القريم كما قال بعضهم : (لا شكور) قال تعالى (إنا وجدناه صابراً) ولم يقل صبوراً حيث قال مسنى للضر ، قال بعضهم : (لا شكور) أرحمنا قال أنت أرحم الراحمين فلم يرد على الأخبار بحاله ، ووصف ربه ، وقد يشهدون إنما شكوا من الضر حين ضعف أسانه عن الذكر فشكوا من ضعف الذكر لا من ضعف النفس والألم ، وقال بعضهم استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة ، وكان هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تعالى الصبر وغلط أفح العلط والمنايا بتفسير الشكواه لا الشكوى إليه فإنه يتلى عبده لیسمع تضرعه ودعاؤه والشكوى إلى الله ولا يخفى التحليل عليه

وأحب ما إليه انكسار قلب عبده بين يديه وتذلل له وإظهار ضعفه وفاقة وعجزه وقلة صبره
فاحذر كل الحذر من إظهار النجدة عليه وعليك بالتضرع والتسكن وإبداء العجز والفاقة والذل
والضعف فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للغم .

فصل

وهذا باب من الفروق مطول ولعل إن ساعد القدر أن نفرده فيه كتاباً كبيراً وإنما نهينا بما
ذكرنا على أصوله والليد يكتفى ببعض ذلك والدين كله فرق وكتاب الله فرقان ومحمد صلى
الله عليه وآله وسلم فرق بين الناس ومن اتقى الله جعل له فرقانا (يا أيها الذين آمنوا إن
تقوا الله يجعل لكم فرقانا) وسمى يوم بدر يوم الفرقان لأنه فرق بين أولياء الله وأعدائه
فالهدى كله فرقان ، والضلال أصله الجمع كما جمع المشركون بين عبادة الله وعبادة الأوثان ومحبه
ومحبة الأوثان وبين ما يحبه ويرضاه وبين ما قدره وقضاه فجعلوا الأمر واحد واستدلوا بقضائه
وقدره على محبه ورضاه وجمعوا بين الربا والبيع فقالوا (إنما للبيع مثل الربا) وجمعوا بين
المذكي والميتة وقالوا كيف نأكل ما قتلنا ولأننا كل ما قتل الله ، وجمع المسلمون عن الشرائع
بين الحلال والحرام فقالوا هذه المرأة خلقها الله وهذه خلقها وهذا الحيوان خلقه وهذا خلقه
فكيف يحل هذا ويحرم هذا ؟ وجمعوا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وجاءت طائفة
الاتحادية فطمروا الوادي على القرى وجمعوا الكل في ذات واحدة وقالوا هي الله الذي لا إله
إلا هو وقال صاحب فصوصهم وواضع نصوصهم واعلم أن الأمر قرآنا لا فرقانا :

ما الأمر إلا نسق واحد ما فيه من مدح ولا ذم
وإنما العادة قد خصصت والطبع والشارع بالحكم

والمقصود أن أرباب البصائر هم أصحاب الفرقان فأعظم الناس فرقانا بين المشتبهات أعظم
الناس بصيرة . والتشابه يقع في الأقوال والأعمال والأحوال والأموال والرجال وإنما أتى
أكثر أهل العلم من التشابهات في ذلك كله ولا يحصل الفرقان إلا بنور يقذفه الله في قلب من
يشاء من عباده يرى في ضوئه حقائق الأمور ويميز بين حقها وباطلها وصحيحها وسقيمها (ومن
لم يجعل الله له نورا فما له من نور) ولا تستطل هذا الفصل فلعله من أنفع فصول الكتاب
والحاجة إليه شديدة فإن رزقك الله فيه بصيرة خرجت منه إلى فرقان أعظم منه وهو الفرق بين
توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه أهل التعطيل ، والفرق بين
إثبات الصفات والعلو والتكلم والتكليم حقيقة وبين التشبيه والتمثيل ، والفرق بين تهميد

التوحيد العملي الإرادي وبين هضم أرباب المراتب مراتبهم التي أنزلهم الله إياها ، والفرق بين تجريد متابعة المعصوم وبين إهدار أقوال العلماء وإلغائها وعدم الالتفات إليها ، والفرق بين تقليد العالم وبين الاستضاءة بنور علمه والاستعانة بفهمه والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، والفرق بين الحال الإيماني الرحاني والحال الشيطاني الكفري والحال الباطني والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع على كل واحد والحكم المؤول الذي سمى آيته الأسمى جائز الإنباع عند الضرورة ولادرك على مخالفه .

فصل

ونحن نختم الكتاب بإشارة لطيفة إلى الفروق بين هذه الأمور إذ كل فرق من هذه الأقسام بسطه كتاباً كبيراً فالفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعظمين أن توحيد المرسلين هو صفات الكمال لله على وجه التفصيل وعبادته وحده لا شريك له فلا يعطى لغيره من صفات الكمال ولا حب ولا خوف ولا رجاء ولا انظ ولا حاف ولا يذر بل يرفع الله الكمال عن غيره وقصده ولسانه وعبادته كما أنها معدومة في نفس الأمر لا رجوع لها إلى غيره ولا يقر في قلبه ولسانه .

وأما توحيد المعظمين فنفي حقائق أسمائه وصفاته وتمثيلها ومن أسمائه عظمته ولسانه عظمها فلا يذكرها ولا يذكر آية تتضمنها ولا حديثاً يصرح بها ولا حديثاً يعمد على تمثيل ذكرها سخطاً عليها بالتحريف ونفي حقيقةها وحتمها بالتمثيل والتمثيل هو جنس الالغاز والاحاجي على أن من طرد تعظيمه فهو على أنه يفتقر إلى فهم من المعنى نظير ما فر منه سواء كان لزم تمثيل أو تشبيه أو حاد من صفات الطبيعة من حيث هو عليه النص وان لا يلزم في هذا فهو أولى أن لا يلزم في الحقيقة فمن لم يفرق بين الجميع فهذا طرد لأصل التعميل والفرق أقرب منه والكله مناهض يعنى الله بعض ما أثبتة لنفسه ونفى عنه البعض الآخر واللازم الباطن هو الذي لا يفرق بينهما .

والمقصود أنهم سمو هذا التعميل توحيداً وإنما هو إلحاد من أوجهه وتمثيل لحقائقها .

فصل

والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة أن الرسل توهم وسجدة لهم والتمثيل هو الذي نزه نفسه عنها وهي المنافية لكامله وكان ربوبيته وعظمته كالسنة من حيث هو

واللغوب والظلم وإرادته والتسمي به والشريك والصاحبة والظهير والولد والشفيع بدون إذنه وأن يترك عباده مدى هملا وأن يكون خلقهم عبثاً وأن يكون خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً لا اثواب ولا عقاب ولا أمر ولا نهي وأن يسوي بين أوليائه وأعدائه وبين الأبرار والفجار وبين الكفار والمؤمنين وأن يكون في ملكه ما لا يشاء وأن يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه وأن يكون لغيره معه من الأمر شيء وأن يعرض له غفلة أو سهو أو نسيان وأن يخلف رعه أو تبدل كتابته أو يضاف إليه الثمر اجماً أو وصفاً أو فعلاً بل أسماءه كلها حسنى وصفاته كلها كمال وأفعاله كلها خير وحكمة ومصلحة . فهذا تنزيه الرسل لربهم .

وأما المعطلون فنزهوه عما وصف به نفسه من الكمال فنزهوه عن أن يتكلم أو يكلم أحداً ونزهوه عن استوائه عن عرشه وأن ترفع إليه الأيدي وأن يصعد إليه الكلم الطيب وأن ينزل من عنده شيء أو تخرج إليه الملائكة والروح وأن يكون فوق عباده وفوق جميع مخلوقاته عالماً علماً ، ونزهوه أن يقبض السموات بيده والأرض باليد الأخرى وأن يمسك السموات عن أن تصعب والأرض عن أن تصعب والجبال عن أن تصعب والشجر عن أن تصعب ونزهوه أن يكون له وجه . أن يراه المؤمنون بأبصارهم في الجنة وأن يكلمهم ويسلم عليهم ويتجلى لهم ضاحكاً وأن ينزل كل ليلة إلى الدنيا ويقول من يستغفرتني فأغفر له من يسألني فأعطيه فلانزول عندهم ولا قول . ونزهوه أن يفعل شيئاً شيء بل أفعاله لا لحكمة ولا لغرض مقصود ، ونزهوه أن يكون تام المشيئة نزل الإرادة بل يشاء الشيء ويشاء عباده خلافاً فيكون ما شاء العبد دون ما شاء الرب ، ولا يشاء الشيء فيكون ما لا يشاء ويشاء ما لا يكون ، وسموا هذا عدلاً كما سموا ذلك التنزيه توحيداً ، ونزهوه عن أن يحب أو يكره ونزهوه عن الرأفة والرحمة والغضب والرضا ، ونزهوه آخرون عن السمع والبصر ، وآخرون عن العلم . ونزهوه آخرون عن الوجود فقالوا الذي فر إليه هؤلاء المنزهون من التشبيه والتشثيل يلزمنا في الوجود فيجب علينا أن ننزهه عنه فهذا تنزيه الملاحدين والأول تنزيه المرسلين .

فصل

والفرق بين إثبات حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتشثيل ما قاله الإمام أحمد ومن وافقه من أئمة الهدى أن التشبيه والتشثيل أن تقول يد كيدي أو سمع كسمعي أو بصر كبصري ونحو ذلك ، وأما إذا قلت سمع وبصر ويد ووجه واستواء لا يماثل شيئاً من صفات المخلوقين بل بين الصفة والصفة من الفرق كما بين الموصوف والموصوف فأى تمثيل هنا وأي تشبيه لولا تليس الملاحدين فمدار الحق الذي انفقت عليه الرسل على أن يوصف الله بما وصف

به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل ، إثبات الصفات ونفي مشابهة المخلوقات فمن شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد حقائق ما وصف الله به نفسه فقد كفر ومن أثبت له حقائق الأسماء والصفات ونفى عنه مشابهة المخلوقات فقد هدى إلى صراط مستقيم .

فصل

والفرق بين تجريد التوحيد وبين عظم أرباب المراتب أن تجريد التوحيد أن لا يعطى المخلوق شيئاً من حق الخالق وخصائصه فلا يعبد ولا يصلى له ولا يسجد ولا يحلف باسمه ولا ينذر له ولا يتوكل عليه ولا يؤثمه ولا يقسم به على الله ولا يعبد ليقرب إلى الله زلي ولا يسأري ربه العالمين في قول القائل ما شاء الله وشئت وهذا منك ومن الله وأنا بالله وبرك وأنا متوكل على الله وعليك والله لي في السماء وأنت في الأرض وهذا من صدقاتك وصدقات الله وأنا أتوب إلى الله وإليك وأنا في حسب الله وحسبك فيسجد المخلوق كما يسجد المشركون لغير خيبر يعنى رأسه له ويحلف باسمه وينذر له ويسجد لقبه بعد موته ويستغيث به في حوائج الدنيا والآخرة ويرضيه بسخط الله ولا يسخطه في رضا الله ويتقرب إليه أعظم مما يتقرب إلى الله بغير رضاه ويرجوه أكثر مما يحب الله ويخافه ويرجوه أو يسأونه . فإذا هتف المخلوق بحسب الله ويرجوه وأنزله منزلة العبد المحض الذي لا يملك نفسه فضلاً عن غيره ضراً ولا نفعاً ولا منراً ولا يملكه ولا نشوراً لم يكن هذا تنقصاً له ولا حظاً من مراتبه ولو رغب المشركون في عظم من سجد له ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال لو نظر بنى كما أطرت النصارى من عظم من سجد له عبد فقولوا عبد الله ورسوله . وقال أيها الناس ما أحب أن ترفعوني فوق من سجد لي فقولوا لا تتخذوا قبرى عبداً . وقال اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد وقل لا تتقربوا إلى الله بشيء محمد وقال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أجمعاني لله ندا ؟ وقال له رجل فإني أتوب إليك ولأنتوب إلى محمد ؛ فقال عرف الحق لأهله وقد قال الله له (ليس أشرك إلا من جرهم) وقال (قل إنا لأمر كماه لله) وقال (قل لأملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله) وقال (قل إني لأملك لنفسي ضراً ولا رشداً قل إني إن يحينني من الله أحد وإن أحد من دونه ملتحداً) أي إن أحد من دونه من النجى . إليه وأعتد عليه وقال لا بدته وطيبه وعمه العباس وعمته صفية لأملك لكم من الله شيئاً وفي لفظ في الصحيح لا أغنى عنكم من الله شيئاً فومئذ ذلك على المشركين بشيوخهم وآلهتهم وأبوا ذلك كله وادعوا الشيوخهم ومعبودهم وخلائقهم هذا كله وزعموا أن من ملهم ذلك فقد هضمهم مراتبهم وتقصيرهم . وقد هتفوا جارات إبراهيم

بأية المصطفى ، فقصدوه فلم تصيب واقر من قوله تعالى (وإذا ذكر الله وحده اشأزت قلوب
الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) .

فصل

من المبرورين من تعبدوا بتأدية النصوص على ما هي عليه وآله وسلم وإهدار أقوال العلماء ولغايتها
في العلم أن لا تقصد على ما جاء به قول أحد ولا رأيه كما من كان بل تنظر في صحة
القول والاعتناء به في كل ما طرقت في معناه ثانياً فإذا تبين لك لم تعدل عنه ولو خالفك من
العلماء في ذلك فاعلم أن تنهق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها بل لا بد أن يكون في
القول ما يدل على أن قولك الذي جعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله بل اذهب إلى
العلماء في كل ما جاء به من قولهم وأما أنتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه فهم دائرون
بما جاء به من قولهم ولا يمكن إلا بوحى هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد
على قول الجماعة بل علم بها منك فإن كان كذلك فن ذهب إلى النص أعلم به منك فهلا وافقته
فإن كان في قولهم من قولهم على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف
فإن كان في قولهم من قولهم بل اقتدى به فأنهم كلهم أمروا بذلك فتبهم حقاً من أمثال
العلماء من قولهم في قولهم في القول الذي جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم في
قولهم من قولهم ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم ، ومن هنا يتبين الفرق
بين قولهم من قولهم بين ما قال وبين الاستمانة بفهمه والاستمضاء بنور علمه ، فالأول يأخذ
بما جاء به من قولهم ولا يطلب إراديته من الكتاب والسنة بل يجعل ذلك كالحبل الذي يلقيه في
البحر فيقول له وأذلك من قولهم تفيداً بخلاف ما استعان بفهمه واستمضاء بنور علمه في الوصول
إلى الرسول - صلوات الله وسلامه عليه فإنه يعلم بمذلة الدليل إلى الدليل الأول فإذا وصل
إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره فن استدال بالنجم على القبلة فإنه إذا شاهدها لم يبق
للاستدلاله بالنجم معنى . قال الشافعي أجمع للناس على أن من استبان له سنة رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد .

فصل

والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أن أولياء الرحمن (لاخوف عليهم ولا هم
يخافون) هم (الذين آمنوا وكانوا يتقون) وهم المذكورون في أول سورة البقرة إلى قوله
(ثم أتاهم الموت) وفي وسطها في قوله (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) إلى قوله

(أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وفي أول الانفال إلى قوله (لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) وفي أول سورة المؤمنين إلى قوله (هم فيها خالدون) وفي آخر سورة الفرقان ، وفي قوله (إن المسالمين والمسلمات) إلى آخر الآية وفي قوله (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون) وفي قوله (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) وفي قوله (إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) إلى قوله (في جنات مكرمون) وفي قوله (التائبون العابدون الحامدون) إلى آخر الآية .

فأولياء الرحمن هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله في الحرم والحل الذين يخالفون غيره لسنته ولا يخالفون سنته لغيرها فلا يتدعون ولا يدعون إلى بدعة ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه ولا يتخذون دينهم لهواً ولعباً ولا يستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن ولا يؤثرون صحة الافتان على مرضاة الرحمن ولا المعازف والمثاني على السبع المثاني :

برئنا إلى الله من معشر	هم مرض مورد للضنا
وكم قلت يا قوم أنتم على	شفا جرف من سماع الضنا
فلما استهانوا بتذبيها	تركنا قويا وما قد جنا
وهل يستجيب لداعي الهدى	غوى اصار الضنا ديدنا ؟
فمضنا على ملة المصطفى	وماتوا على تاتنا ننتنا

ولا يشبه أولياء الرحمن بأولياء الشيطان إلا على فاقد البصيرة والإيمان وأنى يكون المعرضون عن كتابه وهدى رسوله وسنته المخالفون له إلى غيره أولياءه وقد ضربوا لمخالفته جاشاً وعدلوا عن هدى نبيه وطريقته (وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون)

فأولياء الرحمن المتلبسون بما يحبه وليهم الداهون إليه المحاربون لمن خرج عنه وأولياء الشيطان المتلبسون بما يحبه وليهم قولا وعملا يدهون إليه ويحاربون من نهام عنه . فإذا رأيت الرجل يحب السباح الشيطاني ومؤذن الشيطان وإخوان الشياطين ويدهو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور علمت أنه من أولياءه ، فإن اشتبه عليك فاكشفه في ثلاثة مواطن في صلاته ومحبه للسنه وأهلها ونفرتهم عنهم ودهوته إلى الله ورسوله وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السنه فزنه بذلك لاتزنه بحال ولا كشف ولا خارق ولو مشى على الماء وطار في الهواء .

فصل

وبهذا يعلم الفرق بين الحال الإيماني والحال الشيطاني فإن الحال الإيماني ثمرة المتابعة للرسول والإخلاص في العمل وتجريد التوحيد ونتيجته منفعة المسلمين في دينهم ودنياهم وهو إنما يصح بالاستقامة على السنة والوقوف مع الأمر والنهي .

والحال الشيطاني نسبه إما شرك أو مجرور وهو ينشأ من قرب الشياطين والاتصال بهم ومشابهم وهذا الحال يكون لعباد الأصنام والصلبان والنيران والشيطان فإن صاحبه لما عبد الشيطان خلع عليه حلالا يصطاد به ضعفاء العقول والإيمان ولا إله إلا الله كم هلك هؤلاء من الخلق (ايردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه) فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب وما جاء به الرسول فهو شيطاني كائناً ما كان ، وقد سمعت بأحوال السحرة وعباد النار وعباد الصليب وكثير ممن ينتسب إلى الإسلام ظاهراً وهو برئء منه في الباطن له نصيب من هذا الحال بحسب موالاته للشيطان ومعاداته للرحمن ، وقد يكون الرجل صادقاً ولكن يكون ملبوساً عليه بجهله فيكون حاله شيطانياً مع زهد وعبادة وإخلاص لكن ليس عليه الأمر لقلته عليه بأمور الشياطين والملائكة وجهله بحقائق الإيمان ، وقد حكى هؤلاء وهؤلاء من ليس منهم بل هو متشبهه صاحب مخايل ومخاريق ووقع الناس في البلاء بسبب عدم التمييز بين هؤلاء وهؤلاء فحسبوا كل سوداء ثمرة وكل بيضاء شحمة ، والفرقان أعز مافي هذا العالم وهو نور يقذفه الله في القلب يفرق به بين الحق والباطل ويزين به حقائق الأمور خيراً وشرها وصالحها وفاسدها فمن عدم الفرقان وقع ولا بد في إشراك الشيطان فانه المستعان وعليه التكلان .

فصل

والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذي غابته أن يكون جائز الاتباع أن الحكم المنزل هو الذي أنزله الله على رسوله وحكم به بين عباده وهو حكمه الذي لاحكم له سواه .

وأما الحكم المؤول فهو أقوال المجتهدين المختلفة التي لا يجب اتباعها ولا يكفر ولا يفسق من خالفها فإن أصحابها لم يقولوا هذا حكم الله ورسوله بل قالوا اجتهدنا برأينا فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله ، ولم يلزموا به الأمة بل قال أبو حنيفة هذا رأي فمن جاءني بخير منه قبلناه . ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبي يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه ، وكذلك مالك استشاره الرشيد أن يحمل الناس على مافي الموطأ فتمعه من ذلك وقال قد تفرق أصحاب رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم في البلاد وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين وهذا الشافعي ينهى أصحابه عن تقليده ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه ، وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودونها ويقول لا تقلدني ولا تقلد فلاناً ولا فلاناً وخذ من حيث أخذوا ولو علموا رضى الله عنهم أن أقوالهم يجب اتباعها لحرموها على أصحابهم مخالفتهم ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم في شيء ، ولما كان أحدهم يقول القول ثم يفتى بخلافه فيروى عنه في المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك فالرأى والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه ، والحكم المنزل لا يحل لمسلم أن يخالفه ولا يخرج عنه .

وأما الحكم المبدل وهو الحكم بغير ما أنزل الله فلا يحل تنفيذه ولا العمل به ولا يسوغ اتباعه وصاحبه بين الكفر والفسوق والظلم .

والمقصود التنبيه على بعض أحوال النفس المطمئنة واللوامة والامارة وما اشترك فيه النفوس الثلاثة وما يتميز به بعضها من بعض وأفعال كل واحدة منها واختلافها ومقاصدها ونياتنا وفي ذلك تنبيه على ما وراءه ، وهى نفس واحدة تكون أماره تارة ولوامه أخرى ومطمئنة أخرى ، وأكثر الناس الغالب عليهم الامارة ، وأما المطمئنة فهى أقل النفوس البشرية عدداً وأعظمها عند الله قدراً وهى التى يقال لها (ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) .

والله سبحانه وتعالى المسئول المرجو الإجابة أن يجعل نفوسنا مطمئنة إليه عاكفة بهمتها عليه راضية منه راغبة فيما لديه وأن يعيدنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وأن لا يجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره وأتبع هواه وكان أمره فرطاً ولا يجعلنا من (الآخرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) انه سميع الدعاء وأهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

تم الكتاب

تم طبع كتاب [الروح لابن القيم] وذلك في يوم السبت ١١ من رمضان
المعظم سنة ١٣٨٦ هجرية (الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦ ميلادية)

طبعة محمد علي بسجفندان لآزم

فهرس

كتاب الروح لا بن القيم

الموضوع

الصفحة

خطبة الكتاب	٣
المسألة الأولى في معرفة الاموات بزيارة الاحياء وسلامهم	٥
ما يقول الطير يوم الجمعة	٦
تواطؤ رؤيا المؤمنين كتواطؤ روايتهم	٩
الميت يستأنس بالمشيعين	٩
القراءة عند دفن الميت	١٠
القراءة عند القبور بحقيب الدفن	١١
فصل في أن الموتى يسألون عن الاحياء ويعرفون أقوالهم وأفعالهم	١٢
فصل في الاستدلال على سماع الموتى من إجراء العمل على تلقين الميت في القبر	١٣
أخبار الاموات بما حدث في أهلهم بعدهم وبما يحدث	١٤
قصة وصية ثابت بن قيس رضی الله عنه بعد موته	١٥
أنفذ أبو بكر رضی الله عنه وصية ثابت بن قيس التي أوصى بها في المنام بعد المهاد	١٥
المسألة الثانية في أن أرواح الموتى هل تتلاقى وتتزاور وتتذاكر أم لا	١٧
ذكر الدجال ويأجوج وماجوج	١٧
الاحاديث الدالة على تلاقى أرواح الموتى وتعارفهم	١٩
المسألة الثالثة هل تتلاقى أرواح الاحياء وأرواح الاموات أم لا	٢٠
قصة وفاة مالك بن دينار رحمه الله تعالى	٢٢
قصة رؤية رجاء بن حيوة بعد موته	٢٣
قصة رؤيا رابعة رحمة الله بعد موتها	٢٣
رؤيا بعض أهل عاصم الجحدري بعد عماته إياه	٢٤
قصة رؤيا مره الهمداني رحمه الله تعالى	٢٤
قصة رؤيا أويس القرني بعد وفاته رحمه الله تعالى	٢٤

الموضوع	الصفحة
ذكر عرض الحسنات والسيئات كلها على الأرواح	۲۵
رؤيا عمر بن عبد العزيز رحمه الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أصحابه الأربعة في المنام	۲۵
ذكر رؤية معاذ بن جبل رضى الله عنه وما كان عليه من النعيم	۲۶
ذكر منزلة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في الآخرة	۲۸
رؤية بشر الحافي رحمه الله تعالى بعد موته	۲۸
اتباع الآثار وصحبة الاخيار ينجيان من النار ويقربان من العزيز الغفار	۲۸
الدلائل العقلية على ملاقات الأرواح	۲۹
الرؤيا على ثلاثة أنواع منها الرؤيا الصحيحة ولها أقسام	۲۹
الاسئلة الثلاثة العجيبة عن على كرم الله وجهه مع جواباتها	۳۰
يعرج بروح النائم إلى العرش ويؤذن لها بالسجود إن كان طاهر	۳۱
كيف تلتقي روح النائم وروح اليقظان	۳۱
ذكر الحكم والمصالح من الله تعالى للعباد في الرؤيا	۳۲
نوادير رؤيا أبي محمد البغائشي	۳۲
جنس العفريت على المال	۳۳
المسألة الرابعة أن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده	۳۴
بحث في معنى موت النفوس	۳۴
ذكر نفخ الصور والصعق ومن مو مستثنى عنه	۳۵
بان حديث الناس يصدقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق الخ	۳۷
بحث في معنى الموت ماهو	۳۷
المسألة الخامسة أن الأرواح كيف تتميز بعد مفارقة الأبدان بعضها من بعض	۳۸
الروح ذات قائمة بنفسها على أصول أهل السنة	۴۰
المسألة السادسة هل تعاد الروح في قبره وقت السؤال أم لا	۴۱
الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق	۴۳
رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم الأنبياء ليلة الامراء	۴۴
تحقيق سماع الموتى	۴۶
ذكر حالة النزاع لروح المؤمنين ولروح الكافر وما يمضي عليهما في القبر مفصلا	۴۶

الموضوع	الصفحة
فصل في أن هل عذاب القبر على النفس والبدن أو على النفس دون البدن أو على البدن دون النفس وهل يشارك البدن النفس في النعيم والعذاب أم لا	۵۱
فصل في أن مذهب السلف أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب مع الروح والبدن	۵۲
فصل في ذكر أحاديث عذاب القبر ومسألة منكر ونكير	۵۲
عذاب القبر تسمعه البهائم	۵۴
حكاية عجيبة لاستماع الدابة عذاب القبر بمراى من الناس	۵۵
تمثل الاعمال في القبر لوقاية صاحبها	۵۶
تمثل الشمس في القبر كأنها تغرب	۵۶
أحاديث ضغطة القبر	۵۶
فصل في أن عذاب القبر حق باتفاق أهل السنة	۵۷
فصل في أن عذاب القبر ينال من هو مستحق له قبر أو لم يقبر ولو أكلته السباع	۵۸
ذكر عذاب القبر لمن يحدث بالكذب	۵۸
ذكر عذاب الزناة وآكلى الربا	۵۸
عذاب من صلى بغير طهور أو مر على مظلوم فلم ينصره	۵۹
ذكر قصة الإسراء	۵۹
عذاب المتهاون بالصلاة	۶۰
عذاب مانع الزكاة	۶۱
المسألة السابعة في جواب الملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر ونيمة وما يتعلق بهما	۶۱
ذكر الامور التي يعلم بها الجواب للملاحدة والزنادقة	۶۱
الامر الاول	۶۲
الامر الثاني	۶۲
الامر الثالث	۶۳
توجيه لطيف في إثبات عذاب القبر	۶۴
الامر الرابع	۶۴
قصة سلام الملائكة على المحتضر وجوابه	۶۴

الموضوع	الصفحة
قصة خير النجاج رحمه الله تعالى	٦٥
قصة وفاة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى	٦٥
الامر الخامس والسادس	٦٦
ذكر الحكمة في ستر العذاب من الناس دون البهائم	٦٧
عذاب القبر يظهر أحيانا إذا شاء الله تعالى	٦٧
عذاب تأخير الصلاة والصلاة بغير طهور	٦٧
عذاب المشى تبخترا	٦٧
عذاب سوء الادب في شأن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين	٧٠
الامر السابع	٧١
عدم كشف عذاب القبر رحمة للعباد	٧١
الامر الثامن	٧٢
تفسير آية وإن من شيء إلا يسبح بحمده الخ	٧٢
إذا وقع الشعور للأشجار والأحجار فالأجسام ذات الأرواح أولى بذلك	٧٢
الامر التاسع	٧٣
عذاب القبر هو عذاب البرزخ	٧٣
الامر العاشر	٧٤
ذكر القيامة الصغرى والقيامة الكبرى	٧٤
البرزخ أول دار الجزاء	٧٤
المسألة الثامنة في أن ما الحكمة في عدم ذكر عذاب القبر في القرآن مع شدة الحاجة إليه	٧٥
الحكمة هي السنة بالإجماع	٧٥
المسألة التاسعة وهي قول السائل ما الأسباب التي تعذب بها أصحاب القبور	٧٧
المسألة العاشرة في الأسباب المنجية من عذاب القبر	٧٩
ذكر محاسبة النفس عند النوم	٧٩
ذكر فضائل الشهداء	٨٠
فضيلة سورة الملك	٨٠
من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة أجير من عذاب القبر	٨١

الموضوع	الصفحة
ذكر مدافعة أنواع العذاب بأنواع الاعمال مفصلاً	٨٢
رؤيا الأنبياء وحى	٨٣
المسألة الحادية عشرة أن السؤال في القبر هل هو عام في حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق	٨٣
اسم الفاجر يعم الكافر قطعاً في القرآن	٨٥
المسألة الثانية عشرة في أن سؤال منكر ونكير هل هو مختص بهذه الامة أو يكون لها ولغيرها	٨٦
المسألة الثالثة عشرة أن الأطفال هل يمتحنون في قبورهم	٨٧
المسألة الرابعة عشرة وهي قوله هل عذاب القبر دائم أو منقطع	٨٩
المسألة الخامسة عشرة في أنه أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة الخ	٩٠
الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام	٩٠
فصل في بيان قول من قال إن الأرواح في الجنة	٩٣
فصل في بيان قول مجاهد إن الأرواح ليست في الجنة	٩٩
فصل في بيان قول من قال إن الأرواح على أفنية قبورها	١٠٠
روح النائم تصعد فتسجد بين يدي العرش	١٠١
فصل في أن شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القرة والضعف والكبر والصغر	١٠٢
فصل في بيان قول من قال إن أرواح المؤمنين عند الله تعالى	١٠٤
بيان سدرة المنتهى وسجين وعليين	١٠٥
قصة قبض روح إدريس عليه السلام في السماء الرابعة	١٠٥
وجه تسمية سدرة المنتهى	١٠٥
فصل في بيان قول أن أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار بمخزرموت	١٠٦
برهوت	
فصل في بيان قول أن الأرواح تجتمع في الأرض التي قال الله فيها يرثها عبادي الصالحون	١٠٧
فصل في بيان قول من قال مستقر أرواح المؤمنين في عليين والكفار في سجين	١٠٧

الموضوع	الصفحة
فصل في إبطال كون الأرواح في بئر زمزم	۱۰۸
فصل في بيان قول أن أرواح المؤمنين في برزخ من الأرض تذهب حيث شامت وأرواح الكفار عن يساره	۱۰۸
فصل في بيان قول أن أرواح المؤمنين عن يمين آدم عليه السلام	۱۰۸
فصل في بيان قول ابن حزم أن مستقر الأرواح حيث كانت قبل خلق أجسادها	۱۰۹
فصل في بيان قول من قال إن مستقر الأرواح العدم المحض	۱۱۰
فصل في بيان قول من قال إن للأرواح بعد الموت أبدان آخر غير هذه الأبدان	۱۱۲
القول الراجح في مستقر الأرواح	۱۱۳
لنفس أربع دور كل دار منها أعظم من التي قبلها	۱۱۶
المسألة السادسة عشرة هل تنفع أرواح الموتى من سعى الأحياء أم لا	۱۱۷
الدليل على انتفاع الميت بما تسبب إليه في حياته	۱۱۸
فصل في الدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه	۱۱۸
فصل في إثبات وصول ثواب الصدقة إلى الميت	۱۱۹
د د وصول ثواب الصوم والحج	۱۲۰
د د د الحج	۱۲۱
العبادات قسمان مالية وبدنية	۱۲۳
دلائل المانع من وصول ثواب العبادات إلى الأموات	۱۲۴
ذكر سبع يجرى على الميت أجرهن في قبره	۱۲۴
دلائل المقتصرين على وصول ثواب العبادات التي تدخلها النيابة	۱۲۶
وجوه الجواب	۱۲۸
فصل في نفي عقوبة العبد بعمل غيره	۱۲۹
د د أن الاستدلال بحديث إذا مات العبد ساقط	۱۲۹
د د جواب قولهم الإهداء حوالة الخ	۱۲۹
د د الإيثار بسبب الثواب مكروه	۱۲۹
د د لو ساغ الإهداء إلى الميت لساغ إلى الحي	۱۳۰
د د ذلك لساغ إهداء نصف الثواب وربعه إلى الميت	۱۳۲
د د ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعمل له لنفسه	۱۳۲

الموضوع	الصفحة
فصل في جواب قولهم لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات التي تجب على المحي	۱۳۳
د د د أن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البذل	۱۳۳
قراءة الإمام قراءة لمن خلفه	۱۳۴
فصل في جواب قولهم أنه لو نفعه عمل غيره لنفعه توبته منه وإسلامه عنه	۱۳۴
د د د العبادات نوعان الخ	۱۳۵
فصل في الجواب عن رد حديث من مات وعليه صيام الخ	۱۳۶
فصل في جواب ما قالوا إن ابن عباس هو راوي حديث الصوم عن الميت الخ	۱۳۷
فصل في جواب ما قالوا إنه حديث اختلف في إسناده الخ	۱۳۷
د د د تغليظ راوي حديث ابن عباس أن نذر أم سعد كان صوما الخ	۱۳۹
فصل في ذكر أقوال أهل العلم في الصوم عن الميت	۱۴۰
فصل في جواب من فرق بين ثواب النفقة وبين ثواب الحج	۱۴۰
فصل هل يشترط في إيصال الثواب التلفظ بالإهداء أم يكفي مجرد النية	۱۴۱
هل يتعين في إهداء الثواب تعليق العمل بالقبول أم لا	۱۴۱
أى الأعمال أفضل في إهداء الثواب إلى الميت	۱۴۲
بيان وصول ثواب قراءة القرآن وما يتعلق به	۱۴۳
إهداء ثواب الأعمال إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم	۱۴۳
المسألة السابعة عشرة وهي هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة	۱۴۴
اختلاف الأقوال في الروح هل ما نقله الحافظ ابن منده	۱۴۴
الروح تموت أم لا	۱۴۵
فصل في بيان الدلائل على خلق الأرواح	۱۴۶
ذكر الاختلاف في معنى الروح في الآية الكريمة بين السلف والخلف	۱۵۱
بيان اختلاف الروايات عن ابن عباس في تفسير آية ريسلونك عن الروح	۱۵۲
بيان أن معنى الروح في القرآن على عدة أوجه	۱۵۳
فصل في بيان إضافات الصفات إلى الله تعالى	۱۵۴
المسألة الثامنة عشرة وهي تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها	۱۵۶
دلائل من يقول بتقدم خلق الأرواح على خلق الأبدان	۱۵۶

الموضوع	الصفحة
فصل في ذكر الدليل على أن الأرواح خلقت بعد خلق الأبدان والجواب عما استدل به القائلون بتقدم خلق الأرواح	١٦٠
تفسير آية وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم نخ	١٦٣
فصل في القول الآخر في تفسير الآية	١٦٣
• على كل تقدير لا تدل الآية على خلق الأرواح قبل الأجساد خلقاً مستقراً	١٧١
• في الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها	١٧٢
المسألة التاسعة عشرة وهي ما حقيقة النفس	١٧٥
القول الصواب في حقيقة الروح الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل وذكر دلائله	١٧٩
فصل	١٨٣
•	١٨٣
•	١٨٤
•	١٨٥
•	١٨٨
قصة ذبح الرافضي الذي كان يسب الشيخين رضي الله عنهما في المنام	١٨٩
قصة سواد الوجه لساب على كرم الله وجهه في المنام	١٨٩
حكاية تسويد نصف الوجه لساب الشيخين رضي الله عنهما	١٩٠
قصة ذبح ساب الشيخين رضي الله عنهما	١٩١
قصة سواد الوجه لتأخير الإفطار خلاف أمره صلى الله عليه وآله وسلم	١٩١
دعاء رد البصر	١٩٢
علاج وجع الورك	١٩٢
• وجع المعدة من روح جالينوس الحكيم	١٩٢
فصل	١٩٢
•	١٩٣
• في بيان أدلة المنازعين في جسمية الروح وتجهيزها	١٩٧
• جواب الشبهة الأولى لمنازعي جسمية الروح والنفس	٢٠١
• الثانية	٢٠١

الموضوع	الصفحة
فصل في جواب الشبهة الثالثة	٢٠٤
الرابعة	٢٠٥
الخامسة	٢٠٦
السادسة	٢٠٧
السابعة	٢٠٧
الثامنة	٢٠٨
التاسعة	٢٠٩
العاشر	٢١٠
الحادية عشرة	٢١٠
الثانية عشرة	٢١٠
الثالثة عشرة	٢١١
الرابعة عشرة	٢١١
الخامسة عشرة	٢١١
السادسة عشرة	٢١٢
السابعة عشرة	٢١٢
الثامنة عشرة	٢١٣
عمل دفع ضرر العين	٢١٤
فصل في جواب الشبهة التاسعة عشرة	٢١٥
العشرين	٢١٥
الحادية والعشرين	٢١٦
تكفير منكري الجن والملائكة	٢١٦
فصل في جواب الشبهة الثانية والعشرين	٢١٦
دخول الجن في المصروع	٢١٦
المسألة العشرون وهي هل النفس والروح شيء واحد أو شيان	٢١٧
وجه تسمية الروح والنفس والفرق بينهما	٢١٧
فصل في قول من قال أن الروح غير النفس	٢١٨
المسألة الحادية والعشرون هل النفس واحدة أم ثلاث	١٢٠

الموضوع	الصفحة
فصل في أن الطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان	۲۲۱
• • • أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كلالاً	۲۲۲
• • • مباشرة الروح الطمأنينة	۲۲۳
• • • المحاسبة والمراقبة	۲۲۵
• • • النفس اللوامة وأحوالها	۲۲۵
• • • ذكر النفس الأمانة وأحوالها	۲۲۶
• • • أن النفس الأمانة في مقابلة النفس المطمئنة	۲۲۸
• • • إراءة النفس الأمانة الاخلاص في صورة ينفر منها	۲۲۹
• • • إراءتها صورة الصدق والجهاد وغيرها في صورة متضادة	۲۳۰
• • • الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق	۲۳۲
• • • الفرق بين شرف النفس والتب	۲۳۳
• • • الحمية والجفاء	۲۳۳
• • • التواضع والمهانة	۲۳۳
• • • القوة في أمر الله والعلو في الأرض وفي الحمية لله والحمية للنفس	۲۳۴
• • • الجود والسرف	۲۳۵
• • • المهابة والتكبر	۲۳۵
• • • الصيانة والتكبر	۲۳۶
• • • الشجاعة والجرأة	۲۳۶
• • • الحزم والجبن	۲۳۷
• • • الاقتصاد والشح	۲۳۷
• • • الاحتراز وسوء الظن	۲۳۷
• • • الفراسة والظن	۲۳۸
• • • حكايات تفرس أمير المؤمنين عمر وعثمان رضي الله عنهما وغيرهما من أكابر الدين	۲۳۹
• • • فصل في الفرق بين النصيحة والغبية	۲۴۰
• • • الهدية والرشوة	۲۴۰
• • • إعطاء الرشوة لدفع الظلم	۲۴۰
• • • فصل في الفرق بين الصبر والقسوة	۲۴۱

الموضوع	الصفحة
القلوب ثلاثة	۲۴۱
فصل في الفرق بين العفو والذل	۲۴۱
تسبيح حملة العرش وهم أربعة	۲۴۱
الفرق بين الانتصار والانتقام	۲۴۲
فصل في الفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل	۲۴۳
الثقة والغرة	۲۴۴
الرجاء والتمنى	۲۴۵
تحدث بنعم الله والفخر بها	۲۴۷
فرح القلب وفرح النفس	۲۴۸
بيان أعظم الفرح	۲۴۹
الفرق بين رقة القلب والجزع	۲۵۰
الموجدة والحقد	۲۵۱
المنافسة والحسد	۲۵۱
حب الرياسة وحب الامارة	۲۵۲
الحب في الله والحب مع الله	۲۵۳
التوكل والمعجز	۲۵۴
الاشياط والوسوسة	۲۵۶
الهام الملك والقاء الشيطان	۲۵۶
الاقتصاد والتقصير	۲۵۷
النصيحة والتأنيب	۲۵۷
المبادرة والمعجلة	۲۵۸
الاخبار بالحال وبين الشكوى	۲۵۸
الدين كله فرق والضلال كله جمع	۲۶۰
الرد على الطائفة الاتحادية في مقولة الاتحاد وذكر قصوصهم وروايع نصوصهم	۲۶۰
فصل في بيان الإشارة اللطيفة إلى الفروق بين هذه الامور المذكورة انفا	۲۶۱
في الفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة	۲۶۱

الموضوع	الصفحة
فصل في الفرق بين حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل	٢٦٢
فصل في الفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم أرباب المراتب	٢٦٣
متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم وإهدار أقوال العلماء وإلغائها	٢٦٤
فصل في الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان	٢٦٤
فصل في الفرق بين الحال الإيماني والحال الشيطاني	٢٦٦
فصل في الفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذي غايته أن يكون جائزا للاتباع والحكم المبدل	٢٦٦

تم الفهرس



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتاب من كتاب الأسماء والألقاب
والأخبار والآثار وأقوال العلماء

بسم الله

الإمام أبي القاسم محمد بن قسيم الجوزي
في الأسماء والألقاب والآثار

المكتبة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان